في مصر الإسلامية

مجموعة كتاب وباحثين

الكتاب: في مصر الإسلامية

الكاتب: مجموعة كتاب وباحثين

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

في مصر الإسلامية/ مجموعة كتاب وباحثين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣١١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٩٧ – ٦٧٧٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٨٣٤ / ٢٠٢٠

في مصر الإسلامية





مقدمة

د. زكي محمد حسن
أمين دار الآثار العربية

كانت إحدى المدينتين اللتين، وزعتهما إدارة المقتطف على مشتركيه في العام الماضي كتابًا عن مصر الفرعونية . ورأى الأستاذ فؤاد صروف أن يكون هذا العام دور مصر الإسلامية؛ لأن من حق العرب علينا – وإليهم ندين بحبل ثقافتنا الحالية – أن نشيد بذكر ما كانت عليه مصر بعد أن فتحوها، وطبعوها بطابع إسلامي لا يزال باقيا حتى الآن، ولأننا مقبلون على الاحتفال بمضي ألف عام على تأسيس القاهرة، فطبيعي أن مهد لهذا العيد بمؤلفات نذكر فيها عظمة المدنية الإسلامية في وادي النيل، ولم بطرف من الأحداث التي توالت على مدينة المعز، وقد كانت منذ إنشائها من المراكز الرئيسية الخطيرة الشأن للتطور السياسي، والثقافي، والديني في الإسلام.

لهذا طلب الأستاذ فؤاد صروف إلى صديقي عبد الرحمن زكي، وإلى أن تنهض بعبء كتاب صغير عن مصر الإسلامية ، فلبينا النداء عن طيبة خاطر. ولكننا آثرنا أن نضع الحق في نصابه، وألّا يكون كتابنا عن مصدر الإسلامية؛ لأننا لا نستطيع أن نفي هذا الموضوع حقه في فترة قصيرة من الزمن.

أردت في هذه المقدمة تقديم ستعراض سريع لبعض الحوادث في تاريخ مصر في العصور الوسطى لنبين المكانة التي كانت لبلادنا في القيصرية الإسلامية في تلك العصور، ولنثبت أن الزعامة التي آلت إليها في العالم الإسلامي لم تكن وليدة العصر الحديث فهي تقوم على دعائم قوية منذ فتح العرب مصر، وفرضوا عليها دينهم، ولغتهم، وقاموا بتعريبها كما قامت بتمصيرهم.

وجدير بنا أن نقرر أن العرب كانوا يعرفون لمصر خطرها، ومكانتها منذ البداية، فنحن لا نؤمن بأسطورة الكتاب الذي يروي بعض المؤرخين أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسله إلى قائده عمرو بن العاص، ليرجع عن فتح مصر.

ولا نؤمن بأن مصر فتحت بدون رغبة الخليفة. ولا غرو فإننا لا نرمي العرب بأنهم كانوا يجهلون ما كانت عليه مصر من الثروة، والخصب، ولا ما كان فيها من الخلافات الدينية بين الحكام الروم، والمحكومين المصريين، والاضطهاد الديني، وأثقال الضرائب التي كان يئن تحت عبها هؤلاء. ولا نريد أن نهم العرب بأنهم كانوا يجهلون أن مصر فريسة سهلة، وأن الاستيلاء عليها ضرورة حربية لاتقاء خطر الروم، ولتأمين استيلاء المسلمين على ربوع الشام، وأن القبط[1] سوف يقفون منهم موقف

([1]) كان العرب يعرفون سكان مصر الوطنيين بهذا الاسم، وهو مشتق من اسم البلد باللغة اليونانية، الذي أخذ منه اسمها في اللغات الأوربية، بينما كانوا يطلقون على وادي النيل اسمه السامي القديم: مصر.

المحايد، إن لم يصبحوا عونا لهم على الروم.

ومهما يكن من شيء فالمعروف أن الولاة العرب لم يلبثوا بعد الفتح أن بدأوا في إرسال الغلال سنويا من مصر إلى الحجاز كما كان يرسلها ولاة الروم من قبلهم إلى روما ثم القسطنطينية[1].

وظل وادي النيل زهاء قرنين من الزمان يحكمه ولاة يعينهم أولياء الأمر في بلاد العرب. ولكن الذين استقروا في مصر من المسلمين ظلوا على اتصال بالحجاز، والشام ، بل سار مهم وفد إلى المدينة زعم الثورة التي انتهت مأساة الخليفة عثمان. وخضعت مصر بعد ذلك فترة من الزمن السلطان علي بن أبي طالب.

ولكن عمرو بن العاص الذي كان بطل الفتح العربي منذ البداية ، فسلمت له بابليون، والإسكندرية صلحًا، والذي أتيح له بعد ذلك أن يستدعي إلى مصر في عهد خلفه، فيفتح الإسكندرية عنوة، حين قدم إليها سنة ٢٥هـ (٦٤٥ م) أسطول بيزنطي رحبّت به، وشقت عصا الطاعة على المسلمين، نقول أن عمر هذا كان من أكبر أنصار معاوية في نضاله على الخلافة مع علي بن أبي طالب، وإنه سار إلى مصر بجيش أخضعها لحكم معاوية فكافأه هذا على إخلاصه، ودهائه بأن منحه وادي النيل طعمه له بعد عطاء الجند، ونفقة الإدارة.

---

(1) كان نظام إرسال الأقوات اللازمة في كل عام لعاصمة الدولة الرومانية يعرف باسم annona civica

وكان خضوع مصر لمعاوية إيذانًا برجحان كفته . ثم قتل علي، واستتب الحكم لبني أمية فولي مصر في عهدهم بعد وفاة عمرو واحد وعشرون واليا، حكم أحدهم البلد نحو تسعة أشهر نائبا عن ابن الزبير إلى أن سار إلى مصر مروان بن الحكم فطرده منها.

ومن أخطر هؤلاء الولاة شأنا عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك ، وكان يحكم مصر من مقره بحلوان كأنه أمير مستقل لا يكاد يكون للخلافة أي سلطان عليه.

وعندما قويت الدعوة لبني هاشم، وتمخضت عن سقوط بني أمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م)، كانت مصر الإقليم الذي اختاره مروان بن محمد ليعتصم به ، ولكن جيشا عباسا تبعه إليها. وقتل مروان [1]، فتقلد الحكم في وادي النيل صالح بن علي قائد هذا الجيش، وتوالى علي مصر حتى سنة ٢٥٤هـ (٩٦٧م) أربعة وستون حاكمًا، ولى أحدهم الأمر ثلاث مرات، وولى تسعة آخرون الحكم مرتين.

وكان القبط من ناحية، وبعض العرب المشاغبين من ناحية أخرى يثورون بين حين، وآخر فتخضهم الحكومة. وقد زار المأمون مصر فوضع حدا لكثير من الاضطراب فيها، وزاد دخول القبط في الدين الإسلامي

---

[1] كان قتل هذا الخليفة أثر ظاهر في الأساطير القبطية حيث اعتبر فيها بطلًا من الأبطال. وقد نقل صاحب تاريخ البطارقة تفاصيل دقيقة عن هذا الحادث.

فلم يلبث المسلمون إن صاروا أغلبية في البلاد. وصارت العربية لغة البلاد حتى كان رجال الدين من القبط في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مضطرين إلى الكتابة بها. وزادت هجرة القبائل العربية، والتجار العرب [1] وكان لذلك اليد الطولى في سرعة تعريب البلاد في نفس الوقت الذي مصر فيه العرب الفاتحون.

ومهما يكن من شيء فإن مصر في القرنين الذين جاء بعد الفتح العربي سرعان ما أصبحت درة نفيسة في القيصرية العربية، فقد كانت الخلافة، وممثلوها يستغلونها إلى أوسع حدود الاستغلال. وفضلا عن ذاك فقد نمت في وادي النيل حركة علمية دينية، واشتهر من الصحابة فيها عبد الله أن عمرو بن العاص، وقد أخذ عنه كثير من العرب الذين استوطنوا مصر. ونبغ من الفقهاء عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد [2]. وكان الأخير صديقة للإمام مالك، ويظن الكثيرون إنه كان أعلم منه، وأن السبب في أنه لم يبلغ شهرته إنما يرجع إلى أن أصحابه لم يرووا عنه أو "إضاعه أصحابه" على حد قول الإمام الشافعي، الذي زار مصر في نهاية القرن الثاني الهجري، وعاش فيها حتى سنة ٢٠٤هـ (٨٢٠ م).

ولما ازداد نفوذ الجند من الأتراك في خدمة البلاط العباسي بدأ الخلفاء سنة جديدة في حكم بعض الأقاليم التابعة للخلافة، وذلك

---

(1) لم يكن العصر الإسلامي أول عهد مصر بالتجار العرب فقد ذكر استرابون الجغرافي الإغريقي أن مدينة كبتس في الصيد كانت نصف عربية.

(2) راجع فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ج ١ ص ٢٢٧-٢٢٣.

بإقطاعها أولياء عهدهم ثم قواد الجند من الترك. وكان هؤلاء القواد يخشون قيام الدسائس ضدهم إذا ابتعدوا عن عاصمة الخلافة، كما كان الخليفة نفسه يرى في بقائهم إلى جانبه ضمانا لعدم استقلالهم بما يولونه من الأقاليم. فكان هؤلاء الولاة لا يحكمون بأنفسهم بل يرسلون إلى الأقاليم عماله من قبلهم، ويتلقون منهم ما يتبقى من الجزية، والخراج بعد دفع نفقات الدولة، والإدارة، فيدفعون منها إلى بيت مال الخليفة أموالا كان يتفاوت قدرها.

وفي سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تقلد حكم مصر القائد التركي باكباك فاستخلف عليها أحمد بن طولون، الذي أسس فيها أسرة مستقلة تبدأ بها حياة مصر لنفسها في مجموعة الأمم الإسلامية. ولم يعد دخل البلاد يتسرب إلى بيت مال الخليفة، أو إلى جيوب الولاة، والعمال.

وعاد إلى مصر سلطانها على الشام للمرة الأولى بعد قرون طويلة. ولم يكن الطولونيون الأسرة الوحيدة التي استقلت عن الخلافة العباسية، فقد سبقتهم، وحذت حذوهم دويلات أخرى، ولكننا نرى أن أكثر هذه الدويلات عملت على تشجيع الشعور الوطني، والتقاليد المحلية، ولا سيما في إيران، بينما عكف الطولونيون على تقليد الخلافة، وبنوا عاصمتهم القطائع على نسق سامرا عاصمة المعتصم، وأخذوا يسيرون في حياتهم الاجتماعية على نسق العباسيين في بغداد، ولكن الذي لا شك فيه بعد هذا كله، أن مصر تبدأ بالأسرة الطولونية صحيفة جديدة في تاريخها الطويل؛ ليكون لها كيانها الخاص بدون أن تطلق الحضارة

الإسلامية، أو تنفصل عن العالم الإسلامي كل الانفصال.

وابن طولون لا يشق عصا الطاعة على الخليفة نفسه؛ لأن المعتمد لم يكن في يده من السلطان شيء، بل كان أخوه الموفق يحكم البلاد باسمه، وكان ابن طولون يظهر بمظهر المدافع عن الخليفة، بل إنه عمل على أن يجذب الخليفة المضطهد إلى مصر، وأن يستمد السلطان منه فيحكم البلاد باسمه، ويجعل مصر قلب العالم الإسلامي، وحاضرته، ولكنه لم ينجح في سعيه هذا ، إذ قبض رجال الموفق على الخليفة، وأعادوه إلى سامرا. وأن يكن بيبرس نجح بعد أربعمائة سنة في تحقيق هذا المشروع، فلم يكن ذلك إلا؛ لأن السلاجقة قضوا على الخلافة في بغداد، فلم يكن عسيرة أن ينصب في مصر خليفة يظهر في بعض المناسبات، والاحتفالات، ويكون له سلطان اسمي حتى يفتح الأتراك العثمانيون مصر، فيذهب بعض المؤرخين إلى أن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن الخلافة السلطان سليم، على الرغم من أن المعروف أن سليم اتخذ لقب الخلافة قبل أن يفتح مصر، وأن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن مثل هذا التنازل [١].

وعلى كل حال فإن الدولة الطولونية في عزها لم تكن تخشاها الدولة العباسية فحسب، بل كان البيزنطيون يعرفون لمؤسسها شجاعته،

---

(١) راجع T . W . Arnold : The Caliphate ص ١٢٩ وما بعدها.

وحسن سياسته فتوددوا إليه بإطلاق الأسرى، وإرسال الهدايا النفيسة [1].

ولم يكن سقوط الطولونيين، ورجوع مصر إلى حكم العباسيين إيذانًا بالقضاء على استقلالها ، فقد كانت الخلافة ضعيفة، ولم يكن بد من قيام دويلات صغيرة على أنقاضها فقام بنو حمدان، وبنو بويه، واستقل الإخشيديون مصر إلى حد كبير، وزاد سلطان المادرائيين، ونفوذ أسرهم في وادي النيل. مم كان كافور مقصد الشعراء يمدحونه طلبًا لعطائه كما فعل المتنبي.

ولكن الأسرة الطولونية، وكذلك الإخشيدية لم تعمرا طويلا، ولم تكونا تقومان في مصر على أي أساس ديني، أو وطني، كما كانت الدولة الفاطمية التي خلفتهما في حكم البلاد من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ –١١٧١م)، وفرضت على البلاد مذهب الشيعة، ولم يقف خلفاؤها عند حد في سبيل إعلان مجدهم، وإظهار أبهتهم. ولا غرو فقد جاءوها ملوكًا فاتحين لهم الأمر، والسلطان، وليسوا ولاة مبعوثين يبنون فيها مجدهم، ويقيمون في ربوعها سلطانهم، وازدهرت التجارة في عصر الفاطميين، واستتب إلا من وساد الرخاء، والتسامح الديني، وزاد نمو الإسكندرية، وصارت حلقة الاتصال بين الشرق، والغرب تتجمع فيها البضائع، وتشتد فيها حركة التجارة بين أوروبا، وبين بلاد العرب، والهند، والصين.

([1]) انظر كتابنا Les Tulunides ص ١٥٧ – ١٥٩.

وكانت سورية ميدان النزاع بين الفاطميين، وبني بويه، والسلاجقة، وكان فيها إمارات صغيرة يخطب فيها باسم الفواطم تارة، وباسم العباسيين تارة أخرى. بل أن بغداد نفسها ألقيت فيها الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر، وذلك بين سنتي ٤٤٩ و ٤٥٠ هـ (١٠٥٨م) حين ثار الوزير البساسيري على الخليفة القائم.

ومهما يكن من شيء فقد أفلح الفواطم في إقامة قيصرية واسعة الأرجاء ازدهرت فيها حضارة بزت ما عرف في بغداد، وقرطبة وحدهم فرا أن يكون من منشآتهم الجامع الأزهر، وأن تكون من منتجات فنونهم التحف التي تفخر دور الآثار، والمجموعات الأثرية بجزء يسير منها لا يكاد يمثل هذا العصر الذهبي خير التمثيل. وحدهم غرة أن يكون أثر ثقافتهم قد امتد حتى صقلية، وجنوبي إيطاليا، والأندلس، وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو رخاء مصر في بداية عصر المستنصر وصفا مسهبا أظهر فيه أن بلادنا كانت واسطة عقد العالم الإسلامي في ذلك العصر [1].

على أن نجم الدولة الفاطمية أذن بالأفول، وتعاقبت على البلاد سني القحط، أو «الشدة العظمى»، وأقبل الصليبيون، ووصلت جنود ملكهم عموري إلى أبواب القاهرة قبل أن يظهر في ميدان السياسة المصرية صلاح الدين.

---

(1) راجع كتابنا كنوز الفاطميين ص ١٠ – ١٣.

وقد أفلح صلاح الدين، وخلفاؤه فيما أخفقت فيه الدولة الفاطمية في نهاية أيامها، ونقصد بذلك صد الصليبيين، وقمع ما في البلاد من قلاقل، واضطرابات. وأصبحت مصر على يده حامية الشرق، والإسلام، ومدت سلطانها ثانية على سورية، وأزلت بالصليبيين خسائر فادحة. وكان صلاح الدين، والعادل، والكامل سلاطين مصريين قبل كل شيء. ولا شك في أن حصار الصليبيين دمياط ثم هزيمتهم عند المنصورة، واضطرارهم إلى الجلاء عن مصر بدون قيد، وشرط، كل ذلك أعلى شان السلطان الكامل فسادت السكينة، واستتب الأمن في البلاد.

ولكن أسرة الأيوبيين كانت مفككة العري، وكان النزاع بين خلفاء صلاح الدن تحمل بين طياته أسباب تفرق كلهم ثم سقوط دولتهم عندما قوي شأن عبيدهم، وجندهم من المماليك فقبضوا على أزمة السلطان بعد أن كانوا يحكمون من وراء الستار.

وكان تربع المماليك في دست الحكم سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) إيذانًا بانقضاء عهد الأسرات الوراثية الحاكمة، فإننا إذا استثنينا الأفراد الذين حكموا من أسرة قلاوون ، وجدنا أن دولة المماليك، ولا سيما المماليك الجراكسة ٧٩٢ – ٩٢٣هـ (أي ١٣٩٠ – ١٩١٧ م) ليست إلا حكومة حربية، أو ليجاركية، قوامها العبيد الذين يشترون ثم يعتقون، والذين يكونون طبقة مستقلة عن الشعب المصري تعيش في سعة، وهناءة، وتستغل الشعب استغلالا معيبا كما تستغل حكومها الوسطاء في التجارة بين الشرق، والغرب استغلالا يعود عليها بالأرباح

الطائلة، ويمكنها من إقامة العمائر الضخمة التي لازال جزء كبير مها قائما حتى الآن.

على أن للمماليك فجرًا لا يعدله فخر، فقد صدوا المغول عن مصر، وحموا وادي النيل مما حل بالعراق على يد تلك المجموع المتوحشة. والواقع أن انتصارات بيبرس على الصليبيين ثم هزيمة المغول في عين جالوت مهدت الطريق الناصر محمد بن قلاوون حين اعتلى العرش الثالث مرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠م) فظل يحكم البلاد اثنتين وثلاثين سنة ساد فيها الرخاء، وازدهرت الفنون. وفي سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أعيد تقسيم وادي النيل فعل خمسة عشرة مديرية، لا يختلف عن المديريات الحالية إلا في واحدة بالصعيد.

وقصارى القول أن مصر كان لها في عصر المماليك مقام ممتاز، يمتد نفوذها إلى الأقطار البعيدة، وخطب ودها بيزنطة، وغيرها من الدول الأوربية، ولا غرو فإن نظام دولة المماليك نفسه، وذهاب سنة الوراثة في الحكم كانا كفيلين بقاء الأصلح، أو بمعنى أدق كانا كفيلين بصعود الأكفاء إلى القمة، وظهور حكام كبيبرس، وقلاوون، والناصر، وبرقوق، وقايتباي ، يتوفر فيهم بعد النظر، كما يظهر من سياسة إيواء الخليفة العباسي، وحمايته، وتتوفر فيهم، وفي إتباعهم الشجاعة، والتربية الحربية النادرة، ويعرفون عند اللزوم كيف يشجعون كري الترع، وحفرها، وزراعة الأرض ضمانا لدخل الحكومة، وتحصيل الضرائب.

ولكن لا شك في أن تجارة الهند كانت المصدر الرئيسي لمالية السلاطين المماليك، فلما كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، وتحولت التجارة إليه، كان ذلك ضربة قاضية على حكم المماليك، وإيذانا بانتهاء دولتهم. وزاد الطين بلة أن الدولة العثمانية كانت تطمح إلى الاستيلاء على مصر، ولم يكن عسيرة أن ترقب المناسبات، وتتحل المعاذير حتى سمها ما أرادت سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م).

ومع أن تاريخ مصر الحديث يبدأ بالحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م فإن الحكم العثماني في مصر من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٦٩٨ فترة ركود في تاريخنا ليس فيها ما نفخر به، ولا ما يستحق أن نشيد بذكره، اللهم إلا ثورة علي بك الكبير في القرن الثامن عشر الميلادي.

***

وقد رأينا أن نستعين بعض الأساتذة، والزملاء في كتابة يضع مقالات في شؤون مصرية الإسلامية. وقد كانت ثمرة جهودنا هذا الكتاب الذي يسرنا أن نقدمه للقراء..

وقد تفضل الأستاذ جاستون فييت – مدير دار الآثار العربية – فسمح لنا بأن نضمن كتابنا مقالا له عن المواصلات مصر في العصور الوسطى، ونقله إلى العربية حضرة الزميل محمد وهي أفندي من خريجي معهد الآثار الإسلامية. وقد قام بهذه المهمة على خير وجه، بالرغم من صعوبة المقال، وكثرة المصطلحات فيه.

وكذلك لبى نداءنا الأستاذ محمود أحمد مدير إدارة الآثار العربية ، وكتب لنا مقالًا نفيسًا عن العمارة الإسلامية في مصر، وتفضل فأسهب فيه كما يرى القارئ حتى اضطررنا إلى حذف مقالنا عن الفنون الفرعية الإسلامية، مكتفين بشرح بعض بدائع الفن الإسلامي شرحًا موجزًا ، حتى لا يزيد الكتاب عن الحجم الذي قدرناه له.

وقام إسماعيل أبو العينين أفندي – من خريجي معهد الآثار الإسلامية – بتلخيص تاريخ مصر في العصور الوسطى . كما كتب يونس مهران أفندي من خريجي المعهد المذكور مقالا عن الجامع الأزهر . فإلى حضراتهم جميعًا نقدم خالص الشكر.

أما صديقي عبد الرحمن زكي فقد تحدث عن عواصم مصر الإسلامية. وأتيح لي أن أختم الكتاب بكلمة عن بعض المصادر المهملة في دراسة التاريخ الإسلامي أدليت فيها بعض الآراء في أساليب البحث في هذا العلم، أسوقها إلى من يظن أنه في حاجة إليها من القراء الكرام، وأما الذين لا يرون فيها نفعا لهم فاعتذر إليهم عن وجودها في هذا الكتاب، وأرجو ألا يعيروها من الانتباه إلّا ما تستحق.

***

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة بدون أن نشير إلى الحياة العقلية، والعالمية مصر في العصور الوسطى، فقد ضاق المجال في هذا الكتاب عن الحديث عنها، وفاتها الكلام عن مدارس الفقه الشافعية، والمالكية،

وعن كتب الخطط، وفضائل معمر، ومن نبع من المؤرخين كان عبد الحكم، وأن الداية، والكندي، وابن زولاق، والقضاعي، وابن دقماق، وإلا وحدي، والمقريزي، وابن إياس، وأبي الفدا، والسيوطي، وغيرهم ، ولكننا نستميح القراء عذرًا فإننا، كما ذكرنا في أول المقدمة، اعرف ما في كتابنا من قصور، فالموضوع الذي نحن بصدده لا يفيه حقه كتاب في هذا الحجم، ولا يكفي لوضعه الزمن الذي قضيناه في تصنيف كتابنا هذا.

مصر الإسلامية في العصور الوسطى

الأستاذ / إسماعيل محمد أبو العينين

١- نهاية حكم البيزنطيين في مصر

قبل أن أتكلم عن فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص، أذكر كلمة عنها في أواخر حكم الرومان لها وأبيِّن كيف أن الأحوال في ذلك الوقت ساعدت العرب على فتح البلاد بهذه السهولة وعلى هذا الانتصار السريع.

فمصر في القرن السادس الميلادي لم تعد إقليمًا بيزنطيًّا بالمعنى الصحيح؛ فقد كانت السلطة البيزنطية عليها ضعيفة، وأخذت البلاد من الوجهات السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية تتهيأ لهذا الحادث الكبير وهو الانتقال من أيدي البيزنطيين إلى أيدي العرب.

كانت العلاقة بين القسطنطينية وبين مصر مادية بحتة بمعنى أن مصر تؤدي الخراج المفروض عليها سنويًّا، قمحًا وغلالًا تُرسل من الإسكندرية إلى القسطنطينية أو أموالًا عينية، وبغير ذلك كان لا يعنى الرومان.

أما عن كيفية جباية الضرائب وهل كانت تجبى بالعدل فقد كان ذلك متروكًا للسلطة المحلية، ونجد في القرن السادس وأوائل القرن

السابع الميلادي أن مسألة الضرائب كانت مصدر شكوى للفلاحين فقد كانت هناك ثلاثة أنواع منها: ضريبة على الأرض، وضريبة على الرؤوس، وضريبة لعمال الإدارة.

وكانت تقع مظالم كثيرة في جباية تلك الأموال ولاسيما على الفلاح الصغير بحيث وجد في مصر نظام الحماية Colonnate فلكي يهرب الفلاح من كثرة الضرائب يضع نفسه تحت حماية Patronage أمير من الأمراء ولكنه كان في الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار فبمضي الزمن كانت تصبح أرضه ملكًا للأمير الذي وضع نفسه تحت حمايته، ويتحول الفلاح من مالك صغير إلى مجرد عامل أجير لهذا الأمير، وبذلك وجد ما يسمى في الدولة الرومانية بالأبعاديات Latifundia يملكها ملاك كبار أشبه بأمراء إقطاعيين بحيث أصبحت البلاد موزعة بين عدة أسر كبيرة قوية وغنية، وبذلك انتهت البلاد في القرن السابع الميلادي إلى نظام أشبه بالنظام الإقطاعي، وقد كانت البلاد مقسمة إداريًّا خمسة أقسام كبرى وهي:

١- الإسكندرية ويقيم فيها الحاكم الروماني Augustal Duke

٢- شرقي الدلتا ويحكمُه دوق Duke

٣- غربي الدلتا ويسمى ليبيا ويحكُمه دوق

٤- مصر الوسطى ويشمل الفيوم وما إليها ويسمى Arcadia ويحكمه دوق كذلك

٥- الجزء الباقي إلى حدود السودان ويسمى Thebaid ويحكمه دوق

ولا بأس بهذا التقسيم في الجملة، ولكن ضعف سلطة الحاكم الروماني المقيم في الإسكندرية على الأمراء جعله معيبًا كما أنه لم تكن هناك وحدة إدارية بالمعنى الصحيح فقد كان كل دوق مستقلًا تقريبًا وتحت إمرته قوة عسكرية، وكانت الإسكندرية هي كل شيء وما عداها مهمل.

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان الأمراء شبه مستقلين، ووجدت أسر قوية وتوزعت الأراضي توزيعًا إقطاعيًّا، وكان الجيش مقسمًا تبعًا للتقسيم الإداري الخماسي الذي لم يكن مرتبطًا بعضهُ ببعض، بل كان موزعًا واستعداده الحربي ضعيفًا ولم تكن تسوده روح قومية بالمعنى الصحيح.

وإذا أضفنا الناحية الدينية إلى النواحي الثلاث السابقة تبين لنا فساد الحال، فالأقباط كانوا على خلاف مستحكم مع الدولة البيزنطية، فقد كان المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الملكاتي Mel kites بينما كان الأقباط على المذهب اليعقوبي Monophysites وأراد أباطرة الرومان أن يلزموا المصريين باعتناق مذهبهم، ووقعت في السنوات العشر السابقة للفتح العربي اضطهادات شديدة للأقباط من الحكومة البيزنطية، وكان يتولى هذا الاضطهاد الحاكم البيزنطي Cyrus أو المقوقس كما يسميه العرب، وكان قد أرسله الإمبراطور هرقل سنة ٦٣١

م إلى الإسكندرية بطريقًا لها ورئيسًا للسلطة الزمنية في البلاد، وقد عمل هذا الرجل مدة عشرة سنوات بكل الوسائل على إغراء الكنيسة القبطية باتباع المذهب الروماني وزيادة الأموال التي تجبى من مصر، ولكن المصريين ثبتوا على أفكارهم ولم يزدهم الاضطهاد إلاّ رسوخًا في إيمانهم إلاّ أن صفوفهم تضاءلت وأحاط بهم الشقاء وعدمت الأرض من جراء ذلك أذرعًا تعمل على فلاحتها وغراستها والمصانع أيدي تشتغل فيها وبارت التجارة، وأقبل القحط على البلاد فانتشر الطاعون وقامت الثورات إلاّ أنه قد صحبت هذه الأحوال من جهة أخرى يقظة الروح القومية في المصريين – إذ كثيرًا ما تكون المسائل الدينية معبرة عن الميول السياسية أو ستارًا لها – وتظهر هذه اليقظة في انتعاش اللغة القبطية وآدابها واستعمالها في الحسابات والأعمال ومزاحمتها للغة اليونانية وفي الاعتراف ببطارقة من الأقباط وفي استقلال الفن القبطي الذي كان له تأثير كبير في الفن الإسلامي فيما بعد.

جميع هذه الأحوال يمكن أن يرجع إليها سهولة فتح العرب لمصر؛ فقد كان العرب لا يقاتلون أمة بل كانوا يقاتلون جيش احتلال لا تؤيده روح قومية كما أنه لم تكن هناك مقاومة عامة شعبية بدليل أن جيش العرب البالغ اثنى عشر جيش الروم البالغ خمسين ألفًا.

٢- مصر أيام الخلفاء

(١٨هـ – ٢٥٤هـ = ٦٣٩م – ٨٦٨م)

الفتح

اختلف مؤرخو العرب في ذكر أسباب الفتح العربي لمصر؛ فمنهم من قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم وعد به العرب؛ فقام خلفاؤه بتنفيذ نبوءته، وقال آخرون إن الأقباط استدعوا العرب ليخلصوهم من ذل البيزنطيين، وقال غيرهم إن عمرا بن العاص لما كان شابًا أغاث راهبًا في برية ونجاه من الهلاك فأحب الراهب أن يكافئه فجاء به إلى الإسكندرية حيث أغدق عليه هو ورؤسائه عطايا سنية، وأن عمرًا حضر مع ذلك الراهب في هذه المدينة حفلة ألعاب عمومية كانوا يقذفون فيها بكرة ويعتقدون أن من وقعت تلك الكرة في حجرة تكتب له الأقدار أن يصبح ذات يوم حاكم المدينة فاتفق أنها وقعت في حجر عمرو وهو بلباسه البدوي فأجفلته فأضحك الأمر الحاضرين وحملهم على الإقلاع عن اعتقادهم لاستبعادهم أن يصبح ذلك البدوي أميرًا عليهم، وإن عمرًا استفسر من الراهب عما يضحك القوم فأفاده فهز عمرو كتفيه استهزاءً منه هو أيضًا بذلك الفأل ولكنه عاد فتذكره بعد ما انتشرت الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية واستتبت فيها استتبابًا حمل قبائلها على الخروج بقلوب متحدة إلى فتوحات خارجية كان عمرو أحد كبار قوادها، فتولدت في قلبه الأماني البعيدة ولاسيما بعد فتح فلسطين وبيت

المقدس وعسكرت الجيوش العربية على حدود الصحراء التي تفصل بلاد الشام عن القطر المصري فأقبل يجيب أمر فتح هذا القطر الأخير إلى الخليفة عمر بن الخطاب بجميع وسائل الإقناع، فتارة يذكره بنبؤة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة بالفتح، وطورًا يذكر له أن مصر على كونها أعجز أقاليم العالم عن القتال أكثر الأرض أموالًا وأن فتحها والحالة هذه على ما فيه من السهولة يزيد قوة المسلمين ويأتيهم بعون عظيم حتى حمله على الرضاء به.

ثم اختلف أيضًا المؤرخون في كيفية الإقدام على الفتح فقال بعضهم: كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين، وعمر بن الخطاب إذ ذاك بالجابية؛ فكاتبه عمرو سرًا مستأذنًا في أن يسير إلى مصر وأمر أصحابه فتنحوا كقوم يتنحون من منزل إلى منزل قريب ثم سار بهم ليلًا فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذي فعل، وعدُّوه غدرًا فعرفوا ذلك إلى عمر ابن الخطاب فكتب عمر إلى عمرو "إلى العاصي ابن العاصي: أما بعد فإنك قد غررت بمن معك فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع، وإن أدركك وقد دخلت فامض واعلم أني ممدك"

قال غيرهم: إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام "أن أندب الناس إلى المسير معك إلى مصر فمن خف معك فسر بِه" وبعث الكتاب مع شريك بن عبده فندبهم عمرو فأسرعوا إلى الخروج معهُ، ثم إن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب فقال

عمر لهُ "اكتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام" فقال عثمان "يا أمير المؤمنين إن عمرًا جريء وفيِه إقدام وحب للإمارة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا" فندم عمر على كتابه إلى عمرو وأشفق مما قال عثمان فطتب إلى ابن العاص مرة أخرى وقال "إن أدركك كتابي قبل أن تدخل إلى مصر فارجع إلى موضعك وإن كنت دخلت فامض لوجهك"

وقال آخرون إن عمر لما أقنعه عمرو بصواب الفتح قال له: "سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًأ من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره" فسار عمرو من جوف الليل دون أن يشعر بِه أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه فأدرك الكتاب عمرًا إذ هو برفح فتخوف إذا هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف فلم يأخذه من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل أنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ثم قال لمن معه "ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر" قالوا "بلى" فأخبرهم بما دار بينه وبين أمير المؤمنين من الاتفاق قبل قيامه ثم قال لهم "أنتم شهود على أن كتابه لم يلحقني إلّا وقد دخلنا أرض مصر فسيروا إذن بنا وامضوا على بركة الله".

ومن المؤرخين من قال أيضًا: أن عمرًا كان بفلسطين فتقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن فكتب فيه إلى عمر فكتب عمر وهو دون العريش فحبس عمرو الكتاب ولم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه حين ذاك وإذا فيه "من عمر بن الخطاب إلى العاصي بن العاصي أما بعد فإنك سرت إلى مصر ومن معك وبها جموع الروم وإنما معك نفر يسير ولعمري لو نكل بك ما سرت بهم فإن لم تكن قد بلغت مصر فارجع" فقال عمرو "الحمد لله أية أرض هذه" قالوا "من مصر" فتقدم ولم يبال وهو كما هو.

ومهما يكن من اختلاف آراء المؤرخين في أسباب الفتح وكيفيته فإن مما لا شك فيه أن الضرورة الحربية كانت تحتم على العرب بعد استيلائهم على العراق والشام أن يغزوا مصر التي كان في استطاعة الروم أن يتخذوها قاعدة لتهديد أملاك المسلمين وحتى أن المدينة نفسها مقر الخلافة حينذاك كانت معرضة للخطر لقربها من ميناء القلزم (السويس) على البحر الأحمر هذا فضلًا على أن مصر بغلاتها وخيراتها أنسب وأكثر فائدة للعرب من الشام والعراق.

وعلى ذلك فكل ما يقوله مؤرخو العرب عن فتح مصر على غير رغبة من الخليفة بعيد الاحتمال، خرجت الحملة سرًّا من قيسارية في فلسطين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في أواخر سنة ١٨ هجرية (٦٣٩م) بعد أن أتم عمرو فتحها، وسارت بقيادته محاذية للبحر وهو الطريق الذي يسير فيه كل غاز لمصر من جهة الشام؛ فوصلت العريش في ذي الحجة سنة ١٨هـ، وقت عيد الأضحى وتابعت السير حتى بلغت

الفرما (شرقي بور سعيد) وبعد أن دافعت عنها حاميتها مدة شهر استولى عمرو عليها بمساعدة قبط مصر الذين كانوا على استعداد للترحيب بمن يخلصهم من ظلم الروم ففتحوا للعرب أذرعهم وقلوبهم وقاموا يمهدون لهم سبل الفتح إن لم يكن بمساعدة إيجابية فبالتزام الحياد والقعود عن الدفاع، ثم واصل الزحف حتى بلبيس وهناك بعد حصار دام مدة شهر التقى بالجيش الروماني فدحره في واقعة كبيرة فتحت له الطريق إلى رأس الدلتا وإلى أم دنين وحصن بابليون.

ويقول المؤرخون أن عمرًا بعد أن استولى على أم دنين وموقعها جامع أولاد عنان وما حوله وكانت تقع على النيل عبر إلى الشاطئ الغربي وغزا الفيوم، وهذا أمر مشكوك فيه لأنه لا يمكن أن يغرّر عمرو بجنده ويجازف بهم في الوقت الذي يشعر فيه أن جيشه قليل العدد فيرسل في طلب المدد من الخليفة، وعلى كل حال فإنهم يقولون إن عمرًا لما عاد من غزوة الفيوم وجد المدد قد وصله فبلغ عدد جيشه ثمانية آلاف جندي أو اثنى عشر ألفًا كما يقول بعض مؤرخي العرب وحارب الروم في عين شمس وهزم جيشهم الذي رجعت فلوله إلى حصن بابليون فشرع عمرو في حصاره، وقد طالت مدة الحصار بسبب فيضان النيل وجرت في خلالها مفاوضات بينه وبين المقوقس في جزيرة الروضة انتهت بتسليم الحصن، وقد كان هرقل قد توفى في خلال ذلك وقيل إن وفاته كان سببًا في انكسار نفوس الروم داخل الحصن وضعف روحهم المعنوية مما جعلهم يسلمون في ٩ إبريل سنة ٦٤١ بعد حصار دام ستة أشهر.

شرع عمرو بعد ذلك في الزحف على الإسكندرية فحدثت بينه وبين الروم عند دمنهور الحالية واقعة كبيرة تقدم بعدها إلى الإسكندرية وكانت ميناء محصنة محمية من جهة البحر بالأسطول البيزنطي فشرع في حصارها إلا أنه حدث في أثناء ذلك أن تغيرت الأحوال في القسطنطينية فقد مات هرقل وخلفه أحد أولاده وكان قاصرًا فأقيمت أمه الإمبراطورة وصيّة عليه في إدارة شئون الإمبراطورية فاستدعت المقوقس من منفاه وكان قد نفي لاتهامه بالتقصير في الدفاع عن البلاد وردته إلى الإسكندرية مزودًا بالسلطة التامة فقام بمفاوضات مع عمرو بن العاص انتهت بمعاهدة بابليون التي أورد يوحنا النقيوسي تفاصيلها وموادها التي أهمها:

(١) يدفع سكان الإسكندرية جزية شهرية

(٢) يقدم الرومان للعرب ١٥٠ جنديًا و ٥٠ رجلًا مدنيًا ورهائن لضمان تنفيذ شروط هذه المعاهدة

(٣) يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين أو لشؤونهم الدينية

(٤) يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية

(٥) يقيم العرب في مكان بعيد عن المدينة مدة أحد عشر شهرًا، ويعد الروم بالجلاء عن المدينة في خلال هذه المدة والإبحار إلى بلادهم

(٦) يتعهد الروم بعدم عمل أية محاولة لاسترجاع المدينة

وقد أمضيت هذه المعاهدة في أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١م، وأبحرت الجنود الرومانية إلى بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م.

ويتضح من شروط هذه المعاهدة أنها كانت قاصرة على الإسكندرية بدليل أن عمرا بن العاص شرع بعد ذلك في الاستيلاء على المدن الشمالية ثم أرسل من استولى على المدن الجنوبية ومنها الفيوم بحيث لم تأت سنة ٢١هـ، إلا وكانت البلاد بأجمعها قد خضعت لنفوذ العرب.

ومما سبق يظهر بوضوح أن الحرب لم تكن بين العرب والمصريين بل كانت بين جند الروم والعرب كما كان القبط يساعدون العرب ويتجنبون مناوأتهم ويتمنون لهم النصرة لأنه لم يكن هناك ما يحبب إليهم حكم الروم.

وقبل أن أترك موضوع الفتح أرى لزامًا عليَّ أن أتعرض لما نسب إلى العرب من تدميرهم مكتبة الإسكندرية واستعمال كتبها لإيقاد النيران في حماماتها العامة البالغ عددها أربعة آلاف حماما ويُرد على هذا الافتراء الكاذب الذي لا أصل له أنه لم يرد له ذكر في مؤلفات مؤرخي اليونان أو كتابهم كما أنه لم يتعرض له يوحنا النقيوسي أو ابن عبد الحكم أو الطبري أو غيرهم من المؤرخين المعاصرين، بل كان أول ظهور هذا الافتراء في القرن الثالث عشر الميلادي أي بعد الفتح بستمائة سنة، وهو مناقض لما ذكره يوحنا النقيوسي عن سياسة الحماية Proteeting Poliey التي اتبعها عمرو بن العاص، وقد يحتمل أن يكون أساس هذه

الخرافة في تدمير كتب عبدة النار في أثناء الفتح العربي لفارس فضلًا عن أنه قد ثبت أن المكتبة لم تكن موجودة حين فتحها العرب حتى يمكن اتهامهم بحرقها.

الإدارة والتنظيم

لم يغيِّر العرب كثيرًا في الأنظمة الأساسية للبلاد التي فتحوها، ولا غرو فقد كانوا حديثي عهد بنظم الحكم الحضري وأساليبه، ومهما يكن من شيء فقد أجرى المسلمون في مصر من التنظيم ما أجروه في غيرها من البلاد التي فتحوها فكانت الإدارة الإسلامية تدور على الإمارة والقضاء والخراج. فكان يلي الحكم الأمير أو الوالي وكان يؤم الناس في الصلاة ويحكم باسم الخليفة وينفذ أوامره، ويلاحظ أن الولاة في الدولة الأموية كانوا أكثر استقرارًا بعكس الحال في الدولة العباسية فكانت مدة ولايتهم قصيرة لكثرة تبديلهم.

أما القضاء وهو منصب له الصفة الدينية فيشمل إقامة الحدود والنظر في الخصومات وفي المواريث وكان يوليه الخليفة من قبله رأسًا ولا سلطان للوالي عليه وكانت أحكامه مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله.

وكانت تسند وظيفة الخراج إلى رجل يقال له صاحب الخراج يوليه الخليفة رأسًا، ولم تكن هذه المناصب الثلاثة الكبرى هي كل شيء في الإدارة بل كانت بجانبها أشياء أخرى أبقيت نظمها على ما كانت عليه

قبل الفتح منها جباية الأموال وتوزيعها فقد بقي النظام الروماني مع تعديل مقادير ما يجبى لأن الضرائب في عهد الرومان كانت متنوعة وثقيلة العبء على الناس وتفرض حتى على الأشياء التافهة، أما العرب فقد بسطوها ففرضوا الجزية على الرءوس والخراج على الأرض ونوعوا جزية الرءوس حسب المقدرة وأعفوا منها من يجب إعفاؤهم كالنساء والعجزة وغيرهم.

وقيل أن عمرا بن العاص جبى ١٢ مليون دينارا في آخر سنة وليها حكم مصر، منها ثلاثة ملايين دينارا ضريبة الخراج، وثمانية ملايين دينارا جزية رءوس من القادرين على أدائها ومليون دينارا ضرائب شتى، وكان عدد سكان مصر حوالي الستة ملايين من الأنفس.

وقد شعر الأقباط بشيء من الراحة في ظل هذا النظام الذي روعي فيه حال الناس وحال الأرض وأوقف كثيرًا من التكاليف التي كانت مرهقة لهم في عهد الرومان.

وقد قام عمرو بن العاص بتشييد كثير من المنشآت، منها إنشاء مدينة الفسطاط التي اتخذها عاصمة للبلاد مستعيضًا بها عن الإسكندرية فلم تمض سنوات قليلة إلاّ وأصبحت المدينة الجديدة زاهرة بكل ما يجعل شأن العواصم كبيرًا، ومنها تخطيط جامعه المشهور وهو الذي لا يزال باقيًا حتى اليوم، وتخطيط الجيزة وحفر القناة أو الخليج وأصبحت مصر بعد حفر الخليج الذي عرف بخليج أمير المؤمنين تمد بلاد العرب

بالغلال بعد أن كانت تمد بيزنطة وروما.. كما أنه قام بإصلاح طرق الري في البلاد وكانت قد فسدت في أواخر الحكم البيزنطي، ويقال أن عمرا بن العاص كان يسخر أكثر من مائة ألف عامل في كري الخلجان والترع وتطهيرها بحيث أعاد طرق الري القديمة إلى سابق عهدها وذلك لعمران البلاد وزيادة إنتاجها.

وكانت مصروفات الحكومة بمصر في عهد العرب منحصرة في ستة أبواب:

(١) ما كان الوالي يأخذه لنفسه بصفة مرتّب

(٢) ما كان يخصصه للأعمال العمومية

(٣) ما كان يصرفه في عطيات أهل الديوان

(٤) ما كان يصرفه في أرزاق الكتبة

(٥) ما كان يسيره من القمح إلى أهل الحجاز، لأن أهل الحجاز بعد الإسلام أصبحوا كالشعب الروماني بعد الجمهورية ترد إليهم المؤونة من مختلف الأقاليم المنفتحة.

(٦) وأخيرًا ما كان يبعث بِه إلى خزينة الخليفة وكان يقابل ما عرف "بمال الجزية" في عهد السلاطين من بني عثمان.

وعلى الرغم من أن الولاة الذين خلفوا عمرا بن العاص على زمام الأمور في مصر، ابتداءً من عبد الله بن أبي السرح أخي عثمان بن عفان من الرضاع، وفي مدة الدولتين الأموية والعباسية كان رائد أكثرهم زيادة ثروتهم الشخصية وعلى الرغم من أن مصر في أواخر حكم عثمان بن عفان وفي مدة النزاع على الخلافة الذي قام بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان باتت مسرحًا للحروب والمنافسات الأهلية والدموية إلّا أن الرخاء والرفاهية بوجه عام استمرا سائدين في القطر المصري ولكن بتناقص مطرد حتى نهاية حكم المأمون.

ويلاحظ أن مصر ابتدأت تتأثر بالثورة التي قامت في العالم الإسلامي في مدة المعتصم بانتقال أمور الدولة من أيدي العرب والفرس إلى أيدي الأتراك لأن المعتصم استكثر منهم في الجيش والحرس وأنشأ لهم مدينة سامرّا بحيث أننا نجد أن الأمر كله أصبح في أيديهم بعد حكم المتوكل وإذا رجعنا إلى الولاة الذين ولوا مصر في زمن المعتصم نجد أن العنصر التركي يأخذ في لظهور شيئًا فشيئًا إلى أن تأتي سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م) فنجد أن عصر الولاة العرب على مصر قد انتهى فقد كان عنبسة بن إسحق الضبي آخر من ولي مصر من العرب، ولا يكاد يوجد بين الولاة خير منه فقد كان متواضعًا حريصًا على خدمة الرعية وإقامة الشعائر الدينية وفي مدته استولى الرومان على دمياط وخربوها سنة ٨٥٣ م، وتقدموا إلى بلبيس وهمّ عنبسة للقائهم فلم يسعهم إلّا الفرار.

وفي السنة التالية أبى النوبيون دفع الجزية وغزا ملكهم "علي بابا" بلاد الصعيد بجيش كبير ونهب إسنا وأدفو فاستعان عنبسة بالخليفة فهزم "علي بابا" بعد حرب طاحنة ورضي بدفع الجزية، وجاء بعد عنبسة ولاة من الترك جلهم جفاة لا عهد لهم بالحكم تفاقمت في أيامهم الثورات وعمت الفوضى، ولم ينتشل البلاد من هذه الوهدة إلّا أحمد بن طولون.

وقد كان الولاة العرب حكّامًا فحسب، أما الولاة الترك فكانت لهم الصفة الإقطاعية كما نلاحظ أن معظم الأمراء من الأتراك كانوا يقيمون في العاصمة العباسية وينيبون عنهم آخرين لحكم الأقاليم، إذ أنهم كانوا يفضلون الإقامة في العاصمة بغداد حيث يقيم الخليفة حتى لا يتمكن خصومهم من الدس لهم وعزلهم، وكان الخليفة من ناحيته لا يتمنى رحيلهم حتى لا يشتد ساعدهم ويعملوا على الاستقلال بالأقاليم التي يحكمونها.

تكوين الشعب المصري

نلاحظ في العصر الأول للفتح الإسلامي لمصر ظاهرة اندماج الفاتحين العرب في المصريين من أهل البلاد وحدوث تأثر متبادل بين الجنسين نتج عنه الشعب المصري الذي عرفته العصور الوسطى، كان استيلاء العرب على مصر فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمنًا طويلًا، وقد كانت أضعف هذه الهجرات هجرة العرب أو الجند الذين أتوا مع عمرو بن العاص عند فتح البلاد، ولكن هجرة القبائل التي نزحت إلى

مصر بعد ذلك كانت أشد وأقوى، وقد روى المقريزي في خططه أنه في خلافة هشام بن عبد الملك هاجرت بطون كثيرة إلى مصر منها عرب القيسية ونزلت هذه البطون فيما نسميه الحوف الشرقي، وإن ما نشاهده اليوم من كثرة العرب النازلين في شرقي الدلتا والمعروفين بعرب الشرقية لدليل قوي وبرهان ظاهر على حدوث هذه الهجرة كما نعلم كذلك من كتاب "البيان والإعراب فيما بأرض مصر من الأعراب" للمقريزي أن عرب الجزء الجنوبي من الشام هاجروا إلى مصر ونزلوا في مصر السفلى وفي الصعيد، وقد حصلت أيضًا في زمن الخليفة الفاطمي المستنصر هجرة عربية كبيرة إلى مصر نقلت الدولة بعض بطونها إلى الوجه القبلي لما قاموا به من التوارث في ذلك الوقت، وأشهرها قبيلة بني سليم، وقبيلة بني هلال التي أرسلت بعد ذلك إلى شمال إفريقية عملًا بمشورة الوزير "اليازوري" لاستمرارها في إثارة الشغب والقيام بالثورات ورغبة في الانتقام من بني زيري الذين شقوا عصا الطاعة على الفاطميين في إفريقية (تونس)، وهذه الهجرات كان لها أثر كبير في إنماء الروح العربية في مصر.

كما نشاهد كذلك أن الأقباط – وقد كانوا أكثرية في مبدأ الفتح – ابتدأوا يستعربون ويدخلون الدين الإسلامي لأن الدولة عربية ويحتلها العرب أو من يتكلمون اللغة العربية ولأنهم رغبوا في الفرار من الجزية، وفي المنزلة الاجتماعية فهم أمام هذه المغريات وظروف المجتمع تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الإسلام، وكان من نتيجة ذلك تناقص الخراج المفروض على مصر فكتب "حيان بن شريح" عامل الخراج إلى خليفة

المسلمين "عمر بن عبد العزيز" يشكو إليه من تناقص الخراج لإقبال القبط على اعتناق الإسلام حتى اضطر إلى أن يستدين مبلغًا من المال ليدفع به مرتبات الجند، وطلب من الخليفة ألّا يُعفي من دفع الجزية كل من يسلم من القبط، ولكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إليه كتابًا شديدًا لم يقره فيه على رأيه وعزله عن العمل، وقال "إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا"، وقد كان الأقباط لا يزالون قوة حتى أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري مع كثرة من دخل منهم في الإسلام وكانوا يقومون بالثورات من وقت لآخر، وكانت أشدها التي حدثت في زمن الخليفة المأمون فاضطره الأمر إلى الحضور بنفسه فأخمد الثورة ولم تقم للقبط قائمة بعد ذلك، وأخذت أقوالهم تقبل أفواجًا على اعتناق الدين الإسلامي وعلى تعلم اللغة العربية فانحلت رابطتهم وقد بلغ من شدة مقالاتهم أن ادعى بعضهم النسب العربي، ولكن الرأي العام لم يقر هؤلاء على هذا الإدعاء فعرضت قضيتهم على القاضي "العمري" الذي حكم بصحة إدعائهم من أنهم عرب أصلًا فهاج الرأي العام واستؤنف الحكم أمام قاض آخر يدعى "البكري" فأفتى بأنهم ليسوا عربًا.

كما أن استقرار العرب في الأرض يزرعونها صبغهم بالصبغة المحلية البحتة بعد أن كانوا جنودًا طول العصر الأموي يأخذون الأعطيات، أما في عهد العباسيين فقد ضعف شأن العرب واعتزت الدولة بغيرهم من الفرس والأتراك، وإلى الخليفة المعتصم ينسب القضاء على نفوذ العرب فأسقطهم من الديوان ومنع أعطيتهم تبعًا لذلك وأحل محلهم العناصر

الأخرى من الفرس والأتراك فدفعهم ذلك إلى الاستقرار في الأرض واحتراف الزراعة.

كما أنه بسبب انتشار اللغة العربية في البلاد وإقبال الناس على تعلمها لم يأت القرن الثالث الهجري إلّا وظهر في مصر شعراء وأدباء فازدهرت الحركة العلمية وابتداءً من ذلك الحين ضعف اللغتين القبطية واليونانية ونسيانهما، فكانت النتيجة أنه لم يمض قرنان على دخول العرب مصر إلّا وبدّل المصريون دينهم ولغتهم وجنسيتهم واندمجوا اندماجًا كليًّا في جسم الأمة الفاتحة فأصبحوا جزءًا منها وحل منهم الإسلام وحلت منهم اللغة والجنسية العربيتان محل الروح من الجسد حتى أنه عندما قامت الدولة الطولونية في منتصف القرن الثالث الهجري كانت في مصر أمة إسلامية ساعد وجودها وروحها القومية على تحقيق أماني ابن طولون في الاستقلال بالبلاد.

٣- الدولة الطولونية في مصر

٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ (٨٦٨م – ٩٠٥م)

نالت مصر على يد الطولونيين أول استقلال لها منذ انقضت أيام الفراعنة، وقد سبقت بمجيء الطولونيين فترة تأخر في شؤون مصر الاقتصادية فقد نقصت غلة الأرض واستنفدت الحكومة مواردها بغير حكمة أو روية فكان يرسل جانب من الدخل إلى بغداد ويدخل الجانب الباقي في جيوب الولاة من دون أن ينتفع منه الإقليم بشيءٍ لأن معظم

الولاة كانوا يعملون على الإثراء في أقل ما يمكن من الزمان لعلمهم أنهم مهددون بالعزل في كل حين.

وقد تغير هذا الحال بتأسيس أسرة مستقلة فبقيت موارد البلاد في داخلها وبمجرد أن استقل أحمد بن طولون بشؤون البلاد لم يلبث أن احتفظ بثروتها وعمل على إنمائها وثباتها.

ويمثل أحمد بن طولون مرحلة النقلة في مصر من التبعية للدولة العباسية إلى الاستقلال الذاتي، ولد أحمد بن طولون بسر من رأى سنة ٢٢٠هـ (سنة ٨٣٥م) وأبوه طولون من أصل تركي أهداه عامل بخارى إلى الخليفة المأمون سنة ٨١٥م، فنال الحظوة لديه وقد نشأ أحمد نشأة طيبة وبرع في علوم اللغة والقرآن والشريعة وأولع بالتعليم العسكري الذي يربى عليه فتيان الأتراك في سر من رأى (سامرا).

ولحسن حظه أن الأمير "بقبق" الذي تزوج من أرملة طولون منح ولاية مصر واختار أحمد نائبًا عنه فيها فحضر إليها سنة ٨٦٨م، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وكان أبو العباس أحمد بن طولون قديرًا خبيرًا باختيار الرجال فلم يمض وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه وكان من أكبر المساعدين له كاتم سره أحمد الواسطي.

كان موقف ابن طولون محاطًا بالمصاعب الداخلية والخارجية، فأما الداخلية فدسائس "ابن المدبر" صاحب الخراج الذي أثرى بالاختلاس وابتزاز الأموال بمختلف الضرائب والمكوس، ثم قيام العلويين في غرب

الإسكندرية وفي إسنا ومقاومتهم له مدة، ولم يقلل من حظ ابن طولون قتل الأمير "بقبق" إذ أن الخليفة منح مصر للأمير "برقوق" وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده في مصر وضم إليه الإسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلًا تحت نفوذه أولًا، وما زال نفوذ ابن طولون يزداد حتى أقطعت مصر "للموفق" أخي الخليفة سنة ٨٧٢م فلم يعبأ ابن طولون بهذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا والتحف وصار في الواقع ملكًا مستقلًا في مصر، ولاسيما بعد أن تخلص من أكبر منافس له في البلاد وهو ابن المدبر الذي كان قد بقي صاحب الخراج مدة طويلة ثبت في أثنائها مركزه، ولكنه قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته في الشام خوفًا من بطش ابن طولون.

ولما استقر الأمر لأحمد ابن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة "القطائع" على جبل "يشكر" وجعل لكل طائفة من أتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها وشاد لنفسه قصرًا فخمًا تحت قبة الهواء به حديقة غناء وميدان واسع، وأما مسجده المعروف فلم يشرع في بنائه إلا سنة ٨٧٦م، واستغرق تشييده عامين كاملين، وأهم ما يلاحظ فيه إقامة الأعمدة من الآجر لأول مرة بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة وأنه أول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذي لم يستعمل في إنجلترا إلّا بعد ذلك بقرنين من الزمن، وقد ألحق بالمسجد "مارستان" أو مستشفى لمعالجة المرضى كما أنه بنى العين أو ما يعرف بمجرى ابن طولون بجهة الإمام الشافعي.

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئًا إلى "الموافق" فأعدّ هذا جيشًا لإخراج ابن طولون من مصر، ولكنه لم يقدر على إنفاذه لقلة المال، فتشجع ابن طولون وقد عزم على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت "ماجور" والي الشام وساق جيشه إليها سنة ٨٧٨م بحجة أن الخليفة كان قد أذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية "ماجور" ففتحت الشام أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات إلى برقة ومن جبال طوروس إلى شلال أسوان.

وبعد أن ترك ابن طولون حاميات في الرقة وحران ودمشق عاد إلى مصر لأن ابنه العباس الذي كان يحكم البلاد في غياب أبيه أراد أن يستقل بملكها فلما حضر أبوه التجأ العباس إلى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجينًا.

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر، وكذلك شجر الخلاف بينه وبين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣م، وغنمت أمولًا طائلة، وقد أعياه الجهد فمرض وحمل على سرير إلى مصر حيث لم يجده حذق الأطباء فمات في مايو سنة ٨٨٤م، قبل أن يبلغ الخمسين.

وكان أحمد بن طولون كريمًا شجاعًا تقيًّا خبيرًا بأخلاق الرجال يشرف على أعمال الدولة بنفسه ويستطلع أحوال رعيته ويقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويشجع الزراع ويؤمنهم على أملاكهم وهو أول حاكم بعد الفتح الإسلامي انهض قوة مصر وجمل عاصمتها واتخذ له جيشًا قائمًا.

وقد خلف أحمد بن طولون ابنه الثاني "أبو الحيش خمارويه" وكان في العشرين من عمره ميالًا للترف يجهل الحكومة والحروب فلا عجب أن تآمر أعداؤه مع نائبه في دمشق على إرجاع الشام إلى حكم الخليفة ودخل "أبو العباس ابن الموفق" دمشق وتقدم جنوبًا حيث قابله خمارويه ومعه سبعون ألف مقاتل عند (الطواحين) قرب الرملة فذعر خمارويه وفرّ بأكثر جيشه إلى مصر وثبت قائده "سعد الأعسر" مع بقية الجند فهزم الأعداء وأبى الخضوع لسيده فنهض خمارويه وهزمه في دمشق سنة ٨٨٦م، وطارد أعداءه إلى (سامّرا) فولاه الخليفة مصر والشام ومنطقة الثغور على الحدود الرومانية لمدة ثلاثين سنة، وقد تشجع خمارويه فخاض عدة حروب أيدت مقدرته الحربية.

ثم زوج ابنته "قطر الندى" للخليفة المعتضد وتكلف في ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر إلى بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد أكثر من الجواهر والتحف إلى غير ذلك مما دعا إلى صرف ألف ألف دينار.

وما زال خمارويه يسرف في البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب وأهم ما قام به توسيع قصر أبيه بـ "القطائع" وتحويل الميدان إلى حديقة غناء يتضوع منها عبير أزهار شتى صنعت بأشكال بديعة تغرد فوقها الأطيار التي أكثر من جمعها فيها، كذلك زين "بيته الذهبي" بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه، ولما كثر أرقه ملئت له بركة من الزئبق يتارجح عليه سريره وقد شد بخيوط من حرير إلى عمد من الفضة.

وقد حقد عليه جواريه فأغرين به من قتله وهو في طريقه إلى دمشق سنة ٨٩٦م وخلفه ابنه الأكبر "أبو العساكر" جيش وكان في الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمقامه الخطير معنى منغمسًا في لهوه فخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الإدارة ونفدت أموال الخزانة فعزله جنده بعد أشهر من اعتلائه العرش.

وجاء بعده أناس ضعاف لم يحسنوا القيام بمهام الحكم، وكانت البلاد على أكثر ما يكون من الاضطراب والفوضى وسوء الحال وأصبحت مهددة بغارة القرامطة فأرسل الخليفة المكتفي جيشًا هزمهم في بلاد الشام، ثم تابع الزحف بقيادة "محمد بن سليمان" القائد العباسي لاسترداد مصر لحكم الخلافة فدخل الفسطاط وفتك بالطولونيين وأحرقت القطائع وأبيدت جميع الآثار الطولونية ولم يستبق منها إلا الجامع، وبذلك عادت مصر إلى حكم العباسيين مدة ثلاثين سنة من سنة ٢٩٢هـ - سنة ٣٢٣هـ. (٩٠٥م - ٩٣٥م) حتى قامت الدولة الإخشيدية.

والأسرة الطولونية استطاعت لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية أن تحكم مصر حكمًا وراثيًا مستقلًا فقد جاءت متوجة لحركة النضوج القومي التي ظهرت في مصر شيئًا فشيئًا وقد رفعت هذه الدولة مستوى المدينة المصرية بهذه المنشآت التي لم يقم مثلها من قبل حاكم إسلامي كما تعلق المصريون بهذه الدولة تعلقًا كبيرًا.

ولقد كان ولاة مصر من الأتراك في فترة الثلاثين سنة التي أعيدت فيها مصر إلى حكم الخلافة العباسية، ساءت في عهدهم أحوال البلاد بعد صلاحها، وفي هذه الفترة تعرضت مصر لخطرين شديدين أحدهما في الغرب حيث قامت الدولة الفاطمية، والآخر في الشرق وهم القرامطة أولاد عم الفواطم في المذهب والدعوة. فهذان الخطران كانا يهددانها وكادا يقضيان عليها لولا ظهور رجل قوي استطاع أن يقيها شرهما مدة ثلاثين سنة أخرى وهو الأخشيد.

وليس أدل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم في مصر ورغبة المصريين في التخلص منهم من تمكن "محمد الخالنجي" – وهو شاب من عامة الناس – من جمع عدد صغير من المصريين في فلسطين سنة ٩٠٥م، وإعادة الخطبة للطولونيين هناك ثم دخول مصر وحكمه إياها ثمانية أشهر باسم الطولونيين.

٤- الدولة الإخشيدية في مصر

٣٢٣ هـ – ٣٥٨ هـ (٩٣٥ – ٩٦٩م)

الإخشيد لقب ملوك "فرغانة" السابقين، "ومحمد بن طفج" مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر من سلالة هؤلاء الملوك، كان جده ضابطًا في جيش المعتصم وخدم أبوه مدة في جيش خمارويه، وكان محمد الإخشيد قوي الساعدين لا يقدر رجل آخر أن ينزع عن قوسه وكان قائدًا حذرًا يفضل السلم على المغامرة في الحروب وبدخوله مصر عاد إليها الأمن والسكينة ولم يجرؤ أحد على الثورة في وجه جيش الإخشيد وفيه أربعون ألف مقاتل.

وقد اختلفت الحالة العامة في ذلك الوقت عما كانت عليه في عهد الطولونيين فقد تدهورت الخلافة بحيث لم يبق للخليفة سلطان، وكان الأمر في يد الأتراك وتمزقت الدولة فكان "بنو بويه" يحكمون في فارس، والسامانيون فيما وراء النهر، والحمدانيون في أعلى الجزيرة والشام أي الموصل وحلب والإخشيديون في مصر، وكان المغرب في يد الفواطم، وشرقي بلاد العرب في يد القرامطة، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر.

وبينما الإخشيد هادئ في ملكه إذ انقض "ابن رائق" على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على أن تكون سوريا شمالي (الرملة) لابن رائق وجنوبها للإخشيد يدفع عنه جزية سنوية ولما مات ابن

رائق أخذ الإخشيد سوريا كلها بغير قتال، وأضاف إليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة فأخذ الإخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الأعيان.

ثم أغار سيف الدولة الحمداني على دمشق، وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور فخرج إليه الإخشيد ومزق جيشه كل ممزق في واقعة "قنسرين" ودخل حلب ودمشق ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حبًا في مسالمته، ومات الإخشيد بدمشق سنة ٩٤٦م ودفن ببيت المقدس.

ويذكر للإخشيد بإعادة الأمن إلى نصابه وبجعل حكمه وراثيًّا وإن كان لمدة محدودة مما أدى إلى استقلال مصر استقلالًا فعليًّا فأصبحت تجبى إليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها.

وتولى بعد الإخشيد ابناه "أبو القاسم" أنجور (٩٤٦ – ٩٦١م)، وأبو الحسن علي (٩٦١ – ٩٦٥م) ولكنهما لم تتح لهما فرصة لإظهار مقدرتهما إذ كانا تحت وصاية "كافور" حاكم مصر الحقيقي.

كان أبو المسك كافور عبدًا حبشيًّا اشتراه الإخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه أستاذًا لأولاده، وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين في مد أملاك مصر إلى حدود الأناضول، وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء واشتهر ببذل الهبات.

ولما مات أبو الحسن على الإخشيد سنة ٩٦٥م، اعتلى العرش كافور ومنحه الخليفة لقب أستاذ، فبقي يدير شئون مصر في بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨م، بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة، وقد كان يسود البلاد في عهد كافور النظام الإقطاعي بمعنى أن كل مديرية عليها رجل قوي يضمنها للوالي ويستدل على شيوع هذا النظام من شعر المتنبي وإقطاع إقليم الفيوم إلى رجل يدعى "أبو شجاع فانك".

وعند موت كافور اجتمع رجال البلاط وانتخبوا – من تلقاء أنفسهم ومن دون رجوع لأمر الخليفة العباسي – من بني الإخشيد ملكًا لمصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولي عهد له إلّا أنهما لم يضطلعا بأعباء الحكم؛ فتطلع "المعز" رابع الخلفاء الفاطميين إلى ضم مصر إلى أملاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمي الفسطاط سنة ٩٦٩م، وانفصلت مصر عن بغداد نهائيًّا.

ولم تخلف الدولة الإخشيدية آثارًا بعكس الدولة الطولونية، وإنما يقال أن الإخشيد كان ينزل ما يسمى البستان الكافوري وموقعه عند النحاسين ومساحته ستة وثلاثون فدانًا كما كان له قصر في جزيرة الروضة.

نلاحظ أن في أواخر أيام هذه الدولة ساءت أحوال البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا فلم تكن هناك يد قوية تمسك بزمام الأمور كما وقعت في البلاد أزمة اقتصادية بسبب انخفاض ماء النيل الذي بدأ سنة ٣٥١ هـ،

وما تلاه من قحط ووباء فني به خلق كبير، وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى عام ٣٦٠ هـ، ويحدثنا المقريزي بما كان متوقعًا وهو أن القحط أعقبه الوباء ففشا الموت بسببه حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم فاضطروا إلى إلقاء جثث موتاهم في النيل، ولما اشتد الغلاء وندر وجود القمح أغار الأشرار على المزارع والحقول وعم السلب والنهب.

ومما زاد هذا البلاء الذي انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ، ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥ هـ، ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى أخميم وعاد إلى بلاده محملًا بالأسلاب والغنائم.. يضاف إلى ما تقدم ما كان من عجز كافور أيضًا عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم فثاروا عليه.

لهذا لا نعجب إذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين، وكانت هذه الحال فرصة سانحة انتهزها الخليفة الفاطمي لغزو مصر، ولم تكن بغداد في ذلك الوقت قادرة على أن ترسل جيشًا لصد الفاطميين عن البلاد.

٥- الدولة الفاطمية في مصر

٣٥٨ هـ - ٥٦٧ هـ. (٩٦٩ - ١١٧١م)

لما استقر حكم الفاطميين في شمال إفريقية فكروا في امتلاك مصر إذ رأوا فيها مكانًا صالحًا لنشر دعوتهم فقد كان استيلاؤهم عليها معناه بسط نفوذهم على الشام والحجاز وكانتا تحت حكم مصر، يضاف إلى هذا أن الحالة الداخلية في مصر وفي الدولة العباسية التي كانت هدفًا للغارات من الشرق ومن البيزنطيين في الغرب جعلت فتح مصر أمرًا ميسورًا.

شرع المعز في حفر الآبار على طول الطريق من "القيروان" عاصمة ملكه في شمال إفريقية إلى الإسكندرية وفي تخزين المؤن والذخائر وسار جوهر القائد من القيروان في فبراير سنة ٩٦٩ م، بمائة ألف جندي فلما وصل إلى الإسكندرية طلب السكان منه الأمان فأمنهم وتقدم إلى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة، ولم يبت ليلته حتى وضع أساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمنزله يطل على حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم "ما بين القصرين"، وكان الخليفة يمر من أحد القصرين إلى الآخر بطريق تحت الأرض خشية أن تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به، وقد بالغ المؤرخون في وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة وبنى "الجامع

الأزهر" كذلك (٩٧٠ – ٩٧٢ م) ليصلي فيه الخليفة بالناس يوم الجمعة ولنشر التعاليم الفاطمية.

ثم التفت إلى إعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما أرسله المعز من الحبوب وبإلزام جميع التجار أن يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة أمام المحتسب (مندوب الحكومة في السوق) ولضمان العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصري وآخر مغربي، وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع له الجزية المعتادة وخطب له الحمدانيون في شمال الشام وأخضع جنوب الشام وطرد منه جيش الإخشيد.

وعند ذلك ألح جوهر على سيده أن يبادر بالحضور إلى عاصمته الجديدة فحضر إليها بأهله وولده بل ورفات أسلافه ودخلها في مايو سنة ٩٧٣ م، فاستقبله أهل البلاد بالترحاب وأعجبهم كرمه وبلاغته.

وبحضور المعز صارت لمصر السيادة – لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط – بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها إذ كانت مركز دولة الفاطميين وقبلها النابض منها تصدر الأوامر إلى أنحاء الدولة وتدبر شئونها ومنها يذهب الحكام إلى بقية البلاد.

وقد انتفع المعز بثغور مصر لتعزيز أسطوله فأقام حوضًا في المقس – ثغر القاهرة قبل بولاق – وبنى ستمائة سفينة وهو أكبر أسطول رأته مصر منذ الفتح الإسلامي واستبقى الجيش في كفاية حربية عظيمة وعني بالنيل والري والزراعة والقضاء.

وفي آخر حكمه غزا "القرامطة" مصر ووصلوا إلى عين شمس سنة ٩٧٤م. وانتشروا في جميع أنحاء القطر يفسدون ويخربون ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا أن عمد الخليفة إلى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف إلى شيخ بني طي أكبر حليف للقرامطة فتخاذل في الموقعة التالية، واستطاع المعز أن يطارد القرامطة إلى سوريا ومات سنة ٩٧٥م، في السادسة والأربعين من عمره وقد ترك لمصر دولة مترامية الأطراف لم يقو خلفاؤها على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم أفريقية سنة ١٠٤٦م، وضعف نفوذهم في سوريا التي كانت مهدًا للقلاقل ولم يخضع لهم عن طيب خاطر إلّا الحجاز رغم ما كان لهم من قوة برية وبحرية إذ اتخذوا جنودًا من البربر وآخرين من الترك وغيرهم من السودان.

خلف العزيز (٩٧٥ – ٩٩٦ م) أباه وكان حسن الطلعة قائدًا جريئًا ميالًا للتسامح حتى مع أعدائه، وقد استوزر في أول حكمه "يعقوب بن كلس" وهو يهودي اعتنق الإسلام وبقي متربعًا في كرسي الوزارة نحو خمسة عشر عامًا، وكذلك استوزر "عيسى بن نسطريوس" وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة في ربوع البلاد ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والأبهة ولا يقلان عن سيدهما في حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والأحجار الكريمة وغيرها من لوازم الترف والثروة التي جعلت مصر في عهد الفاطميين مضرب الأمثال.

وأهم من هذا، آثار العمارة والهندسة وتنظيم الحكومة في عهده فقد بني الجامع المعروف بجامع الحاكم (لأن الحاكم هو الذي أتمه) وحفر ترعًا عديدة وشيّد القناطر والحياض.

والعزيز أول من نظم الحفلات الرسمية كما أنه أول من أدخل مماليك الترك في جيش مصر فكانوا وبالًا عليها، ويُعتبر العزيز أحزم خلفاء الفاطميين وأرشدهم، ولسوء حظ مصر لم يعقب العزيز إلّا ابنًا واحدًا من أم مسيحية هو الحاكم بأمر الله (٩٩٦ –١٠١٢م)

تولى الحاكم في سن الحادية عشرة، وكان أبوه قد عين "بيرجوان" أستاذًا له، أي وصيًّا عليه، وأسندت قيادة الجند إلى "ابن عمار المغربي" ولقب أمين الدولة وأصبح في الواقع نائبًا عن الخليفة ففضل أبناء جلدته وأعانهم على الجند الأتراك الذين جلبهم العزيز فكثر الشجار بين الطرفين في الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الأمر بفوز الترك وقتل ابن عمار وأصبح الأمر بيد "بيرجوان" ولكنه ترك حبل الأمور على غاربها فبدأ "الحاكم" يباشر الإدارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء فقتل "بيرجوان" وتجلى شذوذه لرعيته في عدة أوامر خارقة للعادة منها قفل الحوانيت نهارًا ولزوم فتحها وفتح المنازل وإضاءتها ليلًا وتحريم صنع أحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهنَّ وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والملوخية والعسل، وبعد أن قضى عشر سنين من حكمه دون أن يتدخل في الأمور الدينية لغير المسلمين رجع عن سياسة التسامح وأخذ يضيق على المسيحيين واليهود في حين أنه كان يختار

منهم أعاظم رجال دولته، ثم تمادى في سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رؤوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له.

وفي عهده توالت ثلاث سنوات مجدبة ساءت فيها أحوال البلاد حتى طمع في غزوها "أبو ركوة" وهو من الأسرة المالكة في الأندلس فر منها وأقام نفسه خليفة في المغرب ثم غزا برقة ومصر ونزل بالجيزة وعسكر قرب الأهرام ولم تتغلب عليه جيوش الحاكم إلّا بعد مطاردته إلى النوبة وبعد جهد كبير، ومن أهم آثار الحاكم إتمام الجامع المسمى باسمه وهو الذي بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد "دار العلم" أو "دار الحكمة" لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة وكانت دار العلم قصرًا فخمًا بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الأقطار النائية.

وخيِّل إلى الحاكم أنه إله جدير بالعبادة وساعده دعاة أتوا من الغرب ومن الفرس وأشهرهم "درازي" الذي أسس مذهب "الدروز" في لبنان على اعتقاد ألوهية الحاكم، وقد أثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد في محنة كبيرة ووقف دولاب العمل في كل مكان وخرج عليه الجند الترك والمغاربة وانضمت إليهم أخت الحاكم "سيدة الملك" فهزموا الجنود السودانية التي كانت تحميه وقتل الحاكم وهو يجول في الصحراء ولم يعثر له على أثر، ولا يزال الدروز يعتقدون أنه سيعود بعد اختفائه فيصلح العالم.

وخلفه ابنه الظاهر (١٠٢١ – ١٠٣٦م) وكان في السادسة عشرة من عمره فقامت بأعباء الحكم عمته "سيدة الملك" فلما أدركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبحت الحرب في الطرقات سجالًا بين الجنود والأهالي، كل ذلك والخليفة منغمس في ملذاته عاكف على لهوه وقسوته.

ولما مات بالطاعون خلفه ابنه المستنصر (١٠٣٦ – ١٠٩٤م) وعمره سبع سنين، وكانت مصر قد فقدت كل ممتلكاتها تقريبًا وخرج بنو زيري في المغرب الأدنى على الفاطميين واستقلوا بحكم أفريقية فأوعز اليازوري وزير المستنصر إلى عرب بني هلال وبني سليم بالرحيل إليها انتقامًا من بني زيري ففعلوا ذلك وعاثوا فسادًا في تلك البلاد.

أما بلاد العرب فلم يكن جل نفوذ الفاطميين فيها بجهودهم أنفسهم بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سنة ١٠٦٣م، وأعلنوا حق الفاطميين المقدس في الخلافة.

وقد تولى الوزارة في أول حكم المستنصر كثيرون من دون ان يتمكن أحدهم من الاحتفاظ بمقامه طويلًا حتى تربع في سدتها رجل عصامي يسمى "اليازوري" (١٠٥٠ – ١٠٥٨م) أراد إصلاح حال الفلاح وزيادة الإيراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس وادخر القمح اتقاء القحط، ولكنه مع ذلك لم

يفلح لسوء الحالة العامة، وكان اليازوري محبًّا للفنون مشجعًا للعلماء ومات مسمومًا سنة ١٠٥٨م.

وبموت اليازوري تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا في الحكم إلّا قليلًا لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش، حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل في موظفي الحكومة المسؤولين، وزاد الطين بلَّة أن اشتد النزاع بين الجند السودانية والأتراك وتغلب الترك وطردوا أعداءهم إلى الوجه القبلي فأصبح الصعيد كله في قبضة السودانيين، واستولى الترك وحلفاؤهم البربر بزعامة "ناصر الدولة بن حمدان" على الوجه البحري وخربوه وتوالى القحط سبع سنين لغاية سنة ١٠٧٢م، حتى بيع الرغيف بخمسة عشر دينارًا وأكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها، ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضًا وصار لحم الآدمي يباع في الأسواق.

ولما فنيت ثروة المستنصر – وكانت ثروة لم يسمع بمثلها – نهب الجند الأتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى، وكان فيها ما يربو على مائة ألف كتاب من أنفس الكتب في جميع العلوم التي عرفها العرب.

وقد ضاق الخليفة ذرعًا بمساوئ الجند ولاسيما الترك منهم فاستقدم "بدر الجمالي" حاكم عكا – وكان أول أمره مملوكًا أرمنيًّا ارتقى في سلك الوظائف حتى عين حاكمًا لجهات عدة – فحضر بجنده

وأمرهم باغتيال زعماء الترك في ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٣م، ونزل بدر الجمالي بشارع بيرجوان وأطلق الخليفة يده في جميع الأمور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نفائسه السالفة ثم فتح البلاد من جديد وأنقذ الدلتا من يد البربر، والصعيد من يد السودانية فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح أرضهم فكانت العشرون سنة الأخيرة من حكم المستنصر عهد أمن ورخاء وقد بنى "بدر الجمالي" سورًا حول القاهرة وأزال الأبواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة في مواضع مختلفة من السور –كما ترى الآن – بناها على نمط الحصون البيزنطية لما علم من مناعتها.

ومات بدر الجمالي في ربيع ١٠٩٤ في الثمانين من عمره وخلفه في الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه، ومات المستنصر في السنة نفسها ثم لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة وأصبح الحكم في مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم أن يصرف الأمور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة، ولذا أهملت طريقة الوراثة في الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سنًّا أو أضعفهم إرادة ليقيمه على عرش الخلفاء كلما خلا.

خلف بدر الجمالي ابنه الأفضل شاهنشاه فسار سيرة أبيه في العدل والحزم فاستمرت الطمأنينة والرخاء، وكان شغله الشاغل اتقاء الخطر الذي يهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الأولى في سوريا وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء،

وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من أيام ابن طولون لم تشذَّ عن حكمها إلّا في فترات يسيرة فلما استولى الصليبون على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ من الجنود المصريين وتوغلوا في جنوب فلسطين حاول "الأفضل" أن يصد غاراتهم فهاجمهم مرارًا دون جدوى حتى تشجع "بلدوين" ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة ١١١٧م، وأحرق "الفرما" وتقدم إلى "تنبس" ولم يرجعه عن فتح مصر كلها إلّا مرضه، ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل "الأفضل" بإيعاز من الخليفة سنة ١١٢١ وبقيت مصر بعده في فوضى لا تكاد سلطة الحكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة "طلائع بن رزيق" بلقب الملك الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب المجرمين، وكانت مصر شديدة الحاجة إلى رجل قوى مثله بعد أن فقدت عسقلان في السنة السالفة، وكانت عسقلان آخر حصن في فلسطين في يد المصريين بتطلع ملوك بيت المقدس إلى الاستيلاء عليه وتدافع عنه بكل جهدها.

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان، لم يبق أمامه ما يمنعه من غزو مصر اللهم إلّا خوفه من أن ينقضّ السلطان "نور الدين محمود" صاحب حلب على مملكته اثناء تغيبه بمصر لاسيما حين دخلت دمشق في حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد أن كان أميرها حليف الصليبيين.

ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس إلى منع الآخر من امتلاك مصر، وقد بذل "طلائع" كل ما في وسعه لمحالفة نور الدين بقصد طرد الصليبيين من سوريا، ولكن نور الدين لم يبت في الأمر فصرف طلائع همته إلى توطيد دعائم الأمن في مصر نفسها حيث عرف بقوة المعارضة والكرم واستماع شكايات الرعية على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة إلى ذوى الفطنة والعلم.

ولما قتل طلائع بدسائس القصر خلفه ابنه "العادل رزيق" ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليه "شاور" وقتله إلّا أن شاور لم يتم سنة في الوزارة حتى نازعه فيها "ضرغام" حاجب الخليفة ففر شاور إلى نور الدين واستنجد به وتعهد أن يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة ويدفع ثلث إيراد مصر جزية سنوية لنور الدين.

أما ضرغام فلم يجد بدًّا من الاستعانة بـ "أموري" ملك بيت المقدس فلما حضر هذا إلى مصر اضطر نور الدين إلى إرسال حملة بقيادة "أسد الدين شيركوه" تغلبت على ضرغام والصليبيين ونصبت شاور وزيرًا بمصر، ثم قتل شاور وتولى الوزارة شيركوه ولكنه لم يمكث أكثر من شهرين ثم توفي؛ فخلفه في الوزارة ابن أخيه "صلاح الدين" فكف يد الخليفة العاضد عن شئون الملك بالتدريج حتى لم يعد له من الأمر شيء ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ودعا للمستضيء العباسي خليفة بغداد ومات العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وبموته انقرضت الدولة الفاطمية

واستولى صلاح الدين على مصر مع تابعيته للخليفة العباسي ببغداد أولًا ولنور الدين ثانيًا تابعية اسمية.

وقد كانت دولة الفاطميين من أعظم دول الإسلام ملكًا وأرقاها حضارة وأدبًا وأنبلها ترفًا وتمتعًا، وكان تأنفهم بجمع التحف والذخائر من آية الذهب والفضة والأحجار الكريمة لم يسمع بمثله في الدول الإسلامية، وقد تقدمت في زمانهم الصناعة العربية من الصياغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة تقدمًا بقي أثره إلى الآن وما زالت دور الآثار في مصر وبأنحاء العالم مملوءة بأحسن النماذج الدالة على تفوقهم في ذلك.

ولدولتهم أعظم شان في تاريخ مصر إذ كان لها تأثير في صبغ البلاد بصيغة لا تزال باقية إلى اليوم فهم الذين أحدثوا في مصر كثيرًا من المواسم والأعياد والحفلات الوطنية مثل موسم أول العام ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد الحسين رضي الله عنه وفتح الخليج وقافلة الحج وغيرها، وقد نجح الفاطميون في تأسيس إمبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل إلّا نادرًا تلك الحضارة التي اشتهرت بنظمها الإدارية المحكمة وفنونها وجيوشها وأساطيلها وعدالة محاكمها وتسامحها الديني، وأهم من هذا كله ما عرفت به من تشجيع العلم والثقافة إما من الناحية الدينية فقد أثار ادعاؤهم أنهم يتصفون بالصفات الإلهية سخط رعاياهم السنيين، أما بذخهم وإسرافهم في الاحتفال بالأعياد الدينية وغيرها وولائمهم الفاخرة

وأعطياتهم وهباتهم، وما إلى ذلك فلم ينجح إلّا في التأثير في الجماهير الذين بهرتهم هذه المظاهر الخلابة والقليل من الناس الذين أفادوا لأنفسهم فوائد مادية من ورائهم.

وطالما كانت تثور ثائرة السنيين إذا ما أراد الفاطميون أن يلزموهم اعتناق عقائدهم البغيضة لديهم لأن هذه العقائد قلما صادفت هوى في القلوب، ومع هذا نرى بعض السنيين قد اعتنقوا تلك العقائد إما لمصالح خاصة وإما فرارًا من حنق الفاطميين ونقمهم.

وبعد فقد كان من بين العوامل التي أسرعت في سقوط الفاطميين انقسام الإسماعيليين أنفسهم إلى فرق وأحزاب، كما كان لظهور هذه الفرق الإسماعيلية كالدروز والحشاشين أثر سيئ في الحضارة الإسلامية وتقدمها. وأن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي بعدما قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثماني سنوات تقريبًا هو انتصار السنة على الشيعة.

٦-الدولة الأيوبية في مصر

٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ (١١٧١م. - ١٢٥٠م)

لما تم الصلح لصلاح الدين أخذ يحصِّن مصر ليأمن شر الأعداء فعزم على بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة،

وتشييد قلعة منيعة على جبل المقطم تشرف على الجميع، وأرسل عدة جيوش إلى البلاد المجاورة لمصر قيل كان الغرض منها حفظ مكان تتراجع إليه جيوشه إذا طاردها الصليبيون أو نور الدين نفسه – وقد كان صلاح الدين لم يبق لنور الدين عليه سوى سيادة اسمية فحق عليه هذا – ووجه صلاح الدين أحد هذه الجيوش إلى شمال إفريقيا والثاني إلى السودان والثالث إلى بلاد العرب حيث أخضع أخوه جميع بلاد اليمن وأسس دولة حكمه هنالك نحو خمس وخمسين سنة.

وفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) مات "نور الدين" فخلا الجو لصلاح الدين وعمد إلى بسط نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها تعمل على استئصال شأفة الصليبيين في الشرق فانتهز فرصة وفاة نور الدين وتركه الملك لصبي صغير فذهب إلى دمشق وملكها وانتصر على من ناوأه العداء من أمراء المسلمين حتى اعترف له جميع الشام من مصر إلى قرب الفرات.

ثم قضى صلاح الدين ست سنوات في ضبط نظام أملاكه ومواصلة تحصين القاهرة فبدأ في سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) بناء القلعة وبنى فيها قصرًا لسكناه وحفر بئرًا عميقة تعرف الآن ببئر يوسف "الحلزون" ولم يتم بناء القلعة إلّا بعد موته وقد عدّل بناؤها وزيد عليه بعد أيامه مرارًا حتى صارت إلى شكلها الحالي في عهد محمد علي باشا رأس الأسرة المحمدية العلوية.

وبذل صلاح الدين عنايته أيضًا بإصلاح أعمال الري ونموه وأكثر من إنشاء المدارس لنشر مذهب الإمام الشافعي ومحو مذهب الشيعة بمصر، وما زال يعمل على توحيد كلمة الإسلام وبسط نفوذه على أهله حتى ضم إلى دولته شمالي العراق وبلاد الكردستان وصار أمراء المسلمين من كل جانب رهن إشارته.

وعند ذلك تفرغ للاستعداد لمحاربة الصليبيين؛ فنشبت الحرب بينه وبينهم سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧) ودامت خمس سنوات وانتصر عليهم وعند نهاية حروبه هذه كانت له الكلمة العليا في الشام، فبعد أن كان المسلمون لا يملكون شبرًا من الأرض غربي نهر الأردن أصبحوا يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق يمتد بين صور ويافا.

وقد أنهكت الحروب صحة صلاح الدين؛ فأصيب بحمى وتوفي بدمشق عام ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) ويعتبر صلاح الدين من أعظم رجال التاريخ؛ فقد كان قائدًا عظيمًا وسائسًا محنكًا جمع بين الشجاعة والمروءة وعلو الهمة والشدة والتواضع والتقوى والزهد والورع والعدل والرحمة، وكان الفرنج يعجبون بأخلاقه ويعدونه مثال الشهامة الشرقية.

ولما توفي صلاح الدين قسمت أملاكه الشاسعة الأطراف بين أولاده وأخيه العادل وبين إخوته، ووقعت بينهم منازعات وحروب إلى أن استولى على مصر أخو صلاح الدين وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر

في هذه الدولة ولم يفتر العادل بعد ذلك عن جمع كلمة المسلمين ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين.

وفي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٨ م) نهض الصليبيون نهضة جديدة وبدا لهم أن يحولوا رحى الحرب إلى مصر قلب الدولة الإسلامية فقصدوا دمياط فملكوها بعد قتال شديد وكان العادل في الشام فمات أثناء رجوعه كمدًا عليها.

ثم تولى ابنه "الكامل" من سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) فعمل على طرد الصليبيين من دمياط وما أن وصلت إليهم إمدادات جديدة عرض عليهم الصلح على أن يرد إليهم بيت المقدس نظير جلائهم عن دمياط، فرفضوا هذا البدل وشرعوا في الزحف على القاهرة فأطلق عليهم المصريون مياه النيل بالقرب من المنصورة ثم انقضوا عليهم من كل جانب، ولكن الكامل أمر بتخلية سبيلهم بعد أن عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن الديار المصرية.

وكان الكامل يخشى زيادة قوة أقاربه في الممالك الإسلامية الأخرى فاتحد مع أحد ملوك الصليبيين على أن ينزل له عن بيت المقدس نظير مساعدته للكامل على رد كل مهاجم ولو كان مسيحيًا وبمهادنته للمسيحيين وحد قواه لانتزاع أملاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها ومات سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م)

فخلفه ابنه "العادل الثاني" فشغل باللهو عن التدبير فأنكر الأمراء ذلك عليه وخلعوه بعد سنتين تولى أخوه "الملك الصالح" نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) فكان من خيرة السلاطين، ومن مآثره أنه انتصر على الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م) ومن أعماله أنه بنى قلعة الروضة بجزيرة الروضة إلّا أنه حشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم فكان ذلك من أكبر غلطاته فإنهم سلبوا الملك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسي.

وفي آخر عهده نزل الصليبيون في أكثر من مائة ألف إلى دمياط فملكوها بقيادة "لويس التاسع" ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩م) فمات الملك الصالح قبل أن يصدهم فأخفت سريته "شجرة الدر" موته ودبرت أمر الجيش إلى أن حضر ابنه (توران شاه) فتولى قيادة الجيش وكان الصليبيون قد زحفوا على المنصورة وكادوا يملكونها فهزمهم واستولى على أكثر مراكبهم وغرق كثير منهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن على ما قيل في (دار ابن لقمان) – الباقية بالمنصورة إلى الآن – ثم فدى لويس التاسع نفسه وبقية أهله وعساكره وخرجوا من دمياط، وتعتبر واقعة المنصورة هذه من المواقع الفاصلة بين المسلمين والصليبيين.

ولما ولى الملك (توران شاه) وفرغ من الصليبيين طالب السيدة (شجرة الدر) بمال والده وهددها وهدد المماليك فقتلوه بعد سبعين يومًا من ملكه وولوا مكانه الملكة "شجرة الدر" ولم يول المسلمين امرأة قبلها

فأقامت في الملك ثلاثة أشهر وعزلت نفسها واتفق المماليك أن يولوا (الأشرف موسى) في بيت الملك فملكوه وعمره ثماني سنين وجعلوا (عز الدين أيبك التركماني) أحد مماليك الصالح قيمًّا عليه؛ فتزوج من شجرة الدر ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بالملك وانقرضت الدولة الأيوبية من مصر.

وقد كانت الدولة الأيوبية من مبدئها إلى منتهاها دولة فتح وجهاد، ولولا وقوفها في وجه أوروبا لانقرض الإسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمال أفريقية.

٧-دولة المماليك البحرية في مصر

٦٤٨هـ - ٧٨٤ هـ (١٢٥٠م. - ١٣٨٢م.)

انقرضت الدولة الأيوبية بمقتل "توران شاه" ودخلت مصر بعدها في حوزة مماليك هذه الدولة، وكان خلفاء الدولة العباسية قبلهم قد اعتادوا استخدام الكثير من المماليك في الجند والحرس ليحتموا بهم من العرب ولاسيما أنصار العلويين والأمويين منهم فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئًا فشيئًا حتى صاروا أشبه بسجان للخلفاء واقتدى بالعباسيين "نور الدين" و"صلاح الدين" فاستخدما المماليك وعنيا بتدربهم وإعدادهم وبقي ذلك في عهد الأيوبيين حتى ولي "الملك الصالح" نجم الدين أيوب فاشترى عددًا كبيرًا من أشداء المماليك وبالغ في تدريبهم وأنزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة فسموا لذلك

"المماليك البحرية" ولما أغضبهم "توران شاه" قتلوه واستولوا على الملك فبقي في أيديهم نحو مائة وثلاثين سنة.

وأول ملوكها (عز الدين أيبك التركماني) وخلفه ابنه الصبي قليلًا ثم خلفه (قطز) الذي كان على يديه هزيمة التتار بفلسطين وكانوا قد أبادوا الدولة العباسية ببغداد قبل زحفهم على الشام وأشهر ملوك المماليك البحرية (الظاهر بيبرس البندقداري) الذي تولى الملك بعد قتله قطز سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وكانت بغداد قد سقطت في مدة سلفه في يد التتار، فدعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار في بغداد وبايعه بالخلافة ثم استمد سلطان الملك منه نائبًا عنه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١م) وذلك لكي يعزز زعامته للإسلام ويجعل مصر مركزًا للخلافة، ومن أعظم أعماله أنه قاوم التتار الزاحفين على مصر مدة قطز وحارب الصليبيين محاربة شديدة نحو عشر سنوات وهدم "يافا" و"أنطاكية" إذ كانتا من أهم معاقلهم. وما زال لبيبرس الذكر الحسن عند المصريين، ومن المساجد التي شيدها مسجده الكبير بالحسينية والمعروف بجامع الظاهر.

وبعد وفاة بيبرس حدثت منازعات بشأن تولي الملك، وانتهى الأمر بتولي السلطان "قلاوون" سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) فبقي الملك في بيته أكثر من مائة سنة، ومن آثاره أنه هزم التتار في موقعة فاصلة في حمص وكانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى، ومن مبراته الحسان إنشاؤه البيمارستان الكبير بين القصريين، والمعروف الآن بمستشفى قلاوون

بالنحاسين، وبجانبه المدرسة العظمية والقبة التي دفن بها ووقف عليهما الأوقاف الكثيرة.

وخلفه ابنه "الأشرف خليل" وفي مدته سقطت عكا في يد المسلمين وتبعتها بقية مدن الساحل وبذلك انتهت الحروب الصليبية سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٣م)

ومن أشهر ملوكهم الملك "الناصر بن قلاوون" وقد هزم التتار في موقعة فاصلة قرب دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣م) فكانت هذه رابع مرة صد فيها التتار عن الديار المصرية. وفي مدته بلغ فن المباني والنقوش العربية أقصاه، وقد ظهر أن أكثر الآثار العربية الجميلة التي في دور تحف العالم هي من صنع هذا العصر، وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل وقد نسبت خطأ إلى صلاح الدين.

ومن أعظم المماليك البحرية أثرًا ابنه السلطان (حسن) وهو باني المدرسة العظمية المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار القلعة. وبعد عهده وقع النزاع على الملك وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء دولة جديدة من المماليك على مصر تعرف بدولة (المماليك البرجية) أو (المماليك الشراكسة) سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢م).

٨- دولة المماليك الشراكسة أو البرجية في مصر

٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧م.)

منشأ هؤلاء المماليك أن المنصور (قلاوون) أكثر من شرائهم وجعلهم في أبراج القلعة فسموا (البرجية) وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة وأولئك من الترك. وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وأمرائها ولع بالعلوم، واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والأربطة والجوامع والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية وأكثر ما نراه اليوم في القاهرة من المباني العظيمة هو من آثارهم إلّا أنهم كانوا يميلون إلى الظلم فكثرت في عهدهم الثورات والفتن في البلاد.

وأشهر ملوكهم وأولهم هو السلطان (برقوق) تولى الملك سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢م) بعد أن انفق مع الأمراء على خلع آخر المماليك البحرية، وفي مدته أراد سلائل التتار بعد إسلامهم امتلاك مصر بقيادة قائدهم العظيم (تيمورلنك) فأرسلوا كتابًا إلى مصر يطلبون من حكومتها التسليم إليهم طوعًا فامتنع (برقوق) واتخذ مع أمراء شمالي الشام وسلطان آل عثمان وأعد العدة لصدهم، ولكنه مات قبل الحرب سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩م) ومن أعظم آثاره مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بـ (جامع برقوق).

ومنهم أيضًا ابنه (فرج) الذي قام بعد أبيه بمحاربة التتار فمنعهم عن فتح مصر، وإن لم يصدهم عن شمال الشام وله مدفن بالصحراء يعرف بجامع (برقوق)، ومنهم السلطان (المؤيد) المتولي سنة ٨١٠ هـ (١٤٠٧م) وهو باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زويلة.

ومن أعظمهم (برسباي) المتولي سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢م) ومن أهم أعماله اهتمامه بالتجارة وخاصة تجارة الهند المارة بمصر إلى أوروبا نظم ضرائبها حتى صارت موردًا كبيرًا للحكومة

ومنهم (قايتباي) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكمًا ملك من سنة ٨٧٣ هـ إلى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٦٨ – ١٤٩٦م) وكان في أول أمره مملوكًا اشتراه (برسباي) بخمسين دينارًا فما زال يرقى بجده ومواهبه حتى بلغ هذا المركز، ومن مبانيه الكثيرة تربته العجيبة التي بناها في الصحراء قرب القاهرة، وتعرف بجامع قايتباي.

ومن أشهر السلاطين الذين حكموا بعده السلطان الأشرف (قنصوة الغوري) المتوفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) ومن آثاره جامعة الجميل بالغورية. وفي مدته تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق مصر لأن البرتغاليين اهتدوا إلى طريق جديد حول رأس الرجاء الصالح فنقص بذلك إيراد الحكومة المصرية نقصًا كبيرًا.

ولما تولى عرش الدولة العثمانية السلطان "سليم الأول" اهتم بتوسيع نطاق دولته وعمل على محاربة المماليك لأقل سبب فاتهم

الغوري بممالأة الفرس عليه وكانوا يومئذٍ أشد أعدائه، وبأن مصر أصبحت مأوى للعصاة والفارين من وجه سليم، فأدرك الغوري نيته وجرد جيشًا خرج به إلى الشام على الرغم من تأكيد سليم له أنه لا يقصد بمضر سوءًا، والتقى الجيشان بميدان "مرج دابق" شمالي حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) وكانت مدافع العثمانيين قوية ففتكت بجيش المماليك فهزموا وشلّ الغوري لوقته فوقع تحت حوافر الخيل ولم يوقف له أثر.

وملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة، وزحف على مصر فولى المماليك عليهم السلطان (طومان باي) فجمع من قدر عليه من الجنود والتقى بجيش سليم في صحراء الريدانية (العباسية الآن) فانهزم (طومان باي) ودخل السلطان سليم القاهرة، وفر طومان باي وحاول إرجاع الفاهرة فلم ينجح ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويله.

وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) وسقطت مصر من عالم الدول المستقلة العظيمة وصارت ولاية عثمانية ونزل الخليفة المتوكل العباسي بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان.

المراجع

١- خطط المقريزي

٢- محاضرات ألقاها بمعهد الآثار الإسلامية بالجامعة المصرية حضرة الأستاذ عبد الحميد العبادي.

٣- تاريخ مصر الإسلامية الجزء الأول تأليف المرحوم إلياس الأيوبي.

٤- الفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

٥- History of Egypt in the Middle Ages by S. Lane – Poole

٦- Encyclopedia of Islam

٧- Precis de l'hstoire de l'Egypte par Gaston Wiet

٨- Les Tulunides Etude de l'Egype Musulamne a la fin du IXe siècle par Dr. Zaky Mohamed Hassan

٩- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني لعمر الإسكندري والميجر سفدج.

المواصلات في مصر في العصور الوسطى [١]

الأستاذ/ جاستون فييت

مدير دار الآثار العربية

نريد أن نعالج في بضع صفحات مسائل الانتقال في مصر في العصور الوسطى تاركين قصدًا كل ما يمس الانتقال في العاصمة نفسها[٢] فيلزم إذًا دراسة طرق المواصلات في داخل البلاد التي كان يتخذها الشعب الزراعي، والأفراد للانتقال من قرية إلى قرية. وسنعالج بعد ذلك طرق نقل البضائع. وسيتجاوز البحث الحدود المصرية كي ننظر إلى حركة الموانى التجارية الهامة، وسندرس فضلًا عن ذلك طرق البريد، والحجاج ما دام القانون الإسلامي يحض آلاف المؤمنين على التوجه كل سنة إلى مكة. وسنصف في النهاية وصفًا موجزًا نقلات الثلج، ومطارات

---

(١) عندما عرض عليّ أن أترجم هذا البحث الممتع قبلت عن طيب خاطر، واستأذنت الأستاذ المؤلف فأذن بل أبدى استعداده بظرفه المعهود؛ لتوضيح ما يغمض عليّ في النص، أو في المراجع، وهي كثيرة كما يرى القارئ فانتفعت بخبرته الواسعة كما انتفعت بمقدرة الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية في معالجة بعض نواحي الترجمة المستعصية فذللها على وجه الدقة ثم في كيفية ترتيب المراجع بالعربية فرتبها أحسن ترتيب فأشكر لهما ما بذلاه شكرًا وافرًا.

(٢) نشر المسيو مارسيل كليرجيه كتابًا هامًا عن مدينة القاهرة في العصور الوسطى. وقد عالج بعض نواحي هذا الموضوع في مقالين: L'habitation indigène au Caire, (Ann. De Géographie) سنة ١٩٣١ ص ٥٢٧– ٥٤٣، De quelques Caractères des Villes arabes, Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte عدد XVIII ص ١– ٨. وانظر Hautecoeur et Wiet, Mosquées du Caire ص ١٠٩– ١١٠.

الحمام الزاجل، وكل هذا كان مطبوعًا بطابع سياسي شأن الطرق في كل مكان.

إن ابن عبد الحكم، وهو أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية يمدنا بمعلومات ثمينة بصدد قيام النظام الإسلامي فهو يقول لنا أن أول والٍ على الخصوص، وهو عمرو بن العاص كان يخصم من جملة المبالغ المتحصلة من الضرائب قبل إرسالها إلى الخليفة القدر اللازم لإدارة شئون البلاد، وحاجة الجند، وأن اعتمادًا خاصًا كان يرصد؛ لتطهير الترع، وصيانة الطرق، وبناء القناطر، وترميمها، وتهديم الجزر الصغيرة التي تتكون وسط مجرى النيل، وكانت الحكومة تستخدم في هذا السبيل مائة وعشرين ألف رجل مجهزين بالآلات اللازمة طوال العام صيفًا، وشتاءً بلا انقطاع[1] تحقيقًا لذلك البرنامج المزدوج، وهو ضمان الانتقال برًا، وبحرًا عن طريق النيل، والترع. فهذه البيانات التي يمدنا بها ابن عبد الحكم معقولة، ولا تدعو إلى التشكك مطلقًا في قيمتها فقد كانت مراقبة الطرق مراقبة صارمة، وتعميق الترع، وتطهيرها واجبين لهما أهمية خاصة في بلد يعتمد على نظام الري فالنيل هنا يخلف طميه، والمياه هناك تقوم بعملها الهدام.

---

(1) المقريزي طبعة فييت ج ١ ص ٣١٣ و٣٢٢، Lane- Poole, Hist- of Egytp ص ٢٠.

انظر: Précis de l'hist. d'Egypte ج ٢ ص ١٢٦– ١٢٧،

Lozach et Hugo; L'habitat rural en Egypte ص ١٨٣– ١٨٤.

كان هناك مفتشون للطرق في كل زمان (قارن Wiet, Catal. Des objets en Cuivre ص ١٢٧).

ومهما يكن من شيء فقد كانت الطرق مرسومة على أساس الإدارة البيزنطية المتخبطة إذ لما كانت مصر مخزنًا للغلال اللازم لبيزنطة فإن المواصلات البحرية، والنهرية كانت دائمًا موضع اهتمام من قبل موظفي الإمبراطورية. وكان واجب صيانة الجسور قائمًا على نظام السخرة غير أنه كان في الإمكان أن يتخلص المرء من عبئها بدفعه ضريبة بدل ثم أن الشعب كان ملزمًا بأن يضع ما يملك من قوارب، وما فيها من نوتية تحت تصرف صاحب الكورة عند قيامه بتحصيل الضرائب[1].

وأوراق البردي من العصر العربي تحتوي على كشوف حسابية تذكر بالتفصيل مصاريف العمال، والآلات، والعدد اللازمة لصيانة الجسور، والترع[2]. ونستخلص أيضًا من الأوراق المذكورة أن الحكومة كانت تحصل ضرائب غير عادية؛ لتجهيز الأسطول[3] وضرائب أخرى مخصصة للمعديات التي تعبر النيل[4].

وقد كانت الحكومة تختار المستخدمين اللازمين للأسطول من بحارة، وغيرهم من أصحاب المهن المختلفة كالنجارين من طبقات معينة، ولكي تقدم العدد اللازم من الأخصائيين كانت تفرض على طائفة من

---

(1) قارن Rouillard, Administr. Civile de l'Egypte byzantine ص ٧٣ و٨٤ و١٣٩ وما بعدها، Précis ج ٢ ص ٧٥.

(2) Grohmann, Papyr. Arabe, Etudes de Papyrologie ج ١ ص ٦٧، Précis ج ٢ ص ١٤٨.

(3) Grohmann المرجع السابق ص ٦٠.

(4) Grohmann المرجع السابق ص ٦٦.

الشعب أن تحترف حرفًا معينة[١]. وربما كان القيام ببعض أنواع الأعمال وراثيًا[٢] كما كانت الحال في العصر البيزنطي. وهذا يفسر لنا مهارة المصريين الخاصة في صنع السفن البحرية، فالمراكب الأولى التي صنعت في عصر الإمبراطورية الإسلامية لم تبن إلا في مصر بالفسطاط، وبالقلزم على الخصوص[٣] ولم تمض أربعون سنة بعد الفتح إلا وبلغت مصروفات الأسطول ٧٠٠٠ دينار سنوياً[٤] ولكن غارات القراصنة البيزنطيين حملت الخليفة على زيادة دور الصناعة فأمر بإنشاء واحدة بعكا[٥] مستعينًا بالنجارين المصريين، وأخرى بتونس على يد ثلاثة آلاف قبطي[٦].

فالطرق إذن كانت ضرورية، ولا غنى عنها للاتصال بين القرى إذ كانت المساحات المنزرعة تغمرها مياه الفيضان مدة طويلة من السنة. وحالة القرية المصرية اليوم بمنازلها المضغوطة المتلاصقة[٧] ليست وليدة الأمس القريب، وإنما هي حالة انحدرت إلينا منذ قرون طويلة، وترد

---

(١) Grohmann نفس المرجع ص ٦٧.

(٢) Rouillard المصدر المذكور ص ٧٣.

(٣) المصدر السابق جروهمان Grohmann ص ٦٧.

(٤) Corpus inscript. ar., Egypte ج ٢ ص ١٦٧ رقم ٢ (الدينار يساوي نصف جنيه تقريبًا– المترجم).

(٥) البلاذري ص ١١٧.

(٦) Bakri, Descr .de l'Afrique ص ٨٤. Encyclopédie de l'Islam ج ٢ ص ١٠٥٨. Précis ج ٢ ص ١٤٨. Amari, Diplomi arabi, p. X.

(٧) انظر ما كتبه Demangeon في المرجع السابق ص IX.

أسبابها إلى الحاجة إلى الاحتفاظ بمساحة الأراضي الزراعية خصوصًا في الصعيد، وعدم التفريط في أي جزء منها. فكانت القرية تُبنى على مرتفع من الأرض طبيعي، أو صناعي (على أساس مدينة، أو معبد قديمين) في نقطة لا تصل إليها مياه الفيضان عادة[1].

إنا نعيش في زمن قد أخذت فيه شبكة الطرق المصرية في التحول تحولًا جوهريًا من جراء اتساع النقل بالسيارة غير أنها كانت، ولا تزال كافية لحاجات الشعب الزراعي فاليوم كالأمس تزدحم في ساعة معينة عند طلوع الشمس، وعند غروبها بقطعان الخراف، والثيران الهادئة التي يعتلي إعجازها الأطفال أحيانًا، وبالحمير السنجابية، وهي تسير سيرًا وئيدًا غير آبهة في خُطى متزنة. وسكان الغيطان، والحقول العاملون يسيرون معها رجالًا، ونساءً، وأطفالًا. إن الخروج إلى الحقول في الصباح الباكر لا يزال حتى اليوم مصحوبًا بالضجيج، وإن الإنسان ليعبر عن سروره وفق غريزته، فينتفض ذلك البدن انتفاضة المستريح من جو ذلك الكوخ الطيني الحقير، وأنك لترى الرجال قبل الرحيل، وقد جلسوا القرفصاء على صف واحد مستندين إلى الجدار في اتجاه الشمس المشرقة يتهامسون همسات خفية قبل بدء الأشغال اليومية.

نعم، والطرق لم تتسع فالمهم عدم التفريط في شبر واحد من الأرض قابل للزراعة، ورغم ضيقها فإنه لم يحصل أن انسدت إلا نادرًا جدًا فالفلاحون يأخذون الطريق في ساعات معلومة وفي اتجاه واحد، ولا

---

(1) Nasir- i- Khusrau ص ١١٨. المرجع السابق Lozach et Hug, ص ١٦٦.

يتلاقون بقوافل الجمال الطويلة إلا قليلًا. والحق أن النيل، والترع كانت طرق نقل البضائع على وجه الخصوص فنشأت على ضفاتها البلدان التي للتجارة فيها شأن أخطر من الزراعة[1].

وفضلًا عن هذا فإن النيل، والترع[2] كانت من طرق المواصلات البعيدة ولم تكن السرعة كبيرة فستة أيام كانت لازمة لقطع المسافة بين الإسكندرية، والقاهرة[3] والرحلة بين العاصمة وقوص ذهابًا، أو إيابًا كانت تستغرق مدة تتباين من ثمانية أيام إلى خمسة عشر يومًا[4].

كان الفتح العربي عاملًا بين عوامل نمو حركة الملاحة النهرية فالعرب، وقد احتفظوا بأهم أنواع الأعمال التي كانت مفروضة على المصريين قبل العاصمة البيزنطية كانوا يبعثون بالغلال إلى البلاد المقدسة ببلاد العرب، وهي مكة، والمدينة فأعادوا حفر القنال تسهيلًا لنقل الغلال، تلك القنال التي كان أمر بإنشائها "نخاو" فرعون مصر بين النيل، والبحر والأحمر ثم اهتم بها من بعده الإمبراطور طرايانوس. وكانت بدايتها شمال مصر القديمة بقليل، ونهايتها إلى ما قبل القلزم، أو قلزما القديمة بميل. وكان من سوء حظ مصر أن كان الخلفاء الأوائل يديرون

---

(1) المرجع السابق تأليف Lozach et Hug ص ٢٣.

(2) ومن جهة أخرى كان بعض القرى أثناء الفيضان الكامل لا يستطيع أن يتصل بالبعض الآخر إلا بالقوارب (Nasir- i- Khusrau ص ١١٨).

(3) رحلة ابن بطوط ج ١ ص XXIX.

(4) Heyd, Hist. du Commerce du Levant ج ٢ ص ٦٠.

البلاد متشبعين بروح بيزنطة وسياستها الإدارية فالخليفة المنصور أمر بردم القنال لتجويع المدينة[1] وكان يمكن لمدينة القلزم أن تحتفظ بنشاطها التجاري السابق غير أنها أخذت تفقد مكانتها شيئًا فشيئًا[2] وعجلت الحروب الصليبية باضمحلالها. وسنعود إليها عند الكلام على الحج.

والملاحة النيلية اليوم هي رمز الهدوء وسط حياتنا المضطربة، ورمز حياة شعب عامل مجد، غير أنها كانت في العصور الوسطى ذات حركة قوية سريعة تثير الإعجاب، وقد وصفها المقريزي بعبارة فيها غلو، وحماسة مقصودان.

"ولا تنس الجواري المنشآت في البحر كالأعلام التي تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام، وإعجابها بغربانها البحرية، وحراقاتها الحربية، وشوانيها، وهول مبانيها، وجلال شكلها، وجمال معانيها تبدو موشاة بالنضار الأحمر منقشة باللون الأفخر فهي كالأرقم المنمر، أو كمتلون الثمر، أو الطاوس الذكر، أو الناوس لبني الأصفر معمرة ببأس الحديد، والأحجار محمولة على سيح الماء التيار مشحونة بالرجال منصورة عند القتال مصونة بالمجن، والنبال تبرز مذكرة بالآية النوحية،

---

(1) أو إفلاس مصر نفسها، وحمل تجار الهند على المرور ببغداد، ووادي الفرات.

قارن المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٤٠ وانظر المرجع السابق للين بول Lane-Poole ص ٢٠، J. Maspero et G. Wiet, Matériaux pour server de la Géogr. De l'Egypte ص ٨٤– ٨٥ Précis ج ٢ ص ١٤٧، Amari, Diplomi arabi ص XLIX.

(2) قارن المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٥، المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٣٦.

وتضمن إحراز الهمة العلية الفتحية حصون أمنع من أعز قلاع تطير إذا فتح لها جناح القلاع فتسبق وفد الريح عند الإسراع، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع فهي مع العقبان في النيق حوّم وهنّ مع البنيان في البحر عوّم"[1].

نعم، وكانت الملاحة النيلية نشيطة جدًا، وكانت العاصمة تعتمد عليها في تموين نفسها فكان للباعة "بالقطاعي" دكاكين بمصر القديمة على ساحل النيل، وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم، وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب[2].

وقد احتفظت القاهرة حتى في أواسط القرن الثالث عشر بطابعها كمدينة ملكية حربية، وظلت الفسطاط ميناء تجارية، والبضائع لكثرتها لم ير أحد الرحالة في ذلك العصر ضرورة لتعديد أصنافها الواردة من بحر الإسكندرية، وبحر الحجاز[3] ثم لما انقضت مائة عام كانت الحركة التجارية النيلية لا تزال شديدة.

وها هو ابن بطوطة يحدثنا عنها حديث المعجب بها الإعجاب كله المقدر لقيمتها فيقول: "وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفًا للسلطان، والرعية تمر صاعدة على الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية،

---

(1) المقريزي ج ١ ص ٣٧٠.

(2) Nasir- i- Khusrau ص ١١٥.

(3) المقريزي ج ١ ص ٣٤٢، Précis ج ٢ ص ٢٢٦- ٢٢٧.

ودمياط بأنواع الخيرات، والمرافق، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد؛ لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء، والصلاة، وشراء الزاد، وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان"[١].

كانت مصر في العصر البيزنطي طريق البضائع الواردة من آسيا، والشرق الأقصى برسم أقاليم الساحل الشمالي بالبحر الأبيض المتوسط[٢] وكانت المراكب الحبشية تتاجر مع بلاد العرب، وتفرغ فيها حمولتها الآتية من الهند عن طريق البحر الأحمر[٣] فلما جاء الفتح العربي لم يحدث أدنى تغيير في هذا الطريق التجاري الذي تتوسطه مصر. ولا يسعنا بهذه المناسبة إلا إثبات نص هام لجغرافي من القرن التاسع، وإن كان قد سبق نشر هذا النص كثيرًا لخطورة شأنه:

"كانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية، والفارسية، والرومية، والإفرنجية، والأندلسية، والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برًا، وبحرًا يجلبون من المغرب الخدم، والجواري، والغلمانن والديباج، وجلود الخز،

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ٦٧ و٦٩.

(٢) قارن Lammens, La Macque à la veille de l'hégire, Mel. De l'Univers. De Beyrouth ج ٩ ص ١٠٨، Précis ج ٢ ص ١٤٥– ١٤٦.

(٣) قارن المرجع السابق تأليف هايد ج ١ ص ٩– ١٠ و٢٥، والمرجع السابق تأليف رويار Rouillard ص ٨١– ٨٢.

والفراء، والسمور، والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار، وجدة ثم يمضون إلى السند، والهند، والصين فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك"[(١)].

ثم بعد قرن من الزمان كانت مصر "يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين (بحر الحجاز، وبحر الشام) من أنواع الأمتعة، والطرائف، والتحف من الطيب، والأفاويه، والعقاقير، والجوهر، والرقيق، وغير ذلك من صنوف المآكل، والمشارب، والملابس فجميع البلدان تحمل إليها، وتفرغ فيها"[(٢)].

وهكذا لم يكن ظهور الإسلام ليعطل تلك العلاقات التجارية مع الغرب المسيحي. وأحست أوروبا كعهدها في الماضي بحاجتها إلى بهار الهند، ولآلئ الخليج الفارسي، والأحجار الكريمة، والعطور، والحرير،

([١]) ابن خرداذبه ص ١٥٣، ابن الفقيه ص ٢٧٠، المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٢٥، المرجع السابق لهايد Heyd ص ٤١ و١٢٦، Précis ج ٢ ص ١٤٦، Amari, Diplomi arabi, p. XI.

([٢]) كتاب التنبيه، والإشراف للمسعودي ص ٢٠، Précis ج ٢ ص ١٧٠.

والعاج. وظلت الإسكندرية كما كانت في الماضي محتفظة بمركزها. ولم تكن الضرورة تدعو إلى إنشاء سوق جديدة[1].

ولا شك في أن الحروب الصليبية أصابت الحركة التجارية بالركود ثم تدخلت البابوية عقب طرد الصليبيين؛ لقطع كل علاقة تجارية مع مصر غير أنها عادت فسمحت بها في حدود معينة تحت ضغط تجار أوروبا، ولكنها حظرت علنًا تصدير الخشب، والحديد اللذين يستعملان في تسليح المماليك[2] فباءت هذه السياسة بالفشل، ورأينا الدول الأوروبية تعمل على كسب صداقة الحكومة المصرية، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة، وأبعدها أثرًا[3] وأن تقارير قناصل أوروبا بالإسكندرية لتدل دلالة واضحة على كثرة التجار الأجانب[4] وفي غضون

---

(1) قارن المرجع السابق لهايد Heyd ج ١ ص ٤١ و٥٣ و٧٨، Précis ج ٢ ص ١٤٦ و١٤٧ كانت دمياط مهملة إذ كان من اللازم نقل البضائع على قوارب مسطحة انتقل اسمها العربي إلى اللغة الفرنسية، وهو des djermes (المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٧٤، المرجع السابق تأليف هايد Heyd ج ٢ ص ٦٠ رقم ٢، Arch. De l'Or. Lati ج ٢ ص ٣٦٩، G. S. Colin, Technol. De la batellerie du Mil, Bull. Inst. Fr ج ٢٠ ص ٧٦). ومع ذلك كانت إيرادات الجمارك برهانًا على أن الحركة التجارية كانت لا تزال نشيطة (هايد Heyd ج ٢ ص ٥٨).

(2) المرجع السابق تأليف هايد Heyd ج ٢ ص ٢٣– ٢٥ و٤٢ وما يليها.

(3) قارن Lammens, La Mecque, Mel. De l'Univers. De Beyrouth ج ٩ ص ١٠٦، Précis ج ٢ ص ٢٥٥.

(4) قارن المرجع السابق تأليف Hautecoeur et Wiet ص ٧٦– ٧٧، Voy. de Jean Thenaud, p. XVI- XVI.

القرنين الرابع عشر، والخامس عشر أخذت سفارات البلاد الأوربية في مصر في الازدياد تحدوها أغراض تجارية، وسياسية كبعثات ملك أراجون[1] وملك فرنسا[2] وجمهوريات جنوة[3] والبندقية[4] وإمبراطور بيزنطة[5] وملك البلغار، ووادي الفولجا[6] والبلاط العثماني[7] وممالك اليمن[8] والعجم[9] وأمير سيلان[10].

وكان للإسكندرية في القرن الرابع عشر ميناء فخمة عدها ابن بطوطة الذي ساح في الشرق، والشرق الأقصى في مصاف مواني

---

(1) المرجع السابق تأليف هايد Heyd ج ٢ ص ٣٢ و٤٩، Corpusinscr. Ar., Jérusalem ج ١ ص ٣٩٩، Arch. De l'Or latin ص ٣٦٨- ٣٦٩.

(2) المرجع السابق تأليف هايد ج ٢ ص ٣٤ Corpus inscr. ar., Jérusalem ج ١ ص ٤٠٠- ٤٠١.

(3) Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف a ص ٨١.

(4) نفس المرجع تأليف هايد ج ٢ ص ٣٨- ٣٩ و٤٥ و٥٣.

(5) Quatremère Sultans Mamlouks ج ١ حرف a ص ١٧٧ و٢١١، ج ٢ حرف a ص ٨١.

(6) Quatremère, Masalek, elabsar, Notices et extraits des mss. XIII ص ٢٧٠- ٢٧١.

(7) Précis ج ٢ ص ٢٦٦.

(8) Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف a ص ٨١.

(9) Wiet, L'histor. Abul Mahasin, Bull. Inst. d'Egypte ج ١٢ ص ١٠٠.

(10) Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف a ص ٥٩- ٦٠، المرجع السابق تأليف Hautecoeur et Wiet ص ٨٦.

كيلون[١] وكلكتا في الهند وسوداق[٢] في شبه جزيرة القرم وزيتون (تسنج تشيوفو) في الصين[٣].

وكان تجار قطالونيا، وجنوة، والبندقية يجلبون إلى مصر ما اشتدت إليه حاجتها من الرقيق من الجنسين، وكان أهل جنوة يستوردونه من القرم على الخصوص، وحاجتها من الخشب[٤] الذي كان يستعمل في بناء المباني العامة، والمنشآت البحرية، ومن الأقمشة، والفرو الذي كان يستعمل في تفصيل ملابس كبار الموظفين الرسمية[٥] ثم يستورد أولئك التجار عند العودة إلى بلادهم بهار الهند[٦] وخزف الصين، ولآلئ الخليج الفارسي، ومختلف محاصيل إفريقيا الوسطى. وكانت مصر مركز تجارة البهار التي سيطرت عليها نقابة قوية، وقد عرف هؤلاء التجار من قديم الزمان باسم كريمي Karimis المشتقة من Kanem.

---

(١) قارن كتاب عجائب المخلوقات ص ٢٢٨- ٢٢٩.

(٢) مسالك الأبصار طبعة Quatremère ص ٢٧٢، Heyd ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) ابن بطوط ج ١ ص ٢٨.

(٤) قارن هايد Hey ج ١ ص ٣٥، ج ٢ ص ٨٣، Précis ج ٢ ص ١٤٧ و٢١١- ٢١٢ و٢٧٩.

(٥) قارن Gaudefroy- Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamlouks p. LXXXIX.

(٦) ماركو بولو Macro Polo يحدثنا عن "مراكب الفلفل الآتية من الهند إلى الإسكندرية" (Le Livre de Marco Polo, P. LXIII, LXXIV).

وكان لهؤلاء التجار رؤوس أموال ضخمة، ووكلاء في الهند، وعدن التي كانت تسمى (دهليز الصين)[١]، وكان بعضهم يرحل إلى بلاد العرب، والشرق الأقصى لزيارة وكلائهم. وكان مركزهم التجاري مدينة قوص[٢] وكان في حوزتهم أسطول كبير. ثم أنهم لم يلبثوا أن وسعوا تجارتهم فلم يكتفوا بأنواع البهار، وإنما تاجروا فضلا عن ذلك في الحبوب على وجه الخصوص. ونمت ثرواتهم بحيث كان في مكنتهم إقراض ملوك مصر، واليمن[٣] ما يطلبون من مال.

كانت الإسكندرية أهم مركز لتجارة البهار بالنسبة إلى أوروبا، وكانت الرحلات في البحر الأبيض المتوسط تختلف أزمانها. وما كانت لتخلو من الأخطار في بحر موبوء بالقرصان الذين ينتمون إلى البلاد التجارية نفسها. فمنهم من كان من أهل قطالونيا، وصقلية، ومنهم بطبيعة

---

(١) المقدسي ص ٣٤.

(٢) قارن هايد Heyd ج ٢ ص ٥٩.

(٣) قارن مسالك الأبصار طبعة Quatremère ص ٢١٤– ٣١٥، تراجم المنهل الصافي لفييت Mém Inst. d'Egypte ج ١٩ رقم ١٤٣٠ و١٥٩٢ و٢٤١٠ و٢٧٦٠، Hautecoeur et Wiet Mosquees ص ٨٥، Amari, Diplomi arabi, p. LXIII فرضت الحكومة المصرية مرة غرامة فادحة على أعيان من دمشق استدعوا إلى مصر، وكانوا لا يحملون في تلك الساعة مالا، فطلبت الحكومة إلى (الكريمي Karimis) أن يدفعوا فورًا قيمة الغرامة، وحصلتها الحكومة بدون تأخير، وكانت نقابة التجارة من القوة حيث استطاعت أن تعوض ما صرفته (Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف a ص ٩٢– ٩٣).

الحال أهل جنوة الذين لم يكن ليخلو منهم مكان[١] وكانت الرحلة بين القسطنطينية، والإسكندرية، وبين هذه، وصقلية[٢] تستغرق عشرين يومًا.

وقد اعتمدت حكومة المماليك على هذه التجارة فاستطاعت أن تزيد إيراداتها، وقدرت رسوم الصادر، والوارد الباهظة المفروضة على ثلاث سفن، أو أربع بما يوازي قيمة حمولة واحدة منها[٣] وربما كانت هذه هي القاعدة المرعية غير أن المعاهدات التجارية خففت من وطأتها[٤].

وإذا كان تقدم البلاد المادي يعزى إلى تجار أوروبا أفليس عجبًا أن نرى الحكومة المصرية تفرض عليهم الرسوم الباهظة؟ هي حالة تجلت عندما تحول سوق البهار من الإسكندرية إلى لشبونة، وها هو فريسكوبالدي يورد حقائق ملموسة بصرف النظر عن تحامله. قال:

"وصعد في النهار على السفينة نحو عشرين ضابطًا عربيًا من السود، والبيض، وفحصوا البضائع، والركاب فحصًا دقيقًا، ولم يثبتوا شيئًا

---

(١) قارن هايد Heyd ج ٢ ص ١٣ و١٦ و٢٩ و٣٢ ورقم ٣ و٣٤– ٣٧ و٤٠.

(٢) Nasir- i- Khusrau ص ١١٤ و١٢٢ كانت الملاحة أحيانًا مستحيلة في بعض شهور الشتاء على سواحل مصر، وسورية (نفس المرجع ص ١٠٩، Corpus inscr. ar,. Egypte ج ٢ ص ١٤٠ رقم ٥).

(٣) Heyd ج ٢ ص ١٢٥ من المدهش أن الرسوم التي كانت مفروضة على المركب الواحدة في سنة ٧٠٣ (١٣٠٤) بلغت ٣٠٠٠٠ دينارًا أي ما يقرب من نصف مليون فرنك ذهب (Quatremère, Sultans Mamluks ج ٢ حرف ب ص ٢٣٣، Amair, Diplomi arabi, p. LXIV).

(٤) قارن Heyd ج ٢ ص ٣٨ و٤٥ و٤٨.

غير أنهم حملوا معهم شراع السفينة، وصاريها كما اعتادوا ثم جاء خبراء السلطان فأنزلونا، وقادونا إلى ميناء الإسكندرية فاستلمنا بعض الضباط، وأخذوا في عدنا كالبهائم. ثم اثبتوا العدد في دفاترهم، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشًا دقيقًا، وتركونا في حراسة قنصل فرنسا. ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان، وأعيدت، وفحصت فحصًا دقيقًا"[١].

ولم يكن هذا التفتيش الجمركي في عهد المماليك فقط، وإنما كان سابقًا عليه فالحكومة المصرية أثناء حروبها مع الصينيين كانت مراقبتها شديدة صارمة. وسنرى كيف كان عمال الجمارك في القرن الرابع عشر يتبعون التقاليد القديمة. فقد روى ابن جبير ذلك الرحالة المسلم الذي انطبقت روايته هذه بطابع مرير مستساغ كيف كانت المعاملة عندما نزل بالإسكندرية في آخر شهر مارس سنة ١١٨٣.

"طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدًا واحدا، وكتبت أسماؤهم، وصفاتهم، وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد منهم عما لديه من سلع، أو مال ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك، أو ما لم يحل، وكان أكثرهم ليس معه سوى زاد الطريق، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال الحول عليه ،أم لا، وأمر المسلمين بتنزيل أسبابهم، وما فضل من أزودتهم على ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم، ويحمل جميع ما انزلوه إلى الديوان، فاستدعوا واحدا واحدًا، واحضر ما لكل واحد من الأسباب،

---

(١) قارن ما كتبه دفريمري وسانجونيتي Defremery, Sanguinetti في مقدمتهما لرحلة ابن بطوط ج ١ ص ٣٧.

والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها، وما جل، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثًا عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم، أم لا، وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي، وتكاثر الزحام"[1].

ومع ذلك لماذا نرثى لحال تجار أوروبا كثيرًا. فإذا كانوا يتعرضون إلى نهب بضاعتهم على يد القرصان، ويدفعون إلى الخزينة المصرية ضرائب فادحة، ويحتملون دون تذمر شديد بعض المضايقات فذلك؛ لأنهم كانوا يكتنزون الثروة، ويغتنون رغم ذلك كله. غير أن هذه التجارة التي ازدهرت في القرنين الرابع عشر، والخامس عشر ضربت ضربة قاضية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ولم يكن الفتح العثماني ليدخل أي تحسين على هذه الحالة.

وقد لاحظ مؤرخ عربي في أواخر سنة ٩١٢ (١٥٠٧) أن السفن الأوربية أخذت تتوغل في البحر الأحمر، وكان عددها يتجاوز العشرين، وكانت تطارد السفن التجارية الآتية من الهند، فإذا استولت عليها صادرت بضائعها فنشأ عن ذلك بالنسبة إلى مصر خسارة فادحة إذ انعدم

---

(1) بن جبير ص ٣٦- ٤٠. هذه الفقرة مدهشة إذا علمنا أن الرحالة عينه تحدث عن رجال الجمارك الفرنج بعكا حديث مدح، وثناء (ص ٣٠٢- ٣٠٣، Lammens, La Syrie ج ١ ص ٢٨٣).

فيها بعض البضائع كالأقمشة[1] على وجه الخصوص، وكان ظهور السفن البرتغالية في البحر الأحمر حادثًا لم يكن في مكنة المصريين حتى المتعلمين منهم أن يدركوا سببه، ولكن ما أثبته مؤرخنا من شرح غير منتظر لفت أنظارنا، واسترعى انتباهنا "أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الإسكندر ابن فلبش الرومي، وكان هذا نقبًا في جبل بين بحر الصين[2] وبحر الروم[3] (كذا) فلا زال الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح، وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد"[4].

---

(1) هذه الرواية تسمح لنا أن نقيس مدى انحطاط الصناعات في مصر في القرن الخامس عشر. كانت الثروة في ذلك الزمن ناشئة على الأخص من الوساطة في نقل التجارة لا من الإنتاج المحلي، إلا في حدود ضيقة جدًا.

أما فيما يختص بالأقمشة فالبون شاسع إذا قارنا القرن الخامس عشر بالقرن الرابع عشر فقد كانت الأقمشة في هذا القرن تصدر من الإسكندرية إلى الهند حيث كانت "ملابس الربيع معظمها من المنسوجات المصنوعة بالإسكندرية". وكانت هذه المنسوجات محل تقدير كبير إذ أن "مجل الملابس الكتانية الواردة من الإسكندرية ما كان يلبسها إلا أولئك الذين خلعها عليهم السلطان" (مسالك الأبصار طبعة Quatremère ص ١٨٣ و٢٠٠) ومن جهة أخرى كان البلاط المصري نفسه يقدم الهدايا من أقمشة الإسكندرية (المرجع السابق ص ٢٧١، Quatremere. Sultans Mamlouks ج ٢ حرف a ص ٩)، قارن ما كتبه فييت عن أبي المحاسن في Bull. Inst. d'Egypte ج ١٢ ص ٩٩، Précis ج ٢ ص ٢٦٢.

(2) ولمعرفة مدى هذه التسمية قارن. Lammens. La Meque á la veille de l'hégire.

(3) هذا الاسم يطلق عادة على البحر الأبيض المتوسط غير أن المقصود هو المحيط.

(4) ابن إياس طبعة كاله Kahle ص ١٠٩.

ويكفي هذا الحادث للتحقق من صحة ما أدلى به – ريمون لال – عقب الحروب الصليبية إذ قال أنه إذا امتنع المسيحيون مدة ستة أشهر فقط عن شراء البهار من المصريين لحدثت في مصر نكبة اقتصادية لا علاج لها[١].

إن ما قدمنا يدل على مبلغ اهتمام الحكومة المصرية بالمحافظة على طرق النقل بالنيل، والترع غير أنه في الجنوب كان لابد من إنشاء طرق للقوافل عبر الصحراء للوصول إلى البحر الأحمر. ومن جهة أخرى فإن طريق الحجاج من القاهرة إلى مكة حتى زمن الحروب الصليبية، وما بعدها كان يقطع كذلك مسافات طويلة صحراوية فكان من المحتم الالتجاء إلى الاختصاصيين، وإدلاء القوافل الذين لا يضلون، والذين يعرفون الطريق الصحيح بعلامات لا يفقهها غيرهم كما يعرفون موارد الماء، وأنواعها[٢].

هذا فضلًا عن أن الحكومات المختلفة كانت تحافظ على طرق المواصلات البريدية في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية. وكان البريد لا مندوحة عنه أبدًا، وظل يؤدي الخدمة بانتظام، وبدون انقطاع فمن العبث إذن أن نبحث مع المؤرخين العرب عن أصل البريد، وتاريخ

---

(١) Heyd ج ٢ ص ٢٧.

(٢) قارن Lammens, La Macque à la veille de l'hégire ص ١٢٣.

نشأته[1] كما أنه من السخف أن نجاريهم في أن تيمورلنك هدم شبكة المواصلات السورية[2] فطرق البريد التي أتلفتها جموع الفاتح المغولي تم إصلاحها بدون شك في القرن الخامس عشر. ولندون هنا حادثين كبيرين: حملة السلطان بيبرس على ديار بكر[3] ورحلة التفتيش التي قام بها قايتباي[4].

إن إدارة البوستة تسمى بالعربية البريد، وهذه التسمية تدلنا وحدها على أنها ليست أصيلة في الإمبراطورية الإسلامية، وإنما هي في الحقيقة من أصل لاتيني تذكرنا بكلمة Veredus[5] وكان صاحب البريد موظفًا يخشاه رجال السلك السياسي إذ كان في الحقيقة ينتمي إلى إدارة الجاسوسية التي نطلق عليها اليوم إدارة الأمن العام[6] وكانت الحكومات الإسلامية المختلفة تراقب الولاة مراقبة شديدة كما كان يفعل الساسانيون، وقد برهنت الحوادث على أنه كانوا على حق[7] ففي القرون

---

(1) قارن المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٤ والتعليقات. انظر Le Livre de Marco Polo ص ٣٣٥ وما يليها. إذا أردنا أن نختار تاريخًا فإننا نؤثر أن نتخذ حكم عبد الملك بن مروان فأربعة معالم للبريد معروفة لدينا من عصره (.Répertoire d'épigr. ar ج ١ رقم ١٤ – ١٧).

(2) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٨، Hautecoeur et Wiet, Mosquées ص ٨٣.

(3) قارن ما كتبه فييت عن المؤرخ أبي المحاسن في Bull. Inst. d'Egypte ج ١٢ ص ١٠٤.

(4) Voy. du Sultan Qaitbay, Bull. Inst. fr. ج ٢٠ ص ١ وما يليها.

(5) انظر ما كتبه Quatremère تعليقاً على هذا في Sultans Mamlouks ج ٢ حرف ب ص ٨٧ وما يليها.

(6) قارن ما كتبه لامنس Lammens عن معاوية في Mel. Faculté or. De Beyrouth ج ١ ص ٦٤.

(7) قارن Précis ج ٢ ص ٢٤٦.

الأولى تطلبت الأقاليم الشاسعة الفسيحة الخاضعة للإدارة المركزية بدمشق ثم ببغداد أن يكون هناك في خدمتها عديد من الموظفين الذين منحوا السلطة التي تستدعي الانتقال السريع.

وقد لقبوا بألقاب لائقة تتفق اتفاقًا تامًا مع مسئولياتهم الظاهرة، وهي صيانة الطرق، والبريد صيانة طيبة، ولكن من مهامهم الأصلية ما يحملنا على مقارنتهم برسل ملوك فرنسا عند الكاورلنجيين[١] missi domimici.

وليس علينا أن نتكلم عنهم هنا أكثر من ذلك فحسبنا أن نعرف الطرق التي كانوا يسلكونها في دخول الأراضي المصرية، وأننا نرى أن أولها هو الطريق الذي اجتازته جنود قمبيز[٢] وكان يبتدئ من دمشق ثم يغادر الإقليم السوري الفلسطيني عند غزة وهي "دهليز مصر"[٣] ويمر بالعريش، والفرما Péluse وبلبيس. وكانت المسافة ٢٣٧ ميلًا عربيًا، وهي تساوي بالتقريب ٤٦٨ كيلو متراً[٤]. كان هناك طريق ينتهي إلى بلاد المغرب، وهو يهمنا إذ يمر بالإسكندرية فهو يسير على حدود الصحراء

---

(١) لم يكن تلقيب الشعب إياهم بهذا اللقب "شياطين السلاطين" إشارة ساذجة إلى ما امتازوا به من السرعة، وإنما كانت إشارة تنطوي على حقيقة أسرهم (مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٢٦٤).

(٢) J. Maspero et G. Wiet, Matériaux pour server à la géogr. De l'Egypte ص ٤٥، Précis ج ٢ ص ١٠٩.

(٣) Arch. De l'Or latin ج ٢ وص ٩٣.

(٤) ابن خرداذبه ص ٨٠، المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٥ بخصوص مقياس البريد قارن Corpus inscr. ar., Jerusalem ج ١ ص ٢٧– ٢٨.

متبعًا خطًا يكاد يكون مستقيمًا مارًا بالطرانة، وقرطسا، ودمنهور. وكانت المسافة التي تفصل الفسطاط عن الإسكندرية ١٧٨ ميلًا أي **٣٥١** كيلو متر تقريبًا[١].

إن طرق البريد إذا نظرنا إليها من وجهة نظر الخلافة لا محل لها في الوجه القبلي غير أنه كان هناك طريق رئيسي يربط العاصمة بأسوان. ففي العصر الفاطمي كان هناك "مرتفع من الأرض مواز للنيل ممتد من أقصاه إلى أقصاه يُتخذ طريقًا. وكانت الخزينة العامة تدفع سنويًا مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التي يتطلبها ذلك الطريق"[٢].

لا شك أن التقدم العظيم الذي رأته مصر، وسورية في القرن الرابع عشر كان مره إلى الأمن السياسي غير أن طرق المواصلات كانت عاملًا من عوامل هذا التقدم أيضًا ففي ذلك العصر كانت القوافل التجارية منظمة تنظيمًا دقيقًا، وكانت تتلاحق في فترات منتظمة، وكان للأفراد أن يلحقوا بها فإذا نظرنا إلى تنقلات الموظفين الكثيرة وحدها أمكننا أن نقدر كيف كان السفر بالبر أمرًا مألوفًا.

وسندرس الآن أهم الطرق التي حسنها السلطان بيبرس الأول إن لم يكن قد أنشأها. كان ذلك السلطان مهتمًا بأن يكون السفر آمنًا هينًا،

---

(١) ابن خرداذبه ص ٨٤. هذه المسافة مبالغ فيها رغم ما يمكن أن يكون فيها من منعطفات، ولذا يلزم فرض وجود أخطاء في المخطوطات.

(٢) Nasir- i- Khusrau ص ١١٨.

وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد، وعلف، وغيره، ولاستتباب إلا من قال فيها المقريزي "أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية لا تحمل زادًا، ولا ماء"[1].

وابن بطوطة رحالة القرن الرابع عشر الكبير يتكلم عن وجود فندق في كل منزل: "وبكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه، ودابته"[2].

وقد يكون من السخف أن نعزو إلى السلاطين المماليك تأسيس هذه الفنادق فإنهم إنما هم أشاعوا استعمالها، والحق أننا نعرف أنه كان في سورية خانات، أو فنادق من أواخر القرن الثاني عشر[3] والنصف الأول من القرن الثالث عشر[4] بل قبل ذلك أبدى ناصر خسرو إعجابه

---

(1) Précis ج ٢ ص ٢٥٨.

(2) ابن بطوطة ج ١ ص ١١٢.

(3) قارن Creswell, Tow Khans, Syria ج ٤ ص ١٣٤ وما يليها، Voy. de Qaitbay ص ٢٠ رقم ٢، Précis ج ٢ ص ٢٧٣.

(4) Van Berchem, Inschr. Ausd. Ostjordanlande, Zeitchr. deutsch Palestinavereins ج ١٦ ص ٨٥، Dussaud et Macler, Mission en Syrie Moyenne ص ٧٣٠، Clermont Ganneau, rec. d'archéol. Orientale ج ١ ص ٢٤٢، Littmann, Sem. Inscriptions ص ٢٠٤.

بعظم اتساع مائتي فندق بمصر القديمة[1]. والسلاجقة كانوا أسبق إلى بناء نوعين من المباني على جانبي الطرق بآسيا الصغرى: نوع يسمى الرباط[2] وهو فندق للمسافرين. والثاني يسمى الخان[3] وهو الذي ينزل فيه التجار ببضائعهم. وكانت طرق البريد سواء في سورية، أم في مصر مجهزة بالخانات، وقد بقي بعضها حتى يومنا هذا، ويسمى أحيانًا بعض القرى بأسمائها[4] فخان الأحمر بفلسطين أوقفه بانيه "وحبسه، وسبله

---

(1) Nasir- I- Khusrau ص ١٥٦.

(2) قارن Huart, Epigr. ar. d'Asie mineure, Rév. Semitique ج ٢ رقم ٢٢. Riefstahl, Southwest. Anatolia, p. 89

للوقوف على ما للفظة رباط من معان مختلفة قارن Précis ج ٢ ص ٢٧٠– ٢٧١.

(3) قارن المرجع السابق للمؤلف هيار Huart رقم ٩ و١٢ و٢١، المرجع السابق للمؤلف Riefstahl ص ٩٠ و١٠١، Ismail Hakki, Tokat Kitabéler ص ٦٧ و٧٤ و٧٥ و٨٧، Sarre, Reise in Kleinasien ص ٨٥– ٨٨ و١٥٩، Gabriel, Mon. turcs d'Anatolie ج ١ ص ٩٨– ١٠٠ de Jerphanion, Mél. d'archéol. Anatolienne, Mél. de 'lUnivers de Beyrouth ج ١٣ ص ٥٦– ٧٠.

وعن الأقاليم الأخرى في الإمبراطورية الإسلامية قارن Quatrmère ومسالك الأبصار ص ٢٠٩ و٢١١.

وقد أساء الرحالة فرسكو بالدي فهم تلك الكلمة فحملها معنى سخيفًا مطبوعًا بطابع التحيز، والجهل إذ قال "وكان المسيحيون الفرنجة يحبسون في بناء يسمى il cane وكان القائم على حبسهم اسمه Canattiere ومعنى هذا أننا كلاب" (ابن بطوطة ج ١ ص XXVIII من مقدمة Defremery et Sanguinetti لهذا الكتاب).

(4) قارن Corpus inscr. ar., Jérusalem ج ١ رقم ٨١ و٩١، Bischof, Hist. d'Alep ص ١٥٥، Voy. de Qaitbay ص ٧ و٢١ و٢٣ و٢٨ و٣٢، Dussaud, Topogr. Historique de la syrie ص ٦٠١، Van Berchen et Fatio, Voy. en Syrie ج ١ ص ٦٣ و٢٠٦ و٢٦٦.

على الصادرين، والواردين من الناس أجمعين"[١] وتأسس على أبواب مصر خان يونس، في أواخر القرن الرابع عشر، أسسه عامل للسلطان برقوق مشهور باهتمامه الفائق بالفقراء، والمعوزين كما جاء في كتابة تأسيس الخان التي ورد فيها فضلًا عن ذلك أن الانتفاع به كان بالمجان.

ولا شك أن المراكز الكبرى كانت مجهزة بأبنية تسمى بحسب العصر، والمكان، والغرض الذي شيدت من أجله خانات، أو فنادق، أو وكالات. وقد انتقلت لفظة الوكالة إلى اللغة الفرنسية في العصور الوسطى بهذا الشكل okel أو okelle[٢] والمقريزي المؤرخ الكبير يبدأ بيانه عن خانات القاهرة[٣] بخان مسرور المعروف لقراء ألف ليلة وليلة. وكان ذلك الخان مركزًا كبيرًا لتجارة الرقيق كان الناس يباعون فيه كما تباع الحيوانات[٤] وكان خان آخر يؤدي عملية من عمليات البنوك فقد كان التجار يودعونه ما يمتلكون من ذهب، وفضة[٥]. وعند مدخل المدينة

شرح صديقي J. Sauvaget في كتابة بحث عن Les routes et les monuments du barid Mamelouk dans les provinces Syrienne.

(١) Wiet, Cat. Des objets en Cuivre ص ٩٣.

(٢) Dozy, Dictionnaire ج ٢ ص ٨٣٥، Bibl. des arabisants ج ٢ ص ٤٠ Hautecoeur et Wiet, Mosquées ص ١٠٨.

(٣) المقريزي ج ٢ ص ٩٢.

(٤) Les Pérégrinations de Breydenbach ص ٥٠.

(٥) صادرت الحكومة ما كان مودعًا عند غارة تيمور لنك.

شمالي باب الفتوح كان خان مخصص لإيواء المسافرين بالمجان[1] ثم خصص فيما بعد بالنظر إلى موقعه خارج السور لإيواء المصابين بالأمراض المعدية[2]. وكان خان قوصون لا يزال موجودًا في نفس الحي للتجار الوافدين من سورية فكانوا يودعونه الزيت، والسمن، والصابون، والمشروبات[3] والفستق، والجوز، واللوز، والخروب[4].

وفي خان التفاح بالقرب من مسجد المؤيد كان يعرض مختلف أنواع الفاكهة. وخان الخليل الذي احتفظ حتى أيامنا هذه بطابعه التجاري معروف تمام المعرفة لدى السياح[5].

وهذه الوكالات بقيت إلى اليوم، ولكنها في حالة يرثى لها حتى ما نراه من الوكالات الباقية من العصر التركي في حي بولاق[6] لا تقل

---

(1) المقريزي ج ٢ ص ٩٣.

(2) Quatrmère, Sultans Mamlouks ج ١ حرف ب ص ٣٦.

(3) Dibs et rubb (قارن ابن بطوطة ج ١ ص ١٨٦).

(4) المقريزي ج ٢ ص ٩٣، Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ١٢٣.

(5) انظر أيضًا وكالات قايتباي بباب النصر، وبالقرب من الأزهر، ووكالة قنصوة الغوري بالقرب من الأزهر كذلك (Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ٣١٢ و٣٢٤ و٣٥٢، Pauty, La défense de l'anc. ص ٣٢٥، Hautecoeur et Wiet, Mosquées Ville du Caire, Bull. Inst. Fr. ج ٣١ ص ١٥٣ و١٦٠). قارن Combe, Alexandrie musulmane, Bull. Soc. Roy. De geogr. d'Egypte ج ١٦ ص ١٢٩ و١٣١ و١٣٢ و١٣٤ و١٣٧ و١٤١ و١٤٣.

(6) قارن المرجع السابق للمؤلف Pauty ص ١٧٢.

سوءًا بينما كان الأوربيون في القرن الرابع عشر يعجبون بفنادق القاهرة ذات الحيطان المغشاة بالمرمر، وبالفسيفساء[١].

وكانت خانات البريد أبسط بناء، ولكنها على اتساع كاف لتخصيص محل لإقامة الصلاة، ونافورة، وأحواض للماء الصالح للشرب، وسوق صغير يعرض فيها ما يحتاج إليه المسافر فضلًا عما يلزم للموظفين، والدواب من الغذاء. ولذا كان في الإمكان تقليل ما يحمل من الزاد، والماء إلى أدنى حد. ولم تكن الحاجة ماسة إلى نقل الأدوات اللازمة لنصب الخيام. وكان من صالح التجار أنفسهم أن يؤسسوا الخانات، ولو في أبسط أشكالها كأن يبنوا قاعة مسقوفة. وقد روى سائح في أواخر القرن الرابع عشر أن التجار الذين كانوا يحملون القمح إلى أيلة لبيعه إلى الحجاج كانوا مضطرين إلى بيعه بأي سعر كان. والحق أنه لم يكن على الطريق بين القاهرة، ومكة من مأوى إلا بيدر، وينبع أي في نهاية الطريق[٢].

وفي القرن التاسع عشر عندما نشأت الملكية الخاصة تعطل نظام هذه الفنادق كأبنية مخصصة لخدمة الجمهور. ولكننا نجد في الوقت الحاضر في القرى الواقعة في المناطق التي تصعب المواصلات فيها بيوتًا

(١) Voy. de Jean Thenaud, p. V.

(٢) Dozy, Dictionnaire ج ٢ ص ٩٣.

للضيوف يقيمها العمد، ويخصصونها للموظفين عند مرورهم، وللضيوف ذوي الحيثية[١].

***

نعود إلى البريد الذي نظمه السلطان بيبرس الأول فقد حدد مراكز فيها خيول مجهزة في جميع الأوقات لتغيير خيل البريدية. وكان على البريديين ألا ينهكوا قواها[٢]. وكان في كل مركز من الزاد والعلف ما يكفي، وكانت الخيل لا تسلم إلا إلى البريد الذي يحمل تذكرة بصفته[٣]. وكان يحمل فوق هذا لوحًا من الفضة يجعله في عنقه، وفيه ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر تتدلى خلف ظهره[٤] وكانوا يوصون بالكتمان الشديد[٥]. وكان هذا البريد مخصصًا لأعمال الدولة الهامة وحدها ومع ذلك كان هناك سوء استعمال لهذه الوظائف. ويروي لنا الفقهاء من القرن

([١]) Lozach et Hug L'habitat rural ص ١٤٩.

([٢]) معيد النعم للسبكي ص ٤٧، Gaudefroy- Demombynes, La Syrie, p. LXXVIII n. 4.

([٣]) سافر السلطان بيبرس متخفيًا فسر إذ لم يستطع أن يستلم خيل البريد (Quatremère, Sultans Mamlouks ج ١ حرف ب، ٦٢- ٦٤).

([٤]) قارن القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧١، Gaudefroy- Demombynes, La Syrie, p. CXIII, 240 المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٧؛ Précis، ج ٢ ص ٢٥٣.

في الإمبراطورية المغولية "يلبس كل واحد حزامًا كبيرًا، وعريضًا معلقًا به أجراس حتى إذا مشى أمكن رؤيته على بعد" (Le Livre de Marco Polo ص ٣٣٨).

([٥]) كانت أسرار الدولة موكولة إلى الضباط المتعطشين دائمًا إلى تدبير المؤامرات، فانتزعت إدارة البريد في عصر المماليك الشراكسة من الداوادار، وهو ضابط مملوكي، وسلمت مقاليدها إلى كاتم السر، وهو موظف مدني (Mél. Henri; Basset) Wiet, Secretaires de la chancellerie; رقم ١١ Précis رقم ٢ ص ٢٤٦ و٢٤٧.

الرابع عشر أن البريد كان يستخدم لإحضار مغن مشهور إلى البلاط، أو مملوك أمرد[1].

وكان الطريق إلى غزة[2] ثابتًا لم يتغير غير أنه يتفرع عند بلبيس فيخرج طريق إلى دمياط.

وتأسس مكتب للمراقبة على الحدود السورية المصرية بقطيا، ولم يكن في الإمكان لكائن من كان أن يجتاز هذا المركز في أي اتجاه إلا إذا أبرز جوازًا، وكانت تفحص البضائع بقطيا فحصًا دقيقًا، وتؤخذ المرتبات السلطانية من التجار[3].

وكان الطريق من غزة يستمر إلى دمشق، ومنها إلى مدن سوريا الهامة حتى ينتهي عند مدينة حلب، ولكننا لا نريد أن نفصل الموضوع يما يختص بالأقاليم السورية، وإن كانت سورية في ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية المصرية. فلنقتصر إذن على القول أن رسائل البريد كانت تقطع طريق سورية– القاهرة في أربعة أيام[4]. وتمكن بعض الفرسان من قطعها في

---

(1) المرجع السابق تأليف السبكي ص ٤٦– ٤٧.

(2) انظر القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧٣– ٣٧٦، Précis ج ٢ ص ٢٥٨– ٢٥٩.

لدينا وثيقة عجيبة، وحافلة بالمعلومات من بداية عصر المماليك، وموضوع هذه الوثيقة مشروع لغزو مصر وضعه ضابط صليبي قبل سقوط عكا بقليل (١٢٩١). وهذه المذكرة المعنوية La devise des Chemins de Bablione تحتوي على معلومات وافية عن طرق الدلتا Michelant et Raynaud, Arch. De l'Or. Latin ج ٢ ص ٨٩– ١٠١.

Itinéraires à Jérusalem, P. XXXI- XXXII, 232- 252.

(3) ابن بطوطة ج ١ ص ١١٢، القلشندي ج ١٤، ص ٣٧٧.

(4) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٧.

يومين، وسبع ساعات[١] ثم في يومين فقط[٢] بل هناك حالة غير عادية لبريد قطع المسافة بين القاهرة، وحلب في خمسة أيام[٣] بينما البريد المتوسط السرعة كان يستغرق أربعة، وثلاثين يومًا منها تسعة أيام بين غزة، والقاهرة[٤].

أما البريد إلى الإسكندرية فكان هناك طريقان أحدهما عبر الصحراء، وقد تقدم وصفه، والثاني: يسير بين فرعي النيل مارًا بقليوب، ومنوف. وقد تمكن الرحالة ابن جبير أن يقطع الطريق الثاني في ثلاثة أيام ونصف يوم[٥].

ثم الطريق المحاذي للنيل إلى قوص، وهي مركز تجاري غاية في عظم الشأن، وملتقى الطرق فمنه يبتدئ طريق إلى أسوان ثم بلاد النوبة، ومنه يبتدئ الطريق إلى عيذاب، وهي ميناء على البحر الأحمر، اتخذه التجار، والحجاج على السواء، وكلا الطريقين يوصل إلى مراكز للتعدين، ومناجم من الذهب فيما بعد أسوان[٦] ومناجم من الزمرد في صحراء العرب[٧].

أما طريق عيذاب فذو شأن خطير في نظرنا؛ لأنه كان موجودًا منذ

---

(١) Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٤، ص ٤.

(٢) المقريزي طبعة فييت ص ٨٧ رقم ٥.

(٣) ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٤.

(٤) Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ حرف أ ص ٤٤– ٤٥ و٥٣ قطعها السلطان قايتباي في عشرة أيام وسط عاصفة شديدة من الريح، والمطر بين غزة، والعريش Voy. de Qaitbay ص ٣١– ٣٣.

(٥) ابن جبير ص ٤٤.

(٦) Précis ج ٢ ص ٢١٦؛ Grohmann, Papyr. ar. ص ٢٨.

(٧) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ١٠٩– ١١١، Précis ج ٢ ص ٢٨٤– ٢٨٥.

العصور القديمة فكان الطريق الذي يوصل بين قبطوس Coptos وبيرينيس Bérénice غير أن بداية هذا الطريق لم تكن ثابتة في العصر الإسلامي بل تراوحت أحيانًا بين قفط، وقوص، وأحيانًا كانت عند إدفو بل عند أسوان حتى ثبتت عند قنا حوالي القرن السادس عشر. وقد قدرت المدة اللازمة لقطع الطريق بعشرة أيام غير أن هذه المدة في الحقيقة كانت محض استثناء، فكان الزمن اللازم أطول منها بكثير[1]. وسنصف هذا الطريق عندما نتكلم عن الحج.

وكان ثم طريق آخر عبر الصحراء من قوص إلى القصير التي لم تكن لها مطلقًا من الأهمية ما كان لمياء ليكوس ليمان Leukos Limen التي حلت القصير محلها[2].

وفضلا عن طرق البريد هذه كان هناك طريق خاص يتبعه المسلمون الذين يؤدون فريضة الحج إلى الكعبة بمكة. هذا الطريق يسير عبر الصحراء في اتجاه يكاد يكون رأسيًا إلى القلزم التي يصل إليها الحاج في ثلاثة أيام[3]. فكان في إمكانه لهذا السبب أن يصل بعد عبور البحر في عشرين يوماً[4] إلى ميناء الجار، وهي ثغر المدينة.

---

(1) Heyd ج ٢ ص ٥٨– ٨٩، Maspero et Wiet, Matériaux ص ١٣١، Encyl. de l'Islam ج ٢ ص ٩٠٤– ٩٠٥.

(2) قارن J. Maspero et G. Wiet, Matériaux ص ١٤٧– ١٤٨.

(3) ابن بطوطة ج ١ ص ٢٧٧، المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٤.

(4) Nasir- i- Khusrau ص ١٢٣ و١٦٣.

ولكن لم يكن هذا الطريق مألوفًا، أو على الأصح لم يكن طريقًا رسميًا كالطريق البري الذي يقطعه الحجيج في ستة أيام للوصول إلى الحدود المصرية عند أيلة[1]. وليس بمستطاع معرفة الزمن الحقيقي للرحلة كلها ابتداءً من عاصمة الديار المصرية لاختلاف التقدير فهو يتراوح بين خمسة وعشرين، وبين أربعين يومًا[2].

وفي هذا الطريق توجه فريسكو بالدي إلى فلسطين سنة ١٣٨٤ مستخدمًا أربعة عشر جملًا غربيًا، وقال في ذلك "أن الجمال الأخرى لا تستطيع تأدية هذا الغرض لتعودها على المعيشة الطيبة فليس بالصحراء علف، والماء لا يتيسر وجوده قبل يومين، أو ثلاثة أيام[3]. غادرت القافلة القاهرة في اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر صوب المطرية، ومنها ضربت في الصحراء أربعة أيام دون أن تجد ماءً، وعلى ذلك لم تشرب الجمال غير أن الحمير الخمسة التي كانت مطايانا سقيناها من ماء القرب التي كنا نحملها. كنا اشترينا هذه الدواب من مصر، وهي تمشي مشية الخيل الصغيرة المسروجة. وفي المساء بلغنا عين موسى فسقينا جمالنا، وحميرنا، ورأينا قافلة كبيرة من العرب، والجمال المحملة

---

(1) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٣٥، Wiet, Inscr. de la Qalah Guindi. Syria ج ٣ ص ١٤٨ – ١٥٠.

(2) Nasir- i- Khusrau ص ١٢٣ و١٦٢.

(3) Nasir- i- Khusrau ص ١١٩.

ببهار الهند مقبلة نحونا"[١].

فهذا الطريق البري كان لا يمكن استعماله طول مدة الحروب الصليبية؛ لأنه كانت تهدده جنود أمارتي الكرك، والشوبك. واحتلال الفرنجة هذا لم يمنع النقل التجاري بين الشرق، والغرب عن طريق مصر، ذلك النقل الذي حاول الصليبيون الانتفاع به، ولكنه أجبر الحجاج المصريين على اتخاذ وادي النيل طريقًا للذهاب إلى البلاد المقدسة[٢].

ولا مجال هنا للدخول في تفاصيل معارك صلاح الدين ورينو دي شاتيون، وهي على كل حال معروفة جيدًا، وغاية ما يمكن أن نقول بهذا الصدد أن رينو هذا حاول الغارة على بلاد العرب، وتوغلت مراكبه في البحر الأحمر؛ لتساعده على تحقيق بغيته إذ نقل أسطوله الصغير على ظهور الجمال إلى أيلة، وكذلك نقل صلاح الدين مراكب مفككة من القاهرة لتركيبها بالقلزم[٣]. واستطاع بحارته، وعلى رأسهم رجل نشيط أن

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص XL- XLI من المقدمة التي كتبها دفريمري، وسانجونيتي Defremery et Sanguinetti.

(٢) المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٨٦.

(٣) الظاهر أن صلاح الدين هو الذي ادخل طريقة الصنع هذه (المقريزي طبعة فييت ج ٣ ص ٣٠١- ٣٠٢، Wiet, Insr. De la Qalah Guindi ص ١٤٥) وظلت مستعملة بعده (المقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ٦٦).

يستولوا على أسطول الفرنجة، وأن يستعيدوا سيطرتهم على البحر الأحمر[1].

أما طريق الجنوب الذي كان يسلكه الأفراد، والتجار قبل الحروب الصليبية فهو منذ بدئه من وادي النيل يهمنا بنوع خاص فناصر خسرو سافر من أسوان، واستغرق خمسة عشر يومًا للوصول إلى عيذاب على جمل استأجره بدينار ونصف دينار، وهو مبلغ زهيد جدًا. وصبرت الدواب سبعة أيام دون أكل، ولا شرب، وفد كتب في هذا الصدد: "كنا ننصب الخيام كل أربع وعشرين ساعة مرة عندما تصير أشعة الشمس شديدة جدًا، ونظل مقيمين حتى ساعة صلاة العصر. والمحطات التي نحط رحالنا بها محدودة معروفة لدينا إذ لا يمكن أن نقف حيثما نشاء فليس ما يصلح للوقود في كل مكان، وإنما نجمع في المحطات بعر الجمال وقودًا لطبخ طعامنا، وكأن الجمال، وهي تسرع الخطى كانت تحس بغريزتها أنها إذا أبطأت تعرضت للهلاك عطشًا.

وتنجلي هذه الحالة في مظهرها فلم تكن ثمة حاجة إلى حثها على المسير، وهي من تلقاء نفسها تتجه الاتجاه الصحيح في الصحراء، فهي، وإن لم يبد في الأفق ما يدل على الطريق تسير متجهة نحو الشرق"[2].

---

(1) راجع Wiet, Qalah Guindi ص ١٥١، Lammens, La Syrie ج ١ ص ٢٢٥-٢٢٦، Précis Gaudefroy- Demombynes, La. Syrie, p.CIV ج ٢ ص ٢٢٠- ٢٢١.

(2) Nasir- i- Khusrau ص ١٧٥- ١٧٧.

وفي عيذاب يدفع التجار رسوم الجمارك المفروضة، ونترقب ريح الجنوب للإبحار إلى جدة[1].

وقد سافر ابن جبير سالكًا نفس الطريق غير أنه كان أقل حظًا من الرحالة الفارسي إذ استغرق ثمانية عشر يومًا لقطع طريق قوص– عيذاب، واضطر هذا الحاج الأندلسي أن يقيم ثلاثة وعشرين يومًا في تلك "البلدة الملعونة" مترقبًا الرياح الصالحة غير أنه ذكر أن هذه الميناء من أكثر المواني ازدحامًا؛ "بسبب أن مراكب الهند، واليمن تحط فيها، وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة، والواردة".

وقد أمدنا ابن جبير بتفاصيل مؤلمة عن عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة. وقد كانت هذه الرحلة، تعد بالنسبة للحاج كارثة حقيقية ثم وصف كيفية صنع المراكب فقال: "والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة[2] إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن بتخيط، ويفتلون منه أمراسًا يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر

---

(1) Nasir- i- Khusran ص ١٧٨– ١٧٩.

(2) انظر في موضوع المراكب المخيطة Le Livre des merveilles de l'Inde, p. XIII والصورة المنشورة المأخوذة عن اللوحة الثالثة من الكتاب المذكور، .Tavernier, Voy en Perse طبعة كارفور Carrefour ص ٦– ٧. كانت أبله في الإمبراطورية الإسلامية مركز الصناعة الرئيسي لهذه المراكب، وأبله هي إبولوجوس القديمة Apologes (اليعقوبي ص ٣٦٠).

من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن، أو بدهن الخروع، أو بدهن القرش، وهو أحسنها"[1].

وإذا ما عدنا إلى الأقاليم الداخلية لاحظنا أن بعض الطرق يعترضها النيل، أو الترع. وعلى كل جانب يجب عبور النيل خصوصًا في الصعيد للانتقال من ضفة إلى أخرى. وكان عبور النيل في مواضع معينة بواسطة معديات[2] كانت، ولا تزال تؤدي مصلحة عامة، ويصرف من إيرادات الضرائب الخاصة بها في وجوه صيانتها. ولفظة معدية صارت علمًا على بعض الأمكنة[3] كما كان الحال في فرنسا إذ لا يزال اسم Berry- au- Bac يذكرنا بدلالته القديمة.

وكانت مصر القديمة مرتبطة بجزيرة الروضة بقنطرة، وجزيرة الروضة بشاطئ الجيزة بقنطرة أخرى، والقنطرتان مشيدتان بالقوارب، وصغراهما مكونة من ستة وثلاثين قاربًا[4].

أما الترع فكان عليها قناطر مبنية بألواح خشبية متحركة ترفع في ساعات معينة من النهار للسماح للقوارب بالمرور[1]. أما القناطر المبنية

---

(1) ابن جبير ص ٦٥– ٧٣ Nasir- i- Khusrau ص ٢٨٦– ٢٩٧، المقريزي طبعة فييت ٣ ص ٣٠١– ٣٠٢.

(2) ابن جبير ص ٤٤ من طبعة رايت وص ٤٠ من المصطلحات التي شرحها هذا الأستاذ، والمقريزي طبعة فييت ج ٤ ص ١٣ و٢٣ و٣٢١.

(3) Combe, Alexandrie musulmane ص ١١٢ و١٣٠– ١٣٢.

(4) Nasir- i- Khusrau، المقريزي ج ١ ص ٣٤٢.

بالحجر فقد كانت في مصر نادرة، وكانت تشيد على مواضع في النهر، أو الترع غير صالحة للملاحة[2] وقد نشرنا صورة قناطر أبي المنجا، وهي تقع شمالي القاهرة على بعد عشرة كيلو مترات، وأن صور السباع التي تتوج شرفتها تسمح لنا بأن نعزو بناءها إلى بيبرس الأول[3] الذي أنشأ، أو رمم بعض القناطر الحجرية[4] في سورية، وقد عنى بها من جاء بعده من السلاطين[5].

وكان استعمال المعديات، أو القناطر يستلزم في الغالب دفع ضريبة المرور، وكذلك كان على القوافل التجارية تأدية عوائد المكس قبل دخول المدن الكبرى، وليس لدينا في هذا الموضوع الاقتصادي، ولا فيما يماثله من الموضوعات بيانات إلا قليلًا مما جاء في كتب المؤرخين،

---

(1) ابن بطوطة ج ١ ص ٦٦.

(2) قارن J. Maspero et Wiet, Matériaux ص ٨٦.

(3) وشيدت هذه القنطرة، وهي من أكبر القناطر المعروفة في سنة ٦٦٥- ١٢٦٦ (Quatremère, Sultans mamlouks ج ١ ب ص ٤٤، J. Maspero et Wiet, Materiaux ص ٣٤).

(4) Clermont- Ganneau, Rec. d'archéol. or. ج ١ وص ٢٦٢- ٢٦٤ واللوحتين ١٩- ٢٠ Quatremère, Sultans mamlouks ج ١ ب ص ٢٥- ٢٦ Hautecoeur et Wiet, Mosquées ص ٧٩.

(5) قارن Voy. du Sultan Qaitbay ص ١٤، Littmann, Sem. Inscriptions ص ٢١٢، Von Oppenheim et Van Berchem, Inschr. Aus Syrien رقم ٣١، Van Berchem et Fatio, Voy. en Syrie ج ١ ص ١٠٠- ١٠١ و٢٦٠ وما يليها، Hautecoeur et Wiet, Mosquées ص ١٢٧.

وإذن لا يسعنا إلا الرجوع إلى المراسيم النادرة التي بقيت حتى اليوم، وهي مراسيم تتعلق بالإعفاء من الضرائب السالفة الذكر، فيمكننا أن نقرأ على أحد أبواب دمشق مرسومًا بإلغاء رسم سابق تحصيله من القوافل التي اتخذت طريق العراق[1] كما أننا نرى على باب النصر في القاهرة نفسها كتابة تنص على أن الضريبة الواجب جمعها هي خمسة دراهم على كل بعير.

ولكن نص الكتابة، وما فيها من لعنة المستخدمين الذين يجمعون أكثر من هذا المبلغ يفهم منه أننا لسنا أمام تعديل في قيمة الضرائب، وإنما المقصود هو التذكير بقانون قديم، وتفسيره لمنع الحيف عن دافعي الضرائب[2].

ومن الخدمات التي كان يؤديها بريد المماليك، وليست أقل إثارة للاهتمام، والعجب، ما كان متعلقًا بنقل الثلج من سورية إلى مصر لسد حاجة البلاط. وابتكار المماليك في هذه الناحية ينحصر على الأخص في ذلك النظام الإداري الدقيق غاية الدقة. غير أن المماليك لم يبتكروا بذلك نوعًا جديدًا من الرفاهية فالخليفة الأموي أمر بتصدير الثلج في كل مرة يقوم فيها البريد[3] إلى الجيش السوري الذي بعث به إلى بلاد

---

(1) Van Berchem, Inscr ar. de Syrie, Mém. Inst. Egyptien ج ٣ ص ٤٥٣.

(2) Corpus inscr. ar., Egypte ج ١ رقم ٣٥.

(3) Lammens, Yazid Ier. Mel. Faculté or. de Beyrouth ج ٥ ص ٢٣١.

العرب؛ لإخماد ثورة المدينة لا لشيء سوى إذكاء روح الشجاعة في نفوس الجند.

وفي عصر الفواطم كان بلاط الخليفة يستلم كل يوم أربعة عشر حملًا من أحمال الجمال كما كان لأغلب الضباط، وكبار الموظفين رواتب من الثلج. ولم تكن الحكومة لتبخل على من يطلب الثلج من السكان تخفيفًا عن المرضى[١].

ولكن الصليبيين[٢] كانوا السبب في إلغاء هذه الإدارة التي بلغت في عهد بيبرس الأول، ومحمد بن قلاون من سلاطين المماليك غاية الكمال. فقد كان الثلج يجمع في الجبال المحيطة ببعلبك، وطرابلس، وبيروت ثم ينقل إلى دمياط، ومنها في النيل إلى ساحة بولاق فينقل منه على البغال إلى قلعة القاهرة، فيخزن في صهريج أعد له.

وكان لنقل الثلج مراكب اختلفت عدتها باختلاف الأوقات فقد كانت حينًا ثلاثًا، وبلغت حينًا آخر إحدى عشرة مركبًا. وكانت منتظمة الرحلات فيما بين شهري إبريل، ونوفمبر من كل سنة. وكان ينقل من الثلج في البر صنف أنظف، وأنقى مما ينقل في البحر يقوم بجمعه، ويجهز معه ثلاجون خبراء بحمله، ومداراته طول الطريق، وهو خاص

---

(١) Nasir- i- Khusrau ص ١٥٨.

(٢) كان الصليبيون يستعملون الثلج بنفس الطريقة (Rey, Colonies Franques de Syrie ص ١١) ولنذكر هنا أن لفظة Sorbet مأخوذة من اللفظة العربية (شربات).

بمشروب السلطان، وكانت كل نقلة خمسة أحمال على هجن، وعدة نقلاته أو أن الثلج إحدى وسبعين نقلة. وكان للهجن منظرًا يثير دهشة السوريين[١] وكان لها مراكز مثل البريد، وتتخذ نفس الطريق فمن دمشق إلى القاهرة مارة بغزة، وبلبيس[٢].

ومهما كانت سرعة البريد الملكي فإنها لم تكن كافية لنقل الأخبار العاجلة جدًا، وعلى ذلك كانت هناك مطارات للحمام الزاجل منتظمة، وقد قال المؤرخون العرب أن بداية استعمالها كانت في أواخر القرن الثامن غير أن المصادر الصينية تدلنا على أن استخدامها يرجع إلى سنة ٦٧٣. والمظنون أن العرب، أو الهنود هم الذين ادخلوا الحمام الزاجل إلى الصين[٣].

كان الأفراد في مصر يعتنون بتربية هذا الحمام في بداية القرن التاسع، وكانت الحكومة تستخدمه في أغراضها غير أننا لا نملك من النصوص ما يؤيد ذلك. واهتم الناس بشأنه في عصر الفواطم أيضًا كما استخلصنا من حكاية غريبة مؤداها أن وزير الخليفة العزيز أرسل يومًا

---

(١) Voy. de Qaitbay ص ١٠.

(٢) قارن التعريف لابن فضل الله العمري ص ١٩٧- ١٩٩.

القلقشندي ج ١٤ ص ٣٩٦- ٣٩٧، Gaudefroy- Demombynes, La Syrie، ص ٢٥٥- ٢٥٧ الظاهري ص ١١٧- ١١٨، Van Berchem et Strzygowski, Amida ص ١١٩، Précis ج ٢ ص ٢٥٧.

(٣) Chau- Ju- Kua ص ٢٨ رقم ٢.

رسالة بالحمام إلى دمشق يأمر بتسريح بعض الحمائم إلى القاهرة بعد تعليق حبات من الكرز فيه فانطلقت مائة وعشرون حمامة صوب العاصمة فوصلت أبراجها إلا عشر منها في ثلاثة أيام، أو أربعة على أكثر تقدير[1].

أما المماليك فقد قاموا بتنظيم بريد الحمام تنظيمًا دقيقًا، فأسسوا مراكز هامة بقلعة القاهرة، وغزة، ودمشق، وحلب، ومراكز ثانوية على طول الطريق. وكان الحمام الملكي يحمل برقيته، وأقدامه علامات مميزة. وأما الرسائل فكانت تكتب على ورق من نوع خاص رقيق جدًا ثم توضع تحت إبط الحمامة، أو ذيلها[2].

وفي الجملة فإن مركز مصر الجغرافي يعين تمام التعيين دورها الاقتصادي فطرق مواصلاتها تعمل على توكيد تقدمها التجاري فتعقد العلاقات عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب، والشرق الأقصى من جهة، ومع حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق موانيها من جهة أخرى. وكان قلب الحياة النابض في شمال مصر إذ كان التبادل التجاري في أوسع حدوده قائمًا بميناء الإسكندرية.

---

(1) وقد آثرت رواية المقريزي على رواية القلقشندي الذي عجل بالحوادث، وجمعها في يوم واحد (Wiet, Notes d'épigraphie في مجلة Syria ج ٦ ص ١٧٠ رقم ٧).

(2) القلشندي ج ١٤ ص ٣٨٩- ٣٩٤، Gaudefroy- Demombynes, La Syrie ص LXXXVIII وص ٢٥٠- ٢٥٤، Quatremère, Sultans Mamlouks ج ٢ ب ص ١١٥- ١٢٠.

.....

البحث مترجم عن

L. Egypte Contemporaine (année 1933 pp 241 à 264)

قام بترجمته إلى العربية محمد وهبي ، خريج معهد الآثار العربية

تاريخ العمارة الإسلامية بمصر

نشوؤها - تطورها - واستقاؤها

الأستاذ / محمود أحمد

مدير إدارة الآثار العربية

ولد نبينا صلى الله عليه وسلم بمكة سنة ٥٧١ م، وإذا لم يكن لهذه السنة تأثير معين في الصناعات والفنون فإن هناك إجماعًا على أنها بداية ظهور قوة سماوية وأخرى عالمية بسطت سلطانها على العالم المتمدين وقتذاك في مدة لا تتجاوز المائة عام، وسرعان ما خلقت من نبوغ الأمم المقهورة طرازًا معماريًّا خاصًّا احتفظ بذاتية ظاهرة على الرغم من تعدد أصوله واختلف عن طراز عمارات تلك الأمم التي كان صناعها أداة في خلق ذلك الطراز العماري الإسلامي البديع.

وليس ببعيد أن كانت عقيدة الإسلام هي العامل القوي على تعديل الأساليب المعمارية المحلية المختلفة، وإن كان المسجد هو أهم ما تتمثل فيه تلك الأساليب التي وإن تنوعت بتنوع البقاع والمناخ إلّا أنها ظلت دائمًا وأبدًا محتفظة بمميزاتها الرئيسية.

ولقد كان لمصر – وهي موئل الآثار – قسط وافر من النهوض بالعمارة الإسلامية حفظ لها سلسلة من البنايات متصلة الحلقات منذ

الفتح العربي لمصر إلى الآن، مع تفاوت يسير يلائم كل عصر قامت فيه تلك البنايات، وفيما كشف من آثار الفسطاط – أولى آثار العرب بمصر – دلالة قاطعة على أن طراز العمارات الإسلامية بمصر يفوق من بعض الوجوه نظائره في الأقطار الأخرى كما أن بنايات القاهرة – ولاسيما المساجد – تمدنا بمستندات قيمة متواصلة عن الصناعات التي استخدمت في بنائها وزخرفها أكثر منها في بنايات أية مدينة إسلامية أخرى، وأن الزخارف البسيطة البديعة التي أخرجتها يد الصانع المصري لتظهر جلالة قدر هذا الطراز العماري العجيب وتثبت أنه أنقى شكلًا من كل ما عداه لأنه مع اقتصاره على عناصره الطبيعية فإنه يرغم الفنان على الإعجاب به، بينما نرى في معظم الطرز الإسلامية الأخرى استخدام عناصر كثيرة البهرجة ربما كانت هي ومواد البناء مأخوذة من بنايات أخرى.

ومع أن بداية تاريخ العمارة الإسلامية يجب أن تكون عقب الهجرة النبوية مباشرةً الّا أن الزمان لم يحفظ لمصر شيئًا يذكر من آثارها منذ فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ – ٢٠ هـ (٦٣٩ – ٦٤٠ م) في عهد ثاني الخلفاء الراشيدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى منتصف القرن الثالث الهجري، حيث تعاقب على مصر أكثر من مائة والٍ لم يترك واحد منهم شيئًا يذكر سوى عمرو بن العاص الذي اختط أول عاصمة إسلامية بمصر سماها "الفسطاط" وأنشأ بها جامعه المعروف (سنة ٢١ هـ ٦٤١ – ٦٤٢م)، وسوى مقياس النيل بجزيرة الروضة الذي بني سنة ٢٧٤هـ (٨٦٢ م) بأمر الخليفة المتوكل على الله العباسي.

أما بعد ذلك فآلت ولاية سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨ – ٨٦٩م) إلى أحمد بن طولون الذي كان والده من موالي الخليفة العباسي ببغداد، وهو الذي لم تمض على ولايته سنتان حتى أعلن استقلاله وأسس الدولة الطولونية التي حكت من سنة ٢٥٧هـ إلى ٢٩٢هـ (٨٧٠ – ٩٠٥م.) أي زهاء ٣٤ سنة تولى الحكم في خلالها خمسة ملوك هم: أحمد بن طولون، فابنه خمارويه، فأبو الحبيش ابن خمارويه، فهرون بن خمارويه، فشيبان بن أحمد بن طولون، غير أن تاريخ العمارة لم يصل علمنا إلَّا عن أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة ومن خلفه خمارويه، أما الأول فلأنه أنشأ عاصمة جديدة سماها (القطائع) وموقعها الآن (حي طولون) وذلك بدلًا من العاصمة التي انشأها الولاة العباسيون وهي (العسكر) التى أسسها شمالي الفسطاط أبو عون والي مصر من قبل أبي عباس السفاح سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م.).

على أن أهم ما يعنينا من منشآت ابن طولون إنما هو جامعه الذي أنشأه سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ – ٨٧٩ م) وسط عاصمته الجديدة والذي ربما كان أهم بناية في جميع أدوار العمارة الإسلامية بمصر لأنه يمثل نموذج أكبر نوع من جوامع العصور الوسطى، وهو مربع الشكل تقريبًا تحيط به من جهاته البحرية والقبلية والغربية زيادات ثلاث لم تتواجد في غيره من مساجد مصر، نعم ظهر في جامع عمرو ما يُسمى بالزيادات، لكنها كانت على صورة أخرى، وفي الجهة البحرية وجزء من الجهة الغربية.

وميزة ثانية هي الدعائم الحاملة للعقود الحدودية المدببة والمبنية كبقية أجزاء الجامع – ما عدا المنارة – من الآجر وقد حلت هذه الدعائم محل الأعمدة التي كانت تُجلب من المعابد والبنايات القديمة لهذا لا نرى في الجامع سوى أربعة أعمدة من رخام للمحراب، وفي وسط الصحن المشكوف المحاط بالإيوانات الأربعة فوارة تعلوها قبة حلت محل الفوارة اتخذت نموذجًا نسج على منواله منشئو المساجد في عهد دولتي المماليك.

وأعجبت مما تقدم مئذنته المنعزلة ذات السلم الخارجي الحلزوني المقتبسة من مآذن العراق المعروفة (بالعلوية)، وهذه المئذنة المبنية بالحجر هي أول وآخر منارة بنيت بمصر على هذا الشكل، على أننا لا ننسى أن الجزء العلوي من المنارة سقط في وقت ما؛ فجدده السلطان حسام الدين لاجين أيضًا كما صنع المنبر الحالي الذي يعد بحق طرفة فنية قليلة النظير.

أما سقف الجامع فإنه تجدد بشكله العربي القديم بعدما استعيض عن الخشب بالأسمنت المسلح الذي غلف بالخشب ودهن بطلاء أكسبه هيئة القديم، ولعل هذه أول مرة عمل فيها سقف جامع أثري بمصر بالأسمنت المسلح.

أما المحاريب الجصية المستوية – وهي غير المحراب الأصلي المجوّف – المثبتة في بعض أكتاف إيوان المحراب فجميعها من صنع

الخلفاء والفاطميين ما عدا اثنين أحدهما أنشأه السلطان لاجين على مثال المحراب المستنصري المجاور له والآخر بجدار القبلة.

ويشتمل الجامع – عدا ما تقدم – على مجموعة عديمة النظير من الشبابيك الجصية المكونة من أشكال هندسية منتظمة تحوطها إطارات محلاة بكتابات كوفية تارة، وبأشكال نباتية تارةً أخرى، هذا هو الجامع الرائع الذي خلفه لنا الأمير أحمد بن طولون.

أما ابنه وخلفه (خمارويه) فشيد قصرًا فخمًا وسط حديقة غناء قصد بهما صاحبهما أن يكونا أعجوبة الدهر؛ فأمر بطلاء جدران القصر بالذهب الخالص ورسم عليها صور محظياته بحجمهن الطبيعي، وكتب الأشعار بالأعشاب المختلفة الألوان في أرض بستانه، وكسا أجسام النخيل نحاسًا مذهبًا، وغير ذلك مما توسع المؤرخون في وصفه (١) وصفًا لا يكاد يصدق.

وقد بقي هذا القصر قائمًا إلى سنة ٢٩٣هـ (٨٠٥ – ٩٠٦ م) حيث أرسل الخليفة العباسي المتوكل قائده محمد بن سليمان فقضى على دولة الطولونيين فدمر القصر وخرَّب البستان وحرق أكثر القطائع ليمحو كل أثر طولوني، وأعاد مصر إلى حظيرة العباسيين مرة أخرى؛ فتوارد عليها ولاتهم من بغداد مدة ثلاثين سنة كانت فيها أحوالها في غاية من الارتباك والاضطراب إلى أن ولي حكمها محمد بن طفج الأخشيد سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ – ٩٣٥ م) فقبض على أزمة الحكم ثم ما لبث أن استقل بمصر وأسس الدولة الأخشيدية التي حكمت إلى سنة ٣٥٨ هـ

(٩٦٩ م) حيث سادت مصر الفوضى والفتن فأرسل إليها المعز لدين الله الفاطمي جيشًا تحت قيادة جوهر الصقلي فانتزعها من الأخشيديين الذين لم يتركوا خلفهم أثرًا فنيًّا يذكر، ومن ذلك الحين دخلت مصر في حوزة الفاطميين الذين كانوا على شذوذهم وابتداعهم من أعظم دول الإسلام ملكًا وأشدهم للعلم أزرًا وأطولهم على الناس عائدة وفضلًا وأرقاهم حضارة وأنبلهم أدبًا وتمتعًا، وهم الذين ابتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وإحداث كثير من المواسم والأعياد، وكان شغفهم بجميع التحف والذخائر النفيسة مما لم يسمع بمثله عند غيرهم من الأمم الإسلامية، وقد تفوقوا في العلوم الآلية والفنون الجميلة فازدهرت على أيديهم جميع أنواع الصناعات وكانت لهم دور كتب عديدة أشهرها دار الحكمة التي كان موضعها غربي جامع برقوق بالنحاسين، كذلك أنشأوا القصور والبساتين والمناظر على ضفاف النيل وحوالي القاهرة.

وكانت أولى أعمال جوهر لما عبر النيل بجيشه من الجيزة إلى الفسطاط في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ هـ – ٨٧١ م أن سار إلى المناخ الذي اختاره مولاه المعز موضعًا للقاهرة فاستقر هناك، واختط القصر كما اختطت كل قبيلة من قبائل جيشه خطة عرفت بها كزويلة والبرقية والروم، وأحاطها بسور منيع يصد عنه هجمات القرامطة عليه، غير أن هذه البنايات دثرت فلم تترك خلفها إلّا بضع قطع من أبواب وأخشاب منقوش عليها صور حياتهم العامة من مناظر صيد ومجالس أنس وانشراح، ثم مجموعة من الخزف البالغ حد الاتقان وكلها مودعة دار الآثار العربية.

أما البنايات الدينية فقد أبقت لها الأيام على طرائف عمارية سامية القدر أهمها الجامع الأزهر فجامع الحاكم فجامع السلطان الصالح طلائع بن رزيك فغير ذلك من البنايات التي لا يتسع المجال لوصفها.

الجامع الأزهر

هو أول جامع بني بالقاهرة فرغ القائد جوهر من بنائه سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ – ٩٧٢ م)، وكان الغرض من بنائه في أول الأمر.

١– أن يكون مسجدًا جامعًا للعاصمة الجديدة أسوةً بالجامع الطولوني بالقطائع وبجامع بالفسطاط.

٢– أن يكون معهدًا لفئة معينة من الطلاب المتأثرين بالدعاية الفاطمية يتلقون فيه أصول المذهب الشيعي – مذهب الفاطميين – على أساتذة شيعيين حتى إذا أتم هؤلاء الطلاب دراستهم كانوا بدورهم أساتذة لسواهم يتعاونون جميعًا على نشر تعليم هذا المذهب بين طبقات الشعب المصري الذي كان حينذاك شديد التمسك بمذهب أهل السنة.

هذه هي الغاية الأساسية من تلك الدروس عاشت طوال مدة الحكم الفاطمي، وماتت بزوال ذلك الحكم على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)، وكان نصيب الجامع الأزهر من هذه الحركة إبطال الخطبة والتدريس فيه حوالي مائة عام إلى أن دالت دولة الأيوبيين وقامت دولة المماليك البحرية، واعتلى عرش مصر السلطان

الظاهر بيبرس فاستقبل الجامع عهدًا جديدًا عهد انتعاش فنمو فازدهار فثراء ما لبث بعده أن صار أشهر جامع بين جوامع الإسلام بل وأعظم معهد تقصده الوفود من جميع أنحاء العالم الإسلامي لتلقي العلم الذي أمرهم دينهم الحنيف بطلبه هذا إلى أنه أكبر معهد ديني تقصده الوفود من جميع الأقطار الإسلامية جمع كل طوائف المسلمين في مركزه المبارك فتراهم مؤتلفين جميعًا مع تفرق أجناسهم واختلاف أوطانهم، وعلى هذه الصفة أصبح الجامع الأزهر مجتمعًا ثانيًا للمسلمين يجتمعون فيه أعوامًا بينما هم يجتمعون في موقف الحج أيامًا معدودات من كل عام.

وطالما وقف الأزهر رابضًا أمام إغراء المتفقهين من كتاب وأعلام الأعجام؛ فكانت رسالته دائمًا رسالة الإسلام، وها هي صفحات التاريخ ترينا أن أثر الأزهر تغلغل في الحياة المصرية واتصل بجميع حركات الفكر التي قامت بمصر واستعانت بسلطانه فتصدر زعامتها المصرية في كفاحه السياسي والديني والاجتماعي، وتزعم شيوخ الأزهر المصريون لأن هؤلاء كانوا يستروحونه الشعور الديني وكانت تتمثل في خلفهم وإرشادهم تلك القوى الحية التي نماها الإسلام وقواها، وما عهد نابليون ومحمد على إلّا من أواخر الشواهد على ذلك.

نعود إلى وصف الجامع الأزهر فنقول: أنه أول ما بني كان مسطحة يقرب من نصف مسطحه الحالي ثم ما لبث أن اضيفت إليه بنايات أخرى في أزمنة مختلفة حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن، وأول ما يقابل الداخل إليه من الناحية البحرية – ناحية ميدان الأزهر – بابان

متجاوران يعرفان ببابي المزينتين أنشأهما الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٦هـ (١٧٥٣ – ١٧٥٤ م) وهما يؤديان إلى مجاز محصور بين مدرستين إحداهما اليسرى (الشرقية) تعرف باسم "المدرسة الأقبغاوية" نسبةً إلى منشئها الأمير "أقبغا عبد الواحد" سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) وبها الآن دار كتب الأزهر، ومحرابها من أبدع محاريب القاهرة، والمدرسة الثانية هي "المدرسة الطيبرسية" نسبة إلى منشئها الأمير طيبرس العلائي سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وهي مستعملة كملحق للمكتبة وبها محراب جُمع رخامه على نظام خاص، وقد أصلح وجهتها الأمير عبد الرحمن كتخدا السابق الذكر إلّا أنه احتفظ بشبابيكها المكونة من أشكال هندسية صنعت من النحاس المصبوب الذي لم يستخدم إلّا في بضعة آثار أخرى. وينتهي المجاز من الناحية القبلية بباب تجاوره منارة، وكلاهما من إنشاء السلطان قايتباي سنة ٨٧٣ هـ (١٤٥٨ م) وفيهما بلغت صناعة الزخرف في الحجر غاية الإبداع.

هذا إلى أن المفهوم حتى الآن أن هذا الباب حل محل الباب الأصلي للجامع وقتما أنشأه جوهر ومنه تصل إلى صحن مكشوف تحيط به أروقة أربعة محمولة وجهاتها على عقود فارسية الطراز، وفي وسط الجنب الشرقي للصحن، وفي مقابل باب قايتباي قبة محمولة على أعمدة وأكتاف محلاة من الداخل بزخارف وكتابات كوفية، وفي بعض جوانبها شبابيك جصية مجمعة على أشكال هندسية، وفيما بين هذه القبة وبين المحراب القديم (Transepi) سقف مرتفع عن باقي سطح الجامع ويكتنفه صفان من الأعمدة الرخامية الحاملة لعقود على سطحها زخارف

وكتابات كوفية باقية من عهد إنشاء الجامع ومثلها الزخارف الجصية التي كشفتها إدارة حفظ الآثار العربية بالمحراب المذكور الذي كان موضوعًا في جدار هو بلا شك الجدار القبلي للجامع والذي لا يزال جزءه الغربي باقيًا إلى الآن، وعلى سطحه بعض النوافذ والزخارف الجصية الأصلية، أما الجزء المرتفع الكائن خلف هذا الجدار حتى الجدار القبلي الحالي فهو من إنشاء عبد الرحمن كتخدا أيضًا صاحب المدفن الكائن غربي هذا الجدار داخل باب الصعايدة، كذلك توجد في الجهة القبلية الشرقية للجامع المدرسة الجوهرية التي أنشأها جوهر القنقبائي سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وهي من أظرف عمارات القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فزاوية العميان المنشأة سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) فمدفن صغير.

وإذا ما انتهى الزائر من زيارة داخل الجامع وأزمع الخروج إلى ميدان الأزهر يرى وهو واقف في الصحن منارة عالية على يسار منارة قايتباي تكاد تكون عديمة النظير بين منارات مصر؛ فبدنها العلوي مكون من ست عشرة ضلعًا بينما أضلاع غيرها لا يتجاوز الثماني عدًّا وهو في الوقت ذاته مطعم بالقاشاني الجميل، وتنتهي المنارة برأسين بدل رأس واحدة ولم يسبقها إلى ذلك سوى منارة مدرسة السلطان أبي النصر جانبلاط [1] التي أنشأها تجاه باب النصر حوالي سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ – ١٥٠٠ م)، ثم منارتان أخريان بناهما الأمير قايتباي السيفي أميراخور سنة ٩٠٨هـ – ٩١١ هـ (١٥٠٢ – ١٥٠٥ م)

[1] – الجبرتي جـ ٣ – ص ١٥٩ وابن اياس – جـ ٤ ص ٧و٨ وأيضًا شذرات الذهب جـ ٨ ص ٢٨.

هذه المنارة هي منارة السلطان الغوري آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة بناها سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م).

جامع الحاكم

أمر ببنائه العزيز بالله نزار ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر سنة ٣٨٠ هـ (٩١١ م) ولم يكتمل إلّا في عهد ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ - (١٠١٢ – ١٠١٣ م) والناظر إلى هذا الجامع كما بني يرى شبهًا بينه وبين الجامع الطولوني إذ أن كليهما مبني بالآجر ما عدا المآذن فهي من حجر، وعقودهما المدببة محمولة على أكتاف مستطيلة في أركانها أشباه أعمدة، وكل من صحنيها محاط بألونة أربعة أكبرها إيوان المحراب وسقفاهما من خشب، ورغم هذا التشابه فإن الجامع الحاكمي يتفوق على الجامع الطولوني من نواحٍ أخرى فعلى طرفي جدار المحراب أقيمت قبتان تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب، بينما الجامع الطولوني ليس فيه إلّا قبة واحدة فوق المحراب، كذلك أقيمت على الواجهة الغربية للجامع منارتان يتوسطهما الباب العمومي، بينما الجامع الطولوني ليس به إلّا منارة واحدة منعزلة، أما شرفاته المبنية بالطوب حول الصحن فمفرغة بكيفية لا مثيل لها في جوامع القاهرة، ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية في الكتابة الكوفية في الإزار الجصي تحت السقف، وفي بدنتي المنارتين وفيما بقي من الشبابيك برقبة القبة التي تعلو المحراب والشبابيك الجصية بجدار المحراب، وهذا الجامع ككثير غيره عدا عليه الدهر فألحق به أضرارًا متعددة في أوقات مختلفة أشدها زلزال سنة

٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) الذي دمر كثيرًا من العقود والأكتاف وأسقط السقف وقمتي المئذنتين، فندب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمير بيبرس الجاشنكير لإصلاحه؛ فأصلحه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ – ١٣٠٤م) ثم عملت بعد ذلك إصلاحات ثانوية إلى أن كانت سنة (١١٢٣ هـ – ١٨٠٨ م) حيث قام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف بمصر فجدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقي وجعلها مسجدًا للصلاة ثم كسا القبلة بالرخام ووضع بجوارها منبرًا، غير أن الجامع ما لبث أن تخرب فاستخدمه ديوان الأوقاف مخزنًا عامًا لأدوات المساجد، كما بنيت فيه عدة حجرات عملت متحفًا للآثار العربية إلى أن أنشئت دار الآثار الحالية سنة ١٩٠٣ فنقلت إليها وحلت محلها مدرسة السلحدار الابتدائية.

وقد لفتت لجنة حفظ الآثار العربية نظر وزارة الأوقاف إلى ضرورة إخلاء الجامع مما فيه من أدوات ليتسنى إصلاحه تدريجيًا.

أبواب القاهرة

لم يبق من أبواب القاهرة سوى ثلاثة أبواب هي: باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة؛ فالباب الأول كان موضعه عند زاوية القاصد بشارع باب النصر ثم نقل إلى موضعه الحالي عند ما جدده بدر الجمالي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) كما يستدل على ذلك من الكتابات التي تعلو الباب، وفي عهد الاحتلال الفرنسي لمصر سنة ١٢٠٢ – ١٢١٦ هـ) (١٧٨٩ – ١٧٠١ م) أقام الفرنسيون بعض أبنية في أعلى الباب كما

كتبوا أسماء بعض القواد على الأبواب العليا.

ويتصل باب النصر بطريقين أحدهما على ظهر السور والآخر تحته وهو ممر معقود بالحجر بكيفية تعطي فكرة عن نظام الحصون في ذلك العهد.

والباب الثاني باب الفتوح كان موضعه عند ما بناه جوهر الصقلي بالقرب من رأس حارة بين السيارج، ثم جدده بدر الجمالي في موضعه الحالي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ومما يسترعي النظر في هذا الباب الكوابيل التي في أعلى المدخل على شكل كبش بقرنيه، وهذا هو النموذج الوحيد في الآثار الإسلامية بمصر.

والباب الثالث – باب زويلة – أنشأه أيضًا بدر الجمالي سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)، ولما شرع الملك المؤيد شيخ المحمودي في بناء جامعه المجاور لهذا الباب سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) انتهز مهندسه فرصة وجود بدنتي الباب فهدم أعلاهما وأقام منارتي الجامع عليهما، وعلى ذكر أعمال بدر الجمالي نشير إلى ظهور عنصر جديد في العمارة الإسلامية هو العقد المسمى (بالفارسي) الذي يُرى في الجامع الاقمر بشارع النحاسيين وفي العقود المحيطة بصحن الجامع الأزهر وغيره، أي بعد ظهوره اولًا في تربة الجمالي حوالي سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م.).

وتلا ظهور العقد الفارسي ظهور عنصر جديد آخر هو طراز كامل للمآذن التي احتفظت بشكلها الأصلي إلى الآن، وأول مئذنة من هذا القبيل هي مئذنة الجامع العمري بإسنا الذي أنشأه بدر الجمالي سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) فمئذنة جامع الجيوشي الذي أنشأه الأفضل

شاهنشاه سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤م).

نعم إن منارة الجامع الطولوني أقدم عهدًا من هاتين المئذنتين إلّا أنه علاوة على وجود نزاع حول طرازها، وهل هي المئذنة الأصلية للجامع فإن جزءها العلوي جدده السلطان لاجين المنصوري سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) كذلك مئذنتا الجامع الحاكمي، وإن بنيتا بالحجر سنة ٣٨٠ هـ ٤٠٣ (٩٩٠ – ١٠١٢ م) إلّا أن جزأيهما العلويين جددهما الأمير بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٢ م)

وفي أوائل القرن السادس الهجري (الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) حدث تطور عماري آخر بأن بدئ بإحلال الحجر مكان الآجر في جهات المساجد، فكان الجامع الأقمر الكائن بشارع النحاسين، والذي أمر بإنشائه الخليفة الآمر الفاطمي سنة ٥١٩ هـ (١١٩٥ م) أول جامع بنيت واجهاته بالحجر المنحوت، وفي هذه الوجهات استعمل المقرنص لأول مرة أيضًا، أما قبل الجامع الأقمر فلم يستعمل الحجر إلّا في مدخل الجامع الحاكمي مع كونه استعمل في مئذنتيه وفي مئذنة الجامع الطولوني وفي بئر مقياس النيل بجزيرة الروضة.

جامع الصالح طلائع بن رزيك

هذا الجامع كائن على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان وتجاه زاوية السلطان فرج بن برقوق المنشأة سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله؛ فكان آخر وأجمل جامع أنشئ في عهد الدولة

الفاطمية، وواجهته الغربية الفاطمية لا نظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها، ويزيد في جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة، وبالجامع بقايا زخارف جصية مشحونة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد، أما منبر الجامع الأصلي فغير موجود وأما منبره الحالي فهو للأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩هـ – (١٢٩٩م) وهو كزميله منبر الجامع الطولوني تحفة فنية قليلة النظير على أن عدم وجود المنبر الأصلي لا يحول دون شعورنا بقيمته الفنية إذا نحن استعرضنا منبرًا آخر بالجامع العمري الذي أنشأه هذا الوزير بمدينة قوص.

ذلك المنبر يعد مفخرة من مفاجر صناعة التجارة في العهد الفاطمي مع أنه مسجد في مدينة لا تكاد تذكر بجانب القاهرة، فما بالنا بمنبر صنع لأظرف جامع بالعاصمة، وفي دار الآثار العربية شاهد يؤيد رأينا هذا هو باب ذو مصراعين وجهه مصفح بألواح من نحاس مثبت فوقه قطع مخرمة ومرتبة على هيئة أشكال هندسية يغلب على الظن أنها عملت في عهد الجوكندار صاحب المنبر الحالي. أما ظهره فعبارة عن حشوات من خشب مجمعة ومحلاة بزخارف نباتية حسنة التنسيق يرجع عهدها إلى زمن إنشاء الجامع وهذا الباب كان مركبًا على أحد أبواب الجامع

هذا والمعروف في تاريخ العمارة الإسلامية بمصر أن هذا الباب أقدم ما وجد من نوعه من الأبواب المصفحة بالنحاس. وليس هذا كل ما خلَّفه الفاطميون من بنايات القاهرة بل هناك آثار أخرى لا تخلو من

أهمية فنية لا يسع المقام وصفها، واتمامًا للفائدة نأتي هنا على أسماء الخلفاء الفاطميين بمصر.

أسماء الخلفاء	تاريخ هجري	تاريخ ميلادي	أسماء الخلفاء	تاريخ هجري	تاريخ ميلادي
المعز لدين الله بن المنصور	٣٥٨	٨٦٨- ٩	الآمر بأحكام الله	٤٩٥	١١٠١-٢
العزيز بالله بن المعز	٣٦٥	٩٧٥-٦	الحافظ لدين الله	٥٢٤	١١٢٩- ٣٠
الحاكم بأمر الله	٣٦٨	٩٩٦	الظافر	٥٤٤	١٤٤٩
الظاهر لإعزاز دين الله	٤٤١	١٠٢٠	الفائز	٥٤٩	١١٥٤
المستنصر بالله	٤٢١	١٠٣٥	العاضد	٥٥٥	١١٦٠
المستعلي	٤٨٧	١٠٩٤			

وهذا الخليفة الأخير بقي في دست الخلافة إلى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) حيث قامت دولة بني أيوب.

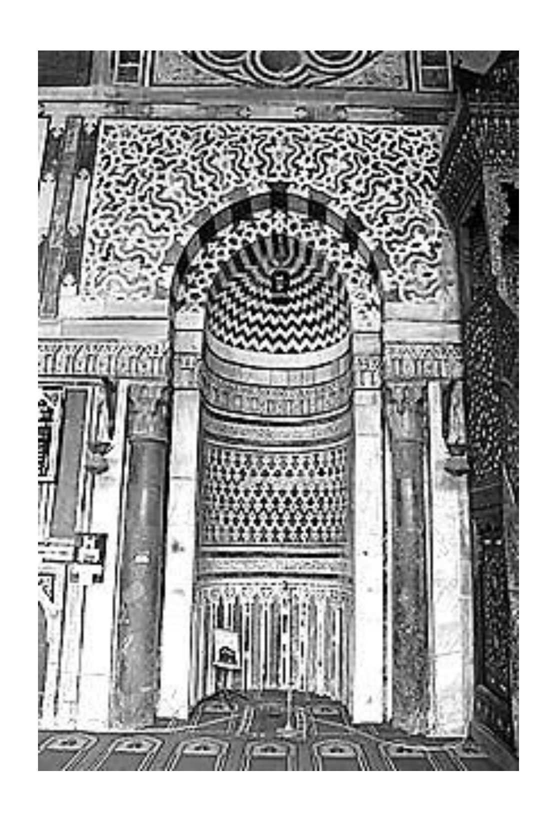
الدولة الأيوبية

(٥٧٦ - ٦٤٨هـ) (١١٧١ - ١٢٥٠م)

زالت دولة الفاطميين بموت الخليفة العاضد، فدخلت مصر في حيازة الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان أول من تلقب (بالسلطان) في مصر. كانت أيامه وأيام خلفائه كلها جهاد وفتح كللها غالبًا بالانتصار الباهر على الصليبيين؛ فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوروبا على الشرق أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعودتها بشكل آخر، ولولا وقوف الدولة الأيوبية في وجه أوروبا المسيحية (المتعصبة في ذلك الوقت) لانقرض الإسلام في جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمال أفريقية كما انقرض من الأندلس.



الفسقية بصحن مسجد السلطان حسن



محراب مسجد المؤيد

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الحروب الصليبية أدت فيما بعد إلى إيجاد صلة بين الشرق وبين الغرب أحدثت أثرًا واضحًا في الأبنية الإسلامية لم يظهر دفعة واحدة بل كان بدء ظهوره بالشام ذلك أن الصليبين حيث حلت أقدامهم كانوا يشيدون البنايات العظيمة على طريقتهم الغربية؛ فتعلم مهندسو الشرق أشكالًا جديدة، وهم وإن لم يقتدوا تمامًا بهذا الطراز المغاير لطرزهم إلّا أنهم قدروه قدره حين رأوها قريبة الانطباق والاتفاق مع طرقهم العمارية.

ولما كان عهد هذه الدولة –كما ذكرنا – عهد حروب متواصلة مع الصليبيين فإن سلاطينهم لم يتركوا مساجد بمصر بل حصروا همهم في البنايات العسكرية فأنشأوا القلعة والسور حولها، وفي سبيل ذلك أكملوا سور القاهرة الذي بناه الجمالي أما فيما عدا ذلك فقد أنشأوا عدة مدارس بمصر والقاهرة لم يبق منها الآن سوى جزء من المدرسة الكاملية المنشأة سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥ م) والمدارس الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين سنة ٦٤١ هـ (١٢٤١ م) وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة، ومن تخطيط هذه المدارس اقتبس المماليك تخطيط مدارسهم ذات الأيونات الأربعة، كذلك لا يفوتنا أن نذكر أن ضريح الإمام الشافعي إنما تجدد في عهد السلطان الكامل، وها نحن آتون على موجز تاريخ هذه الآثار الأيوبية مبتدئين بقلعة الجبل.

قلعة الجبل

لما اعتزم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بناء هذه القلعة لاتخاذها معقلًا له من مكايد مشايعي الفاطميين، عهد في بنائها إلى وزيره الطواشي بهاء الدين قراقوش (صاحب المثل المشهور) فبدأ العمل فيها سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) كذلك أمر صلاح الدين ببناء سور يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط (مصر القديمة الآن) إلّا أنه مات قبل أن يكمل بناء القلعة والسور فأوقف العمل فيهما إلى أن تولى حكم مصر الملك الكامل بن الملك العادل فأكمل بناء القلعة سنة ٦٠٤ هـ

(١٢٠٧ – ١٢٠٨ م)[1] وأنشأ بها قصورًا وزاد في مساحتها وأحاط الزيادة بسور أقل مقاسًا من سورها الأول ثم اتخذها مقرًّا لملكه إلى أن توفى فاستمرت من بعده مركزًأ للحكم ومقرًّا للسلطنة.

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، ملك مصر أنشأ بها برجًا كبيرًا وقصرًا فخمًا لولده السعيد، كذلك أنشأ بها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مقعدًا عظيمًا بقى إلى سنة ٧١١ هـ (١٣١٢ م) حيث أمر أخوه السلطان الناصر محمد بهدم بعض أجزائه كما أمر ببناء برج كبير لا تزال آثاره باقية خلف جامع محمد علي باشا، وفي سنة ٧٦١ هـ – (١٣٥٩ – ١٣٦٠م) أنشأ السلطان حسن قصرًا أسماه البيسرية، وفي سنة ٧٩١ هـ – (١٣٨٨ – ١٣٠٩م) جدد السلطان الظاهر برقوق سور القلعة، وهناك الآن بقايا مقعد بناه السلطان قايتباي، وحوالي سنة ١١٦٠هـ (١٧٤٧م) أنشأ الأمير رضوان كتخدا الألفي باب العزب المشرف على ميدان صلاح الدين، ولما تولى المغفور له محمد علي باشا حكم مصر جانبًا كبيرًا من سورها وأبراجها وأبوابها وأنشأ الجامع وسراي الجوهرة والعدل ودار الضرب ودار المحفوظات، وفي سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) جدد الخديو إسماعيل باشا الأسوار.

---

[1] – أما المقريزي ج ٢ – ص ٢٠٣ فيقول أن الذي أتم بناء القلعة سنة ٦٠٤ هـ هو الملك الكامل محمد بن الملك العادل وهو غير صحيح لأن الملك الكامل لم يتول ملك مصر إلا ابتداء من سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).

بئر يوسف (الحلزون)

هذه البئر كائنة في الجهة القبلية الشرقية لجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة، ويرجع تاريخ بنائها إلى وقت بناء القلعة، وهي مكونة من طبقتين إحداهما فوق الأخرى لكل منهما ساقية ترفع المياه بواسطة الدواب، أما عمق الطابق الأول من مستوى أرض القلعة إلى قاعه فهو ٥٠,٣٠ مترًا وأما عمق الطابق الثاني وهو البئر فهو ٤٠,٣٠ مترًا.. هذا ولا تزال السواقي بمعداتها باقية إلى الآن.

ضريح الإمام الشافعي

لما تعطلت شعائر المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا، وأنشأ مكانها مسجدًا عظيمًا سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢ – ١٧٦٣م) وبقي على حاله إلى أن جدده الخديوي توفيق باشا سنة ١٨٩١ – ١٨٩٢م.

أما القبة فقد أنشأها السلطان صلاح الدين هي والمدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢ هـ – (١١٧٦م) وفي سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) أي في عهد صلاح الدين أيضًا كان الفراغ من عمل التابوت الخشب فوق تربة الشافعي، وهذا التابوت من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة نقشًا غاية في الإبداع والاتقان ولا نظير له بين التوابيت الأخرى ومكتوب عليه اسم صانعه (عبيد النجار المعروف بابن معالي)، وفي سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) توفيت والدة الملك الكامل فدفنت بالقبة التي بعد ما جددها الملك المذكور ووضع على قبر والدته تابوتًا آخر من

خشب بديع الصنع وركّب على باب القبة مصراعين من خشب غاية في الإبداع..

وهناك أيضًا بمسجد الإمام الليث مصراعان أصلهما من قبة الشافعي وعليهما اسمه، ثم عملت بعد ذلك إصلاحات بالقبة أهمها عمارة السلطان قايتباي سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) وتلاه السلطان الغوري فالأمير علي بك الكبير سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢ م) فالمغفور له محمد علي باشا سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ – ١٨١٥ م) وبعد ذلك عملت بها ترميمات مختلفة إلى أن تولت إصلاحها إدارة حفظ الآثار العربية.

المدارس الصالحية وتربة الصالح نجم الدين بشارع بين القصرين

أقام الملك الصالح نجم الدين هذه البنايات على جزء من أرض القصر الشرقي الفاطمي، وكان البدء في بناء المدارس سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) والفراغ منه في سنة ٦٤١ هـ، وقد خصصت لتدريس المذاهب الأربعة، وهذه أول مرة يتقرر فيها ذلك في مدرسة واحدة، ومنذ سنة ٦٤٨ هـ، (١٢٥٠ م) اتخذت المدرسة مقرًّا لنواب العدل (محكمة شرعية) للفصل في القضايا والمظالم.

وتبلغ مساحة هذه المدارس نحو ستة آلاف مترا وطول وجهتها حوالي مائة مترا يتوسطها الباب العمومي الذي تعلوه المنارة ويتوصل منه إلى مجاز يشق المدارس شطرين أحدهما قبلي والآخر بحري تخلف منه الآن الإيوان الغربي الملاصق للتربة، أما الشطر القبلي فلم يبق منه سوى وجهته – وقد كان للدهليز باب من خشب نقل إلى دار الآثار العربية،

وهناك سقف عربي جميل أسفل قاعدة المنارة ينبئ هو والباب بما كانت عليه نجارة المدرسة من رقي عظيم.

أما التربة فقد أنشأتها الملكة شجرة الدر ليدفن فيها سيدها وزوجها الملك الصالح نجم الدين لأنه لما توفى وهو في حصار المنصورة في شعبان سنة ٦٤٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) أخفت موته وحملت جثته في سفينة إلى النيل وبقيت في إحدى حجر قلعة الروضة إلى أن أتمت بناء هذه القبة ونقلت الجثة إليها سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) وبهذه التربة مميزات عمارية كثيرة أهمها النجارة بالأبواب والشبابيك النحاسية المفرغة، وهي أقدم نموذج من نوعها والتابوت الخشب يدلّ عن جمال الصناعة ودقتها وكذلك رخام المحراب فإنه أقدم نموذج بقي بمحاريب القاهرة وبطاقية المحراب بقايا فسيفساء مذهبة تعتبر أقدم ما عثر عليه في الآثار العربية بمصر، وفيما يلي بيان عن سلاطين هذه الدولة.

الاسم التاريخ الهجري الميلادي	الاسم التاريخ الهجري الميلادي
صلاح الدين يوسف بن ٥٦٧ ١٧٧٠ – ٢ أيوب	العادل بن الكامل ٦٣٥ ١٢٣٧ – ٨
العزيز عثمان بن صلاح الدين ٥٨٩ – ١١٩٣	الصالح أيوب بن الكامل ٨٣٨ – ١٢٤٠ – ١
العادل بن أيوب ٥٩٥– ١١٩٨ – ٩	المعظم توران شاه ٦٤٧ – ١٢٤٩
الكامل بن العادل ٦١٥ – ١٢١٨	

دولة المماليك البحرية

من سنة ٦٤٨ إلى ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ - ١٣٨٢م)

سقطت دولة بني أيوب لأسباب عدة أهمها:

١- تقاسيم صلاح الدين العظيمة التي افتتحها بين أولاده واخوته وأقاربه فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتعدي بعضهم على بعض فتفككت عصبتهم.

٢- العهد بالملك إلى الصغار منهم مما أوجب إقامة أوصياء عليهم من أقوياء رؤساء الجند والوزراء.

٣- الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية أنصارًا وأعوانًا ونزولهم عن كل شيء في الدولة حتى تدبير القصر وتغاليهم في جلب هؤلاء وهجر الأكراد أصول الدولة والعرب اهل البلاد.

وكانت النتيجة أن وصل هؤلاء المماليك في آخر أيام الدولة الأيوبية إلى درجة عظيمة من البأس فلما أغضبهم توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين قتلوه واستولوا هم على الملك فبقي في أيديهم نحو مائة وثلاثين عامًا وعددهم ٣٤ سلطانًا أولهم شجرة الدر فالسلطان عز الدين أيبك التركماني وآخرهم الصالح حاجي بن شعبان، وهؤلاء السلاطين كانوا أرقاء يجلبون من أسواق الجركس ومنغوليا والقوقاز إلى مصر ليباعوا إلى الحكام والأمراء الذين كانوا يدربونهم على القتال

ويتخذونهم حرسًا لهم، وكان المماليك ينالون في الغالب قسطًا كبيرًا من التعليم فكانوا يربون في مدارس الحرب ومعاهد العلم، وكانوا في حداثة سنهم ينبغون أحيانًا في الفلسفة والفقه والعلوم وفي الفروسية واستعمال الأسلحة فيصيرون جديرين بالمناصب السامية وولاية الأمور، على أن الحال لم تكن دائمًا كما ذكرنا فقد ظهر من بين السلاطين من لم يستطع كتابة اسمه، ومن بين هؤلاء من استمسك باستعمال لغته التركية أو الجركسية.

وهناك صفة أخرى اختص بها المماليك، وهي عدم عنايتهم بالوراثة فكان المملوك المحبوب يخلف سيده على العرش وأحيانًا يسمي نفسه (ابن سيده)، وفي أغلب الأحيان كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخلعه أتابكة أو أمير آخر يكون قد تآمر عليه، ولم نر واحدًا منهم استمر التاج في بيته كالمنصور قلاوون إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده سنين عدة، وكان التاج في الغالب يؤول إلى أقوى الأمراء نفوذًا وأسوأهم مكرًا بل أحيانًا إلى أقساهم وأكثرهم خروجًا على النظام، ومن أكبر أسباب تعلقهم بمواليهم الثروات الكبيرة التي استحوذ عليها الأمراء انتزاعًا من أيدي الناس والإقطاعيات العظيمة التي وهبتها إياهم الحكومة والقصور الباذخة التي أقاموها لأنفسهم، وإن بقيت هذه الأشياء كلها في أيديهم مدة فهو بقاء ليس له ثبوت إذ ربما عصفت بها عواصف ثورات تلك الأيام فأخرجتها من أيدي مالكيها.

وباعتبار طائفة المماليك طائفة نجد أن ما كمن في نفوسها من الخيانة لا يحتاج إلى استدلال وإن ظهر من بينها حكام معتدلون يقدرون الشرف ويعظمون الدين ويعملون على تثبيته، إذ نجد منهم من حبس الأموال على الخيرات وبنى المدارس والكليات والملاجئ للأيتام، ومنهم من خلف وراءه آثارًا من عصره في المباني الجميلة التي لا تزال تزدان بها مدينة القاهرة، والتي سنأتي يومًا على وصف موجز لها، ولكن أكثرية المماليك وخاصة في أيامهم الأخيرة كانت متعسفة عظيمة الخيانة وكثيرة المظالم يعذبون الناس بالجلد والكي ولا يرعون في إراقة دمائهم، رغبة في التخلص من شرورهم وللحصول على أموالهم بدون جرم آتوه.

هذا هو حال المماليك، وهذه عاداتهم بسطناها بإيجاز، أما سلاطينهم الأربعة والعشرون فهم:

الاسم	التاريخ هجري ميلادي	الاسم	التاريخ هجري ميلادي
شجرة الدر امرأة الصالح أيوب	٦٤٨ – ١٢٥٠	الناصر محمد بن قلاوون (للثالثة)	٧٠٩ – ١٣٠٩
المعز أيبك	٦٤٨– ١٢٥٠	المنصور أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١– ١٣٤٠
المنصور علي بن أيبك	٦٥٥– ١٢٥٧	الأشرف كوجه بن الناصر محمد	٧٤٢ – ١٣٤١
المظفر قطز	٦٥٧ – ١٢٥٨	الناصر أحمد بن الناصر محمد	٧٤٢– ١٣٤١
بيبرس الأول البندقداري	٦٥٨ –١٢٤٩ – ٦٠	الصالح إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ – ١٣٤٢
السعيد بركة بن بيبرس	٦٧٦–١٢٧٧	الكامل شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦– ١٣٤٥

العادل سلامش بن بيبرس ٦٧٨-١٢٧٩	المظفر حاجي بن الناصر محمد ٧٤٧ – ١٣٤٦
المنصور قلاوون ٦٧٨ -١٢٧٩	الناصر حسن بن الناصر محمد ٧٤٨- ١٣٤٧
الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨١-١٢٩٠	الصالح صالح بن الناصر محمد ٧٥٢ – ١٣٥١
الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣- ١٢٩٣ – ٤	الناصر حسن للمرة الثانية ٧٥٥ -١٣٥٤
العادل متبغا ٦٩٤ ١٢٩٤ – ٥	المنصور محمد بن الحاج ٧٦٢ – ١٣٦٠ – ٦١
المنصور لاجين ٦٩٦- ١٢٦٩ – ٧	الأشرف شعبان بن حسين ٧٦٤- ١٣٦٢ – ٦٣
الناصر محمد (للمرة الثانية) ٦٩٨- ١٢٩٨- ٩	الصالح حاجي بن شعبان ٧٨٣- ١٣٨١
بيبرس الثاني (الجاشنكير) ٧٠٨ – ١٣٠٨	

وبين هؤلاء الأربعة والعشرين سلطانًا أربعة نالوا بجدارة واستحقاق لقب (سلاطين البناء العظام) وسطر لهم تاريخ العمارة هذا اللقب بحروف بارزة من ذهب مصفى، وكان آخر هؤلاء الأربعة شاب لابد وأن بناء مدرسته العظيمة تحت القلعة راجعًا إلى علو همة أمرائه الذين تعاونوا هم وغيرهم من بعض أمراء السلاطين الآخرين مع أسيادهم على النهوض بفن العمارة فظهرت في عهدهم بنايات قيمة واستقر طراز وجهات المساجد والمدارس في عهد الناصر محمد بن قلاوون على نظام ثابت.

ومن أواخر حكم الأيوبيين إلى منتصف حكم المماليك البحرية ازدادت صناعة الجص ازدهارًا يشهد بذلك الطراز المخلف من المدرسة

الكاملية والمحفوظ الآن بدار الآثار العربية، وما يشاهد في مدفن مصطفى باشا المنشأ قبل سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) والخانقاه البندقدارية المنشأة سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ورباط أحمد بن سليمان المنشأ سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وضريح زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ – ٧٢٥ هـ (١٢٩٧ – ١٣٤٢ م) ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٥ – ٧٠٣ هـ (١٢٩٥ – ١٣٠٣ م) وطراز مدرسة السلطان حسن ٧٥٧ – ٧١٤ هـ (١٣٥٦ – ١٣٦٢م)

كذلك الرخام فإن صناعته تماشت في الرقي مع الجص جنبًا إلى جنب، ولا سيما في المحاريب حيث حل الرخام محل الجص. ومثلهما النجارة ولا سيما الأبواب المكسوة بالنحاس المزخرف والمطعم بالذهب والفضة والسقوف بنقوشها الجميلة المموهة بالذهب..

أما القبة فقد تغير شكلها حيث ارتفعت رقبتها واتخذ انحناؤها شكلًا خاصًا أدى إلى تسميتها بالقبة القاهرية، كما تحولت مادة بنائها من الآجر إلى الحجر ابتداءً من سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) حيث بنيت بالمدرسة الجاولية قبة صغيرة، ثم تلتها قبة المظفر التي بنيت سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) وأكثر من هذا ظهور رقاب بعض قباب هذا العصر مغلفة بالقاشاني الملون المكتوب وأول ما ظهر من هذا النوع قبة طغاي أم انوك المنشأة حوالي سنة ٧٤٠ هـ (١٢٣٩ – ٤٠م) ثم قبة أصلم السلحدار المنشأة سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م).

وأما المآذن فكان لها نصيب من هذا التطور فمن منارة قلاوون التي انحرفت قليلًا عن المنارات الأيوبية إلى مئذنة علي البقلي المنشأة قبل سنة ٦٩٦ هـ (١٣٩٦ م) ثم إلى مئذنة بيبرس الجاشنكير المنشأة سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ – ١٣٠٩ م) والتي كانت أول مئذنة كسيت قمتها بالقاشاني، نعود إلى سلاطين البناء الأربعة العظام فنقول:

كان أولهم السلطان الظاهر ركن الدنيا والدين: بيبرس البندقداري الصالحي المعروف اليوم باسم (الظاهر) أو (بيبرس) فقط أو (بيبرس الأول) وإليه ينسب أحد أحياء القاهرة المعروف (بحي الظاهر) الآن، كان موطن أجداد هذا البطل العظيم بالقرب من جبال الأورال وكان هو مملوكًا للصالح نجم الدين الأيوبي ترقى حتى اعتلى عرش مصر فكان في حروب مستمرة مع المغول الذين بلغوا في وقت ما ضواحي مدينة غزة ثم مع الفرنج الذين تخطوا شواطئ فلسطين، ومع بلاد النوبة، وفي أوج مجده امتد ملكه إلى ما وراء حدود مصر وسوريا وبلاد العرب حكم من سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ – ١٢٧٧م) فجعل القاهرة أكثر من أن تكون عاصمة إمبراطورية إسلامية بأن نصَّب خليفة عباسيًا أقام بالقلعة إقامة البابا في روما، ثم عقد معاهدات مع حكام صقلية وإسبانيا وبيزنطة وغيرهم من حكام الشرق القادرين، وهذا هو السر في مشاهدة تأثير هذه الممالك المختلفة تأثيرًا ظاهرًا في عماراته؛ ففي القاهرة لا تزال له بقية مدرسة أنشأها سنة ٦٦٠ – ٦٦٤ هـ (١٢٦١ – ١٢٦٣ م) بجوار تربة سيده الصالح نجم الدين بشارع بين القصرين، وقد هدمت بسبب فتح شارع بيت القاضي سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) كذلك بنى في

شمال القاهرة قناطر أبي المنجا، وبنى قنطرة مثلها بالقرب من محطة اللد على خط القنطرة – فلسطين، وفي عهده بني مدفن مصطفى باشا حاكم اليمن بشارع القادرية، وكذلك مساجد أخرى بناها في حلب وبصرى ودمشق والرملة.

على أن الذي يهمنا من عماراته أكثر من سواه هو جامعه العظيم الكائن بميدان الظاهر، والذي كان البدء في بنائه سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) واستعمل في عمارته أخشابًا ورخامًا جيء بها من قلعة يافا بعدما دمر هذه المدينة هي وأنطاكيا سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) حتى صارتا أطلالًا بالية، وفي هذه السنة كمل بناء القبة التي تعلو المحراب ثم كملت بقية أجزاء الجامع في شوال سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ – ٦٩ م) وقد بلغ طوله ١٠٨ أمتار وعرضه ١٠٥ أمتار، ويتكون من صحن يحيط به أربعة إيوانات القبلي منها مكون من ستة أروقة وكل من الإيوانين: الشرقي والغربي ثلاثة أروقة والإيوان البحري رواقان، وعقوده المشرفة على الصحن محمولة على أكتاف ومثلها عقود الرواق الثالث من الإيوان القبلي، أما بقية عقود الجامع فمحمولة على أعمدة من رخام، وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر، أما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر، والقبة الكائنة أعلى المحراب مربعة طول ضلعها عشرون مترًا بنيت على مثال قبة الإمام الشافعي، وهي أكبر قبة أقيمت فوق المحراب لكن هذه القبة امتازت على نظيراتها في المساجد الأخرى بأنها حملت على حجرة بدلًا من حملها على دعائم أو أعمدة، ويخيل إلينا أن هذه الحجرة حلت محل المقصورة التي ابتدعها معاوية بن أبي سفيان حرصًا على حياته

بعدما رأى من حوادث الاغتيال التي أصابت أقرانه في أوقات الصلاة، وتبع العباسيون معاوية في إنشاء المقاصير، ومن ثم شاع استعمالها في جميع الأقطار الإسلامية.

وهناك ميزة عمارية أخرى هي الأبراج الأربعة القائمة فوق نواصي الجامع ثم الدعائم القائمة خارج واجهته الشرقية والغربية لمقاومة الدفع الأفقي لعقود حبال الطارات، والمناورة كانت تعلو الباب البحري إلّا أن الفرنسيين هدموها أثناء احتلالهم مصر كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات أخرى بالقاهرة، وأبوابه الثلاثة البارزة محلاة بنقوش جميلة، وهي ثاني نموذج للأبواب البارزة بعد باب جامع الحاكم، وفيها استعملت مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي لأول مرة، كذلك كان الجامع من الداخل حافلًا بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزرات والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية والكتابات الكوفية المحيطة بها والمخلف منها قسم كبير بجوار القبلة كل هذه تدل دلالة واضحة على ما كان عليه الجامع من فخامة وبهاء.

وممن عني بهذا الجامع وأصلحه الملك الظاهر جقمق الذي ولي ملك مصر سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨م) وفي عهد الاحتلال الفرنسي لمصر جعل هذا الجامع قلعة واتخذت منارته برجًا ونصبت المدافع على أسواره وسكنته طائفة من الجنود الفرنسية، فكان ذلك سببًا في تخربه.. أضف إلى هذا سوء تصرف ناظر وقفه الذي باع كثيرًا من أنقاضه، ثم أمر المغفور له محمد علي باشا بعمله مصنعًا للصابون، وفي هذا الوقت

اعتدى عليه الشيخ الشرقاوي فأخذ من عمده وأنقاضه ما أدخله في عمارة رواق الشراقوة بالأزهر، كذلك استعمله الجيش البريطاني مذبحًا إلى أن سعت لجنة حفظ الآثار العربية في تسلمه فتم ذلك سنة ١٩١٨ ثم أنشأت مصلحة التنظيم في صحنه حديقة.

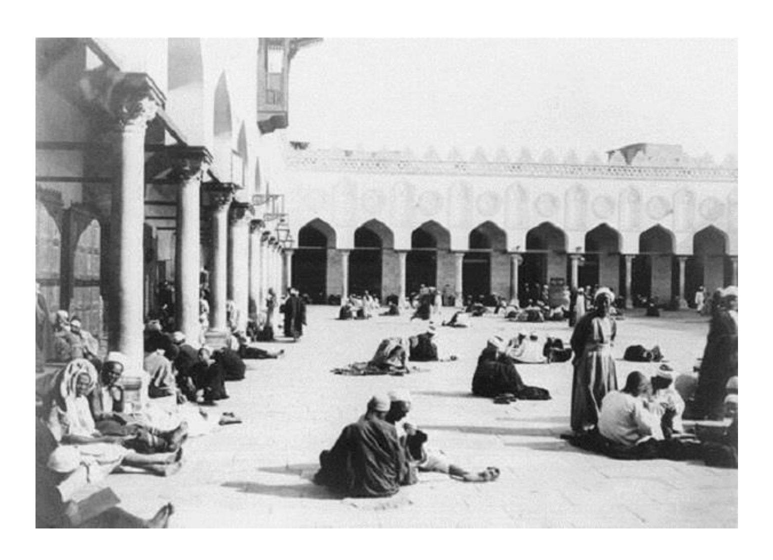
ومما هو جدير بالذكر أن هذا المسجد هو الجامع الأكبر الوحيد الذي بُني في عهد المماليك البحرية ولم يبن بعده إلّا مسجد جامع واحد سنذكره في حينه. هذا وإدارة حفظ الآثار العربية جادة في إصلاح بقاياه داخلًا وخارجًا

السلطان السعيد والسلطان قلاوون

مات بيبرس أشهر سلاطين المماليك البحرية بعدما نظم أمور الدولة وأصلح الجيوش وأنشأ الأساطيل فكان بوضع انظمته الملكية الثابتة المؤسس الحقيقي لدولتي المماليك اللتين استمرتا ٢٦٧ سنة. ومما لا شك فيه أنه كان يتطلع إلى حصر وراثة العرش في أسرته، ولذلك أعلن قبل وفاته ببضع سنين أن ابنه سعيد أكبر أنجاله هو خلفه على عرش مصر، وقبل مماته بعام زوج ولي عهده هذا من إحدى بنات قلاوون راجيًا من ذلك الزواج أن يكون هذا الأمير عضدًا لابنه في إدارة شؤون البلاد.

اعتلى السعيد هذا عرش مصر بعد وفاة أبيه، وكان شابًّا غرًّا طائشًا فلم يمض على قبضه صولجان الملك بضعة أسابيع حتى سمَّ كبير وزراء أبيه وزج بغيره من ضباطه في غيابات السجون ثم أخذ ينقاد لآراء صغار

مماليكه فتباعد عنه كبار الأمراء وأخذوا يحذرون نكايته وأخيرًا ائتمروا به وعلى رأسهم قلاوون وانتهى الأمر بتنازله عن العرش بعد حكم يزيد على السنتين قليلًا وتولية أخيه سيف الدين سلامش الملك.



داخل الجامع الأزهر



واجهة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين



حوش بيت السحيمي

بعد ذلك استدعى قلاوون أكبر الأمراء ليتولى مقاليد الأمور باعتبار أنه وصي على سلامش الصغير، ولكن قلاوون لم يلبث أن خلعه من الملك وتبوأ هو عرش مصر، وهو الذي نعتبره ثاني سلاطين البناء، أما نشأته فكما يأتي:

جلب هذا السلطان صغيرًا فاشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي بألف دينار، ولهذا لقب "بالألفي"، وبعد موت هذا الأمير آل قلاوون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فصار من جملة مماليكه ثم ترقى في المناصب حتى صار أتابك المعسكر في أيام العادل سيف الدين سلامش السالف الذكر إلى أن خلعه وتبوأ هو عرش مصر في رجب سنة ٦٧٨هـ (يناير سنة ١٢٧٦م) وتلقب بـ "الملك المنصور سيف الدين أبي المعالي" فثار عليه الأمير

سيف الدين سنقر الأشقر بدمشق وتسلطن ولقب نفسه بالملك الكامل فسيَّر عليه السلطان قلاوون حملة هزمته واستردت دمشق منه، وقد حارب التتار والفرنج وبلاد النوبة مرارًا وأنشأ مدينة (طرابلس الشام) بعدما دمر طرابلس القديمة.

كذلك حافظ قلاوون على العلاقة الودية بينه وبين (أمير قبجاق) الذي اعتنق الإسلام كما صادق (بومند) ملك طرابلس لأنه كان يخشى عودة التتار إلى الإغارة على حلب، وتبودلت الرسائل الودية بينه وبين ملك (سرنديب: سيلان) وعقد أواصر بين مصر والقسطنطينية وكثير من حكومات أوروبا، ثم عقد في أواخر حكمه معاهدة تجارية مع جنوى، وكذلك أبرم شبه معاهدة دفاعية بينه وبين "قشتالة" و"صقلية" وأخيرًا مرض فمات بالريدانية خارج القاهرة في سادس ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) وعمره نحو السبعين سنة ودفن بقبته الآتي ذكرها، وقد ترك وراءه من الذرية ثلاثة ذكور وابنتين، وفي آخر أيامه تزوَّج من إحدى بنات أمير من المغول كان قد حضر إلى مصر كغيره هاربًا من بلاده فولدت له ابنه الناصر ثالث سلاطين البناء، ولعل هذه الوالدة هي صاحبة القبتين السلطانيتين (بقرافة السيوطي).

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية الأثرية فقد اقتصر عمل قلاوون العماري على مجموعة و"تربة"، غير أن العرف جرى بإطلاق اسم "المارستان" على البناية بأكملها.

سبب إنشاء المارستان

تطاول الفرنج على أملاك السلطنة المصرية بآسيا فعبثوا ببعض المدن والثغور الشامية والفلسطينية وتملكوها ردحًا من الزمن فلم يسع "السلطان المعظم ملك الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين بيبرس الأول" إلّا مقابلة الشر بالشر فجرَّد سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) حملة قوية قادها فريق من الأمراء البواسل، وكان السلطان قلاوون أحدهم فأبلى بلاءً حسنًا حتى انتزع وزملاؤه النصر من أيدي خصومهم وحفظوا لمصر سمعتها واستبقوا لها عظمتها كإمبراطورية عظيمة قابضة بإحدى يديها على زمام القوة في نصف الكرة الأرضية الشرقي والأخرى على مفتاح السياسة في الناحية الأخرى.

مرض الأمير القائد قلاوون الألفي حينذاك مرضًا شديدًا أدى إلى معالجته بأدوية جلبت له من مستشفى نور الدين محمود زنكي بدمشق عاصمة الأمويين، فنذر إلى الله إن هو أبلَّ من مرضه ليبنينّ بالقاهرة مارستانًا يحاكي – إن لم يفق – مستشفى دمشق فكان أن استجاب الله دعاءه فتبوأ عرش مصر وعند ذاك فكر في الوفاء بنذره.

موقع المارستان: هذا المارستان كائن بشارع بين القصرين أمام تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب فمدرسة ملكية وحمية الظاهر بيبرس فشارع بيت القاضي المؤدي إلى قسم بوليس الجمالية، وقد أقيم مستشفى قلاوون الحالي للرمد على جانب من أرض المستشفى الذي

نحن بصدده، والذي كان موضع القسم الأعظم منه دار الأميرة مؤنسة القبطية الأيوبية فاستولى السلطان قلاوون عليها وعوَّضها منها بقصر الزمرد برحبة باب العيد[1] مع مبلغ من المال حمل إليها.

ومن غريب الحوادث أن يكون آل قلاوون مصدر قلق مستمر لهذه الأميرة الجليلة فإنها بعد أن تركت دارها هذه لقلاوون لجعلها مارستانًا واستقرت في قصرها الجديد قصر الزمرد، إذا بالأميرة تتر الحجازية حفيدة قلاون وابنة ابنه الناصر محمد تستولي على هذا القصر الأخير لتنشئ مكانه قصرًا لها ومدرسة تعرف اليوم باسم "مدرسة تتر الحجازية" وفي هذا التحول يتجلى تداول الانتقام، فإن الدار القبطية هذه التي استولى عليها قلاوون كانت في الأصل دارًا للأميرة ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمي، ثم آلت بعد زوال الدولة الفاطمية إلى الأمير فخر الدين جهاركس فإلى الأمير عز الدين موسك صاحب (قنطرة الموسكي) وقريب السلطان صلاح الدين يوسف فإلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر أيوب وبسببه سميت الدار (القبطية) ثم آلت من بعده إلى ابنته الأميرة "مؤنسة" وهنا انتقلت من أيدي الأيوبيين إلى أيدي سلاطين المماليك البحرية كما انتزعها الأيوبيون من أيدي الفاطميين.

---

[1] – هذه الرحبة يشغل موضعها الآني جزءًا من مباني قصر الشوك عند تفرعه من شارع حبس الرحبة (قسم الجمالية)

وهنا نتساءل عن سبب اختيار تلك الدار لتكون مارستانًا مع أن موقعها غير صحي بالقياس إلى مواقع أخرى حولها أصلح منها لإقامة مستشفى عليها، وهل كانت هناك دار أخرى غير دار الأميرة مؤنسة تصلح لهذا الغرض إذا فرض وكان المقصود إقامة المارستان وسط القاهرة لاشك أن هناك مواقع ودورًا أخرى صالحة لكننا نظن أن هذه الدار كانت مقصودة بالذات لا انتقامًا من صاحبتها بل لغرض آخر في نفس قلاوون؛ فقد كان هو والسلطان الظاهر بيبرس مملوكين للسلطان الصالح نجم الدين الأيوبي، وجاء بيبرس فبنى مدرسته الظاهرية لصق تربة سيده الصالح فلم يسع قلاوون إلَّا مناظرة بيبرس وبناء مارستانه أمام تربة الصالح ومدرسة الظاهر منافسًا لهما، ولم يكتف بذلك بل أقام الدليل الساطع على وفائه لسيده واعترافه بفضله عليه بأن هدم القلعة التي كان بناها الصالح نجم الدين بجزيرة الروضة وأخذ من أعمدتها الضخمة ورخامها البديع ما شاء وأدخله في عمارة المارستان ثم جاء من بعده ابنه الناصر محمد – وكان مولعًا بالعمائر – فاقتفى أثر أبيه، وتبعهما السلطان برقوق فأخذ لمدرسته بشارع بين القصرين ما تبقى من الأعمدة الجرانيت الضخمة، سامح الله الجميع.

المارستان من الناحية التاريخية

لما أبل قلاون من مرضه ركب حتى شاهد مارستان الشهيد فأعجب به فلما ولي السلطنة فكر في الوفاء بنذره فاتخذ الدار القبطية مكانًا له كما ذكرنا وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أمر عمارته فأخرج

النساء من الدار القبطية من غير مهملة وأخذ ثلاثمائة أسيرا وجمع صناع القاهرة ومصر وأمرهم بأن يعملوا جميعًا في الدار القبطية وحدها دون غيرها وشدد عليهم في ذلك فهابوه ولازموا العمل وكان يقف بنفسه على الأساقيل حتى لا يتوانوا ولم يكتف بهذا بل أوقف مماليكه بشارع بين القصرين فكانوا إذا مرّ بهم أحد – مهما عظم قدره – ألزموه أن ينقل حجرًا إلى محل العمل حتى اضطر الناس إلى اجتناب المرور من هذا الشارع.

وبعد الفراغ من بناء المارستان قال السلطان قلاون: (إني بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ممن هو مثلي أو دوني للغني والفقير للحر والعبد للذكور والإناث).

وقد جاء هذا المارستان بدعة من بدائع الأبنية ومن أشهر المارستانات في القرون الوسطى لم يبنَ قبله بمصر الإسلامية سوى خمسة مارستانات آخرها الذي بناه بالقاهرة السلطان صلاح الدين يوسف، ويؤخذ مما رواه المؤرخون عن مارستان قلاوون أنه كان مكونًا من جملة أجنحة يختص كل جناح منها بمرض من الأمراض، وأنه كان هناك هيئة طبية منظمة وغرفة للمطالعة ومعامل كيميائية وصيدلية وحمامات ومطبخ وبوجه عام جميع معدات المستشفيات المعروفة وقتذاك وكانت هناك جوقة موسيقية تخفف آلام المرضى وتهوّن عليهم ساعات التأوه الطويلة، وبجانب ذلك عدد من القراء يتلون من القرآن ما فيه سلوى وتهوين للشدة وكان هناك أمين للمكتبة يساعده أتباعه على مناولة الكتب

الطبية الدينية وغيرها لمن يرغب في المطالعة وفوق هذا وذاك فقد كان هناك مكتب لتعليم عدد من اليتامى.

تاريخ إنشاء المارستان

يؤخذ من الكتابات المنقوشة على بعض أعتاب الأبواب وعلى الجدران – أن تحويل الدار إلى مارستان ثم إنشاء القبة والمدرسة استغرق ثلاثة عشر شهرًا بدايتها ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ (يونية سنة ١٢٨٤ م) ونهايتها جمادى الأولى سنة ٦٨٤ هـ (يوليه سنة ١٢٨٥ م).

وأن القبة بنيت في نحو خمسة شهور، وأن البدء في بناء المدرسة كان بعد الفراغ من بناء القبة وأن بناءها استغرق نحو أربعة شهور، وتلك حقًّا معجزة المعجزات التي تشهد للأمير علم الدين بالبطش والإقدام.

المارستان من الناحية الفنية

إذا لم يكن للسلطان قلاوون من العمارات سوى هذه المجموعة النفيسة لكفى لأنها على أعظم جانب من خطر الشأن المعماري، نعم أن بالقاهرة نحو ستمائة أثر، لكن إذا سألني أحد رأيي في أي هذه الآثار أولى بالزيارة فإني لا أتردد في القول بوجوب البدء بالجامع الطولوني فالجامع الأزهر فمارستان قلاوون.

إن الواقف أمام هذه البناية الجليلة يرى الواجهة العمومية قسمين الأول وهو القبلي واجهة المدرسة والثاني وهو البحري المرتد واجهة

التربة تعلوها القبة ومن مجموعها يرى منظر من أروع مناظر العمارات الإسلامية بالقاهرة تعيد إلى الأذهان قناطرها المقوسة المحمولة على أعمدة ذكرى العمائر الصليبية ذكرى كنيسة القبر المقدس في بيت المقدس إذا لم نقل رؤية المعابد القوطية بمدينة جنوى أما الشبابيك المفتوحة في حنايا هذه الواجهة فحافلة بالرسوم الهندسية الفاخرة وبمنطق الوجهة بأكملها طراز مشحون بآيات قرانية وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء.

وفي الطرف البحري لهذه الواجهة المنارة المكونة من ثلاثة أدوار الأسفل والأوسط مربعان والثالث الأعلى مستدير متوج بكرنيش مصري الطرز، وهو أحدث عهدًا من سابقيه لأن الزلزال الذي حدث في سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) وخرب معظم مساجد القاهرة والفسطاط أسقط هذا الدور فجدده سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ – ١٣٠٤ م) السلطان الناصر محمد وأثبت هذا التجديد على وثيقة مثبتة قاعدة المنارة هذا مضمونها: (بسم الله الرحمن الرحيم.. اللهم جدد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله أمر بتجديد هذه المئذنة في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد، وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام).

هذا وبين جزأي الواجهة والباب العمومي المؤدي إلى دهليز طويل باب يؤدي إلى المدرسة والقبة، وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز يدخل من أولهما إليها مباشرة، ومن الثاني إلى البهو الذي أمامها.

ومما لا خلاف فيه أن إصلاح هذه القبة كان من أنجح الأعمال التي قام بها مهندسو حفظ الآثار العربية لأنها أضحت من الداخل محتفظة برونق يقارب ما كانت عليه في عهد بنيانها فهناك أكتاف أربعة عظيمة مكسوّة بالرخام الملون من أسفلها، ويتوسط هذه الأكتاف أربعة أزواج من الأعمدة الزلطية الضخمة ذات التيجان المذهبة تحمل ثمانية عقود تحمل رقبة القبة التي تغطي التربة، والسقف حولها عربي الطراز مزوق بالذهب والأصباغ ولا شك أن ترتيب هذه الحوامل لا نظير له بمصر إلّا أنه مقتبس من ترتيب قبة الصخرة بالقدس الشريف والجدران مكسوة بالرخام "الخردة" الدقيق، والمحراب مكون من ثلاث حطات مزدانة بالفسيفساء العجيب على مثال محراب المسجد الأموي بدمشق – وقتذاك على ما يقال – من أرضية القبة إلى قمتها لا ترى إلَّا ألوانًا زاهيًا وتذهيبًا براقًا وزجاجًا بالشبابيك ملونًا بأصباغ متألقة، وكل هذا ينبئك بالجمال القوطي وبالذوق السلجوقي في شمال سوريا.

ولما زار هذه القبة المرحوم الدكتور آرنست فوكس من أكبر أطباء العيون في العالم سنة ١٩٢٤ قال: "إن زخارفها وحسن انسجامها وتنسيقها وتوزيع النور فيها ترتاح له النفس والنظر عند الزيارة، وليست القاعة الكائنة غربي القبة بأقل جاذبية من القبة نفسها حتى بعدما

طمست نافورتها المتوسطة واختفى معظم زخارفها، ولا شيء أدعى إلى الإعجاب من الزخارف الجصية الهندسية المورقة المصنوعة باليد حول مدخل القبة، وأمام القبة والقاعة المدرسة ذات البابين، وقد أعيد إصلاح ليوانها الشرقي أما الألونة الأخرى فستصلح في الوقت المناسب.

وفي النهاية الغربية للدهليز باب المارستان الذي لم يبق منه غير قسم من القاعة الشرقية به فسقية بديعة من الرخام ثم بعض أجزاء من القاعتين الغربية والقبلية.

***

مات قلاوون فخلفه ابنه "الأشرف خليل" وكان شجاعًا مقدامًا عادلًا في الرعية قاسي القلب على من يتوهم له في الملك؛ ففتك بكثير منهم فكان ذلك سببًا في اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين.

ومن نوادره الطريفة أنه لما فتح عكّا سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ – ١٢٩٢ م) ودمَّر حصونها ومعابدها حسن إليه أن ينقل باب إحدى الكنائس إلى القاهرة فنقلها إلى مصر غنيمة شاهدة له بالنصر على الصليبيين، وها نحن اليوم نشهد هذا الباب الكنسي بطرازه القوطي مركبًا على مدخل مدرسة أخيه الناصر محمد المجاورة لمارستان أبيهما قلاوون.

وبعد قتل الأشرف خليل انتخب أخوه الناصر محمد أصغر أبناء قلاوون سلطانًا لمصر بإجماع الآراء، وكان إذ ذاك في التاسعة من عمره

ثم خلع للمرة الأولى في سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤ – ١٢٩٥م) وخلفه السلطان كتبغا فالملك المنصور حسام الدين لاجين فالناصر محمد للمرة الثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ولخلاف بينه وبين الأمراء انتخب بيبرس الجاشنكير أو "بيبرس الثاني" سلطانًا، وكان أصلًا مملوكًا للسلطان قلاوون والذي يهمنا من أمره هي تلك "الخانقاه" الجميلة التي أنشأها بشارع الجمالية تجاه "الدرب الأصفر" وسنعود إليها قريبًا.

وقد كان بيبرس الجاشنكير سيء الحظ منحوس الطالع مكروهًا من جميع الأمراء حكام سوريا الذين كان ضلعهم مع الناصر؛ فآل أمره في النهاية إلى السجن فالموت خنقًا، وعاد الناصر محمد إلى العرش للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ – ١٣١٠ م) فبقي إلى أن مات سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ – ١٣٤١ م) وبلغت مدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة أشهر.

وكان الناصر يعنى بشئون البلاد الداخلية فضبط الموازين والمقاييس ووحد الأثمان في أوقات الشدة وألغى كثيرًا من الضرائب الضارة بالفقراء من الرعية واستعاض منها زيادة الضرائب على كبار الموسرين ثم منع شرب الخمر وتشدد في حفظ الآداب وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف.

وقد شيد هو وأمراء دولته من المباني الفخمة ما لا يدخل تحت حصر، وعادت النهضة التي امتاز بها عصره بأحسن النتائج على

الصناعة، ومع كثرة التنوع الناشئة من غزارة مادة الأشكال ظهرت وحدة في وضع الواجهات وشمل القواعد والأصول التي ورثناها عن الزمن السابق فغدت سطوح هذه الوجهات تتخذ فيها مجموعة من الحنايا العالية القليلة الغور يراها الناظر فوق الجدران كأنها صفوف أعدت لأن تتخذ فيها الشبابيك صفوفًا، وفي نهاية هذه الحنيات غطاء أفقي من مداميك المفرنصات، ويُرى الباب من الشكل ذاته غير أن الحنية فيه أكثر اتساعًا وأبعد غورًا، وترتب على هذا الوضع أن كثرة استعمال المقرنصات والتفنن فيها، وهذا الوصف الوجيز يجيز لنا إلقاء نظرة عامة على بعض البنايات الشهيرة التي أنشئت في عهد الناصر محمد، وهي مدرسة الناصر محمد بالنحاسين – المدرسة الجاولية – خانقاه بيبرس الجاشنكير – تربة حسن صدقة – مسجد السلطان الناصر محمد بالقلعة – سراي بشتاك – جامع المارداني.

مدرسة الناصر محمد بشارع بين القصرين

هذه المدرسة ملاصقة لقبة السلطان قلاوون بدأ بإنشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا سنة ٦٩٤ هـ وارتفع بناؤها حتى الطرز المذهب بالواجهة، فلما أعيد السلطان محمد إلى الحكم للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ – ١٢٩٩ م) اشترى هذه المدرسة وأكمل بناءها وأنشأ بها قبة جميلة دفنت فيها والدته، ثم أبنه "آنوك" الذي توفي سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م)

ومما يسترعي النظر في هذه المدرسة الواجهة المزينة بالزخارف والكتابات الكثيرة، والمنارة فوق الباب، وهي مغشاة بالزخارف، وبطلت الشعائر الدينية فيها سوى الإيوان الشرقي وبمحرابه الجصي النادر والإيوان الغربي، وبه شباك من الجص غاية في الدقة.. ولما توفي الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ دفن بتربة أبيه المنصور قلاوون.

مسجد سلار وسنجر الجاوي

هذا المسجد مبني فوق رابية عالية تعرف بـ "الكبش" ويتوصل إلى بابه العمومي البحري من شارع مراسينة (المرسين)، وتاريخ بناء هذا المسجد مكتوب على عتب هذا الباب، وهو سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣ – ١٣٠٤م)، وهناك في الجهة القبلية الشرقية باب آخر مقرنصه جميل يؤدي إلى نواحي قلعة الكبش وبالوقوف على رأس السلم المبتدئ من دركاة الباب البحري ترى ثلاث فتحات أحداهما تؤدي إلى المسجد والثانية إلى المنارة والثالثة إلى طرقة.

أما المصلى فأبواب خلاوية تعلوها نوافذ صغيرة مغطاة بشقق من حجر مفرغ تفريغًا هندسيًّا، ويلي المصلى من الجهة الغربية فضاء مكشوف – ربما كان في الأصل صحنًا – ولا تزال آثار زخارف جصية باقية على بعض جدرانه.

وأما المنارة الشبيهة بالمبخرة فإن قاعدتها المربعة مبنية بالحجر وباقيها مبني بالطوب على مثال المنارات الأقدم منها، كمنارتي جامع

الحاكم، ومنارة المدارس الصالحية، ومبخرة زاوية الهنود بالتبانة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وهي في الواقع طرفة فنية قليلة النظير جاء جمال منظرها متمًا لجمال واجهة المسجد.

وأما الطرفة فإنها تفصل الصحن المكشوف عن تربتي سنجر وسلار، وهي مسقوفة بقبوات الصلبة، وعلى فتحات جانبها القبلي ركبت شقق من حجر مستطيلة الشكل وجوهها محلاة من الداخل والخارج بزخارف مورقة متنوعة لا نظير لها في أثر آخر، وفي النهاية الغربية تربة لمن يدعى "عبد الله الزاكر" تعلوها قبة صغيرة بأركانها مقرنص غريب الشكل، وهذه التربة على ما أعلم هي أقدم القباب المبنية بالحجر أما قبلها فكل القباب كانت تبنى بالآجر.

كذلك على الجانب البحري للطرفة تربتان إحداهما الشرقية للأمير سلار التتري الجنس الذي أسر في حرب بين الملك الظاهر بيبرس وبين التتار؛ فاشتراه السلطان قلاوون، وترقى في خدمته حتى صار من أعيان مماليكه وظل يترقى حتى صار نائبًا للسلطنة في عهد السلطان الناصر محمد؛ فأثرى وتمكن من الدولة، وأخيرًا اعتقله هذا السلطان وقطع عنه الزاد فمات جوعًا. ومن بدائع الفن في قبة سلار محرابها الرخام والأفاريز المكتوبة أعلاها وبقايا حشوات التابوت التي بلغت أيمتها غاية الدقة. والتربة الثانية للأمير علم الدين سنجر الجاولي الذي ولد بآمد سنة ٦٥٢ هـ (١٢٤٥ م) فاشتراه أمير اسمه جاول فنسب إليه ثم التحق بخدمة

السلطان ثم بابنه الناصر محمد إلى أن مات سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) وهذه التربة أقل من سابقتها فخامة من الداخل.

هذا ولا يسع الواقف أمام الوجهة البحرية إلّا الإعجاب ببراعة مهندس هذا المسجد الذي عبر عن أغراض سنجر وسلار تعبيرًا فنيًّا دقيقًا بأن بنى فوق تربتهما قبتين متماثلتين شكلًا وزخرفًا متفاوتتين قدرًا وعلوًّا، واختص كبراهما بسلار وصغراهما بسنجر كذلك قسم جزء الواجهة الكائن على يمين المنارة إلى قسمين جعل منهما وجهتين للقبتين متماثلتين وضعًا ونظامًا، وكوّن في كلتيهما مجموعة من ثلاثة شبابيك أوسطهم أكبرهم وغطيت بغطاء حجري محلى بمقراص ظريف وتوجت الوجهة بأكملها بشرفات مسننة. بقي أن هذا المسجد نسب إلى "سنجر" دون "سلار" مع أن سلارًا كان أعظم منه جاهًا وأوفر مالًا وليس في الكتابات التي بالمسجد ما يفيد نسبته إلى سنجر.

خانقاه بيبرس الجاشنكير

كانت سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وكانت خلافة القائم بأمر الله العباسي ببغداد التي كانت واقعة تحت ضغط حاكمها العسكري أبي الحارث أرسلان البساسيري الملقب بالمظفر، وكان ضلعه مع الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بالقاهرة فعصى مولاه العباسي واشتبك مع جنوده في معركة انتهت بدخوله بغداد ظافرًا؛ فخطب فيها للفاطميين "وطرد القائم بأمر الله" ثم انتهب قصر الخلافة واستولى على ما به من

نفائس وتحف بعث بها إلى القاهرة وفي جملتها منديل الخليفة – أي لفافة عمامته – بعدما هيأ له رأسًا من الرخام وشده عليها حتى لا تتغير هيئته، كذلك أرسل مع المنديل رداء الخليفة وشباكًا من النحاس بديع الصنع كان مركبًا على إحدى نوافذ دار الخلافة ببغداد يجلس فيها الخليفة ويتكئ على ذلك الشباك الذي سنشير إليه قريبًا.

موقع الخانقاه

إذا بلغت مدرسة الجمالية الابتدائية الأميرية من أي طريق شئت وسرت قاصدًا باب النصر فلا تجتاز أكثر من خمسين مترًا حتى تجد على يمينك خانقاه بيبرس وعلى يسارك باب "الدرب الأصفر" كان موضعها جزءًا من "دار الوزارة الكبرى" التي كانت تسمى أيضًا "الدار السلطانية" و"الدار الافضلية"، بينما المقريزي ينبئنا أنها من عمارة "ابنه الأفضل" أما الدار التي تنسب إلى "أمير الجيوش بدر" فهي داره المسماة "دار الظفر" بحارة برجوان.

***

عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن أمير الجيوش – كما قلنا – واختير للشباك الذي أرسله البساسيري من بغداد إلى القاهرة موضع مناسب بدار الوزارة الكبرى يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه تقليدًا للعباسيين، إلى أن كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي قوَّض أركان القصور الفاطمية وقضى على خلافة الفاطميين ومجدهم؛ فكان

عمله هذا ردًا لفعل البساسيري في بغداد. أما دار الوزارة فآل أمرها أخيرًا إلى أنها في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ – ١٢٩٤ م) جعلت سجنًا لفريق من المماليك الأشرفية.

أمر بإنشاء هذه الخانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، وهو أمير فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) وبنى بجانبها رباطًا يتوصل إليه من داخلها وقد دثر وبنى بجانب الخانقاه تربة فيها قبره. وفي الطرف القبلي للواجهة الغربية باب الخانقاه وهو باب شاهق به أعتاب من الرخام وكتابات، ومصراعاه مغشيان بالنحاس الدقيق تعلوه منارة مربعة كانت قمتها مكسوة بالقاشاني الأزرق، وهو أقدم ما عثر عليه ثم قلده الناصر في منارتي جامعه بالقلعة.

والوجهة الغربية في مجموعها جميلة الشكل متناسبة الأوضاع، وتشهد لمهندسها بسلامة الذوق وتضلعه من فنه ونرجح أنه تتري الجنس، وبوسط هذه الواجهة شباك كبير من النحاس كان مركبًا على إحدى نوافذ دار الوزارة الكبرى الفاطمية. ويعلو هذه الواجهة إفريز مكتوب به اسم المنشئ، وقد تعمد الناصر محمد بن قلاوون محوه وترك مكانه مشوهًا إلى الآن.

والقبة وإن كانت يسود ظاهرها البساطة مع الضخامة إلّا أن داخلها يشتمل على محراب دقيق ووزرة من الرخام بها كتابات بالخط الكوفي

المربع وأرضية من الرخام، القسم الواقع منها أمام المحراب على هيئة محاريب على فتحتها حاجز من الخرط كتب عليه تاريخ الفراغ منها.

مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

كان موقع هذا الجامع قبل إنشائه مسجدًا صغيرًا ومخازن للمفروشات والمطبخ بالقلعة فأزال السلطان الناصر محمد تلك الأبنية وأنشأ مكانها هذا الجامع سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م)، وفي سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) هدمه وأعاد بناءه فلما كمل قرر تدريس الفقه به ووقف عليه أوقافًا للصرف عليه. وهو من الجوامع الكبيرة له بابان أحدهما غربي تجاوره منارة بدنها أسطواني وقمتها غشيت بالقاشاني على هيئة المنارات الفارسية، والباب الآخر في الواجهة البحرية التي ترى في نهايتها منارة ثانية قاعدتها مربعة ودورتها الثالثة مغشاة بالقاشاني ومكتوب عليها "الله لا إله إلّا هو الحي القيوم".

والجامع من الداخل يشتمل على أربعة إيوانات محدقة بالصحن المكشوف أكبرها إيوان القبلة، وأمام المحراب قبة كبيرة أقيمت على عمد ضخمة من الجرانيت الأحمر وبدائر الجامع من أعلاه نوافذ كانت مغطاة من الداخل والخارج بشبابيك من الجص تدل البقايا المخلفة منها على أنها كانت على جانب عظيم من الجمال، وكانت جدران الجامع مغشاة بوزرة من الرخام إلى ارتفاع نحو ٥,٥٠ متر لم يبق منها إلّا أجزاء قليلة بعضها أشرطة من الرخام والبعض الآخر من الرخام الدقيق المطعم

بالصدف كما أن أرضيته كانت مفروشة بالرخام. ومن مميزاته دقة الصناعة والنقش في السقوف التي عملت من طراز مخصوص شاع في أبنية أسرة قلاوون وفي عصره.

وقد عني السلطان قايتباي بهذا الجامع فأصلحه ووسع ميضاءه سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) وفي سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٧ م) كان الفراغ من القبة التي أمر هذا السلطان بتجديدها بدلًا من التي سقطت وجدد له منبرًا من الرخام الملون غير أنه لم يلبث أن تخرب كغيره إلى أن عني به قسم الآثار العربية فأصلح مئذنته وقوم عمده وجدرانه وعقوده، وأعاد بناء القبة وجزء من السقف إلى أصله، وسيوالي إصلاحه حتى يعود إلى سابق رونقهِ.

قصر بشتاك بشارع بين القصريين

سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ - ١٣٣٥م)

هذا القصر يقابل مسجد (مدرسة) برقوق والمدرسة الكاملية بشارِع بين القصريين، يتوصل إليه من باب حديث بدرب قرمز، أنشأه الأمير بشتاك على جانب من أرض القصر الشرقي الكبير انتقل من بعده إلى كثيرين ثم امتدت إليه يد التخريب حتى آل إلى الاندثار، ومع ذلك فإن البقية الباقية منه تنبئ بما كان عليه هذا القصر من فخامة وجمال، ونظرة إلى الردهة العليا الكبرى المشرفة على شارِع بين القصرين وما يكتنفها من حجرات تكفي للاقتناع بجمال سقوفها، ودقة صنع الوزارات الرخام

التي عثرنا على بقايا ضئيلة منها، وبصرف النظر عن جميع هذه الاعتبارات فإن مما يعلي قدر هذا القصر العظيم أنه هو النموذج الوحيد المحتفظ بكثير من تفاصيله من قصور المماليك، والذي يعطي المشتغلين بتاريخ العمارة الإسلامية فكرة عن تخطيط قصور ذلك العهد.

جامع المارداني بالدرب الأحمر

سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ - ١٣٣٩م)

انشأه الطنبغا المارداني الساقي على مثال المساجد الجامعة، أي أنه مكون من أربعة إيوانات تحدق بصحن مكشوف، وبابه البحري كسيت وجهته بالرخام الجميل وإيوان القبلة أكبر الإيوانات.. غشيت جدرانه بوزرة من الرخام الدقيق المطعم بالصدف، وتخللها مستطيلات بها كتابات كوفية مربعة، والمحراب وهو من الرخام والصدف تحفة فنية نفيسة، ويعلو المحراب قبة ذات مقرنصات من خشب محلى بالنقوش والذهب، والسقوف من النماذج الجميلة المذهبة، كذلك المنبر فإنه دقيق الصنع.. ويتوسط الصحن نافورة نقلتها إليه لجنة حفظ الآثار العربية وقت إصلاح الجامع سنة ١٣١٣ – ١٣٢٤هـ (١٨٩٥ – ١٩٠٥ م) وقد حليت وجهات الصحن بزخارف حبصية ثم توّجت بشرفات مسننة وحلي بعضها بغطاءٍ من القاشاني الأخضر.

أما مهندس الجامع فهو المعلم ابن السيوفي الذي بنى مئذنة المدرسة الأقبغاوية بالجامع الأزهر.

جامع آق سنقر إبراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة

سنة ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ (١٣٤٦ - ١٣٤٧م)

أنشأه الأمير آق سنقر السلاري أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهو مكون من أربعة إيوانات يتوسطها صحن والإيوانات مسقوفة بعقود صلبة محمولة على أكتاف من حجر ثمانية الأضلاع، وفي الطرف القبلي للواجهة العمومية أقيمت منارة دوراتها كلها أسطوانية، يقابلها في الطرف البحري قبة فوق تربة دفن فيها الأمير علاء الدين كجك ابن السلطان الناصر محمد.

والمنبر من الرخام وبابه من خشب مطعم بالسن، والمحراب من رخام خردة دقيق تعلوه قبة وبوسط الصحن فسقية أنشأها الأمير طوغان الدوادار سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢م).

وفي سنة ١٠٦٢هـ (١٦٥١ – ١٦٥٢م) أصلح الجامع إبراهيم أغا مستحفظان، وكسى جدار الإيوان الشرقي بالقاشاني الأزرق فسمي الجامع لهذا السبب (الجامع الأزرق) وقد أنشأ إبراهيم أغا لنفسه في الطرف الغربي للإيوان القبلي مدفنًا كسيت جدرانه من أسفل بالرخام الملون الدقيق، ومن أعلاها بالقاشاني الجميل، أما قبر سنقر فهو الآن شرقي مدفن إبراهيم أغا.

مسجد السلطان حسن بميدان صلاح الدين

سنة ٧٥٧ - ٧٦٤ هـ (١٣٥٦ - ١٣٦٣م)

هذا المسجد أكثر مساجد القطر فخامةً وأحسنها شكلًا، وأجمعها لمحاسن العمارة وأدلها على عظم الهمة وغاية العناية التي بذلت في إنشائه، بلغ طوله ١٥٠ مترًا وارتفاعه عند بابه ٣٧,٧٠ مترًا، ومن الصعب تحديد شكله لأن في وضعه بعض وزرات وغاية ما ينتهي إليه الوصف أنه كثير الأضلاع، ممتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

والداخل إلى هذا المسجد من بابه البحري العام يواجه مدخلًا مربع الشكل من الطراز الجركسي المتعامد مكون من ثلاثة إيوانات، وصحن يشبه أن يكون مسجدًا صغيرًا ويجد على يساره إلى الجهة الشرقية طريقًا مستطيلًا ينتهي فيه إلى الجهة الشرقية القبلية فيصل إلى صحن المسجد ومقياسه ٣٢×٢٤,٦٠ مترًا، يتوسطه حوض كبير للوضوء تعلوه قبة، وعلى جوانب هذا الصحن الأربعة إيوانات أربعة، وفي زاوية من زواياه الأربع باب يصل إلى إحدى المدارس الأربع التي أعدت ليدرس في كل منها مذهب من المذاهب الأربعة، وأكبرها المدرسة الحنفية.

وأكبر الإيوانات هو الإيوان الشرقي، ذو الوزرة الرخام الجميلة وبدائره إطار من جص به آيات من سورة الفتح كتبت بالخط الكوفي الدقيق الصنع العديم المثال، وسقفه كبقية سقوف الإيوانات الثلاثة

الأخرى مكون من قبو مدبب من حجر، وفي هذا الإيوان دكة من رخام محكمة الصنع والمحراب يتوسط وجهته الشرقية وهو مكسوٌّ بالرخام الملون المحلي بنقوش ذهبية، وعلى يمين المحراب المنبر وهو من الرخام الأبيض وبابه من الخشب المصفح بالنحاس، وعلى جانبي القبلة بابان يوصلان إلى القبلة العظيمة التي تتوسطها مقصورة من خشب حديثة الصنع داخلها تابوت من رخام عمل بعد وفاة السلطان حسن بنحو ثلاث سنوات.

وأحد البابين المذكورين وهو القبلي مكسوٌّ وجهه بالنحاس المطعم بالذهب والفضة وهذا كان حال الباب البحري قبل أن تعبث به يد الزمان، ونظرة إلى رسوم هذا التطعيم تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقي في ذلك العهد.

والقبة مربعة الشكل طول ضلعها ٢١ مترًا وارتفاع جدرانها ٣٠,٢٠ مترا إلى مبدأ القبة التي تبلغ ذروتها ٤٨ مترًا، وجميع جدرانها مكسوّة بالرخام الفاخر حتى ارتفاع ٨ أمتار وفوق الرخام طراز من خشب علوه ثلاثة أمتار محلى بكتابة قرآنية بالخط النسخ وبتاريخ الفراغ من بناء القبة وهو سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ – ١٣٦٣م). وللجامع منارتان يبلغ ارتفاع كبراهما ٨١,٦٠ مترا.

هذا وقد مات السلطان حسن قبل أن يكمل المسجد فاستمر في عمارته أحد أمرائه وهو بشير أغا الجامدار ومع ذلك فإن بعض زخارفه لم تكمل إلى الآن.

دولة المماليك الجراكسة أو "البرجية"

سنة ٧٨٤ - ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٦م)

مات الناصر محمد بن قلاوون، ولم يترك خلفًا، فوقعت البلاد في فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده وانقضى الأمر بانقراض دولة المماليك البحرية بعد أن حكمت مدة ١٢٢ سنة واستيلاء المماليك الجراكسة على الملك، وهنا يشعر الإنسان بانشراح عندما ينتقل من ذكر أمراء وضيعي النشأة أتيح لهم النفوذ باسم سلاطين من الأطفال إلى عقد من الملوك صار إليهم الأمر حقًّا فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقًّا.

أولئك هم المماليك الجراكسة أو "مماليك المنصور قلاوون" لأنه هو الذي أكثر من شرائهم وجعلهم في أبراج القلعة فسموا "البرجية" وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الجراكسة، وأولئك من الترك، ولم يكن الملك فيهم وراثيًّا قط كما كان في بيت قلاوون، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم متوقفًا على شهرته الحربية ومقدرته على الفوز بمودة زملائه من الأمراء وعدد سلاطينهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة وحكم في التسع سنوات الأخرى أربعة عشر. وفيما يلي بيان بأسماء السلاطين الجراكسة ومدة حكم كل منهم

الاسم	مدة الحكم هجرية – ميلادية	الاسم	مدة الحكم هجرية– ميلادية
الظاهر برقوق	٧٨٤ – ١٣٢٨	إينال	٨٧٥– ١٤٣٥
الناصر فرج بن برقوق	٨٠١ – ١٣٩٨–٩	أحمد بن إينال ١	٨٦٥– ١٤٦٠–
عبد العزيز برقوق	٨٠٨– ١٤٠٥	خوشقدم	٨٦٥ –١٤٦٠–١
الناصر فرج (للمرة الثانية)	٨٠٩–١٤٠٦	الظاهر بلباي	٨٧٢– ١٤٦٧–٨
المؤيد شيخ ١٤١٢	٨١٥ –	تيمور بغا	٨٧٢–١٤٦٧–٨
المظفر أحمد بن شيخ ١٤٢١	٨٢٤–	الاشرف قايتباي	٨٧٣–١٤٦٨–٩
الظاهر تتر	٨٢٤– ١٤٢١	محمد بن قايتباي ١٤٩٥–٦	٩٠١–
محمد بن تتر ١٤٢١	٨٢٤–	الظاهر قنصوة	٩٠٤– ١٤٩٨–٩
الأشرف برسباي	٨٢٥–١٤٢١–٥	جانبلاط	٩٠٥–١٤٩٩–٥٠٠
يوسف بن برسباي	٨٤٢– ١٤٣٨	قنصوة الغوري	٩٠٦–١٥٠٠–١
الظاهر جقمق	٨٤٢– ١٤٣٨	الأشرف طومانباي	٩٢٢–١٥١٦
عثمان بن حقمق	٨٥٧– ١٤٥٣		

وقد ظهر من بين هؤلاء السلاطين سلاطين عظام شيدوا بنايات جليلة لأغراض شتى وأدخلوا على مفصلاتها تهذيبًا وتعديلًا كبيرين، فسطوع القباب أخذت زخارفها وازينت، وأعمال الفسيفساء والتطعيم ارتقت، وصحون بعض المدارس غطيت بسقوف بعد أن كانت عارية، وبالجملة اطرد التقدم في مختلف الصنائع والفنون.. هذا إلى أن المآذن في عهد هذه الدولة تطورت تطورًا غيَّر من شكلها ومن زخارفها ففي مئذنة مدرسة برقوق نرى دورتها الوسطى طُعمت بالرخام لأول مرة وتلتها

مئذنة مدرسة القاضي يحيى سنة (٨٤٨ هـ - ١٤٤١ م) بشارع بين النهدين.

أما من حيث الشكل فقد رأينا قانباي أميراخور بني سنة ٩٠٨ - ٩١١ هـ (١٥٠٢ - ١٥٠٥م) مئذنتين بكل منهما رأسان وحذا حذوه السلطان الغوري، فبنى مئذنة مدرسته بأربعة رؤوس وكساها بالقاشاني كما كسا به قبة تربته، وهذا تطور جديد شاع بعده في قباب مسجد سليمان باشا بالقلعة سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨م) وفي قبة الشيخ سعود سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥م) وها نحن نأتي هنا على ذكر بعض البنايات الشهيرة التي شيدت في عهد هذه الدولة.

مسجد السلطان الظاهر برقوق بشارع بين القصرين

سنة ٧٨٦ - ٧٨٨ هـ (١٣٨٤ - ١٣٨٦م)

هذا المسجد أنشأه الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة، وهو لاصق بمدرسة الناصر محمد بن قلاوون من الجهة البحرية فتكونت من وجهتيهما، ومن وجهة تربة ومدرسة قلاوون مجموعة من أجمل المباني الأثرية منظرًا.

وواجهة الجامع الشرقية المشرفة على شارع بين القصرين جميلة للغاية؛ ففي طرفها البحري منارة ضخمة متناسبة الأبعاد طعمت دورتها الوسطى بقطع من الرخام متماثلة الشكل تعدّ الأولى من نوعها في

المآذن. والباب العمومي مركب عليه درفتان من الخشب مكسوّتان من الخارج بالنحاس المطعم بالفضة وهذا الباب يؤدي إلى طرقة توصل إلى الصحن المكشوف المفروشة أرضه بالرخام، والمحاط بإيوانات أربعة أكبرها إيوان المحراب المقسم إلى ثلاثة أروقة أكبرها أوسطها وسقوفها الخشبية مموهة بالذهب والمحراب مكسوّ بالرخام المختلف الألوان والمحلى بفصوص من الصدف، أما الإيوانات الثلاثة الباقية فمسقوفة بقبوات من حجر، وبالركن البحري الشرقي للحصن باب يؤدي إلى التربة التي كان أعدها برقوق لنفسهِ ثم عدل عنها إلى تربته التي أنشأها له ابنه الناصر فرج ونقل إليها رفاة والده "أنس" كما دفن بها بعض أفراد أسرته، ومما يستوقف النظر في هذه التربة الوزره الرخام المنتهية بطراز مكتوب بالذهب يتضمن تاريخ إنشاء المدرسة.

ومن طرائف صناعة النجارة في هذا المسجد درف بعض أبوابه، وقد حليت بزخارف ناتئة على هيئة الصور والزوايا النحاسية التي تكسو بعض الأبواب في آثار أخرى.

تربة برقوق بجبانة المماليك

سنة ٨٠١ - ٨١٣ هـ (١٣٩٨ - ١٤١١م)

هذه أضخم تربة وجدت في جميع جبانات مصر والقاهرة، وضع تصميمها ليخدم أغراضًا مهمة متعددة فبينما ترى كمدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية إذا بها مسجد فسيح الأرجاء وبينما هي أعدت لتكون

تربة للمدرسة الظاهرية إذا بها خانقاه فخمة للصوفية. هذا إلى أنها حوت من المميزات العمارية ما لا نظير له في سواها، والناظر إلى الواجهة الغربية لا يسعه إلَّا الإعجاب بمنظرها، ففي طرفها البحري والقبلي سبيلان يعلوهما مكتبان يحصران بينهما منارتين متماثلتين شكلًا.

كذلك الوجهة الشرقية على طرفيها قبتان شامختان يحصران بينهما قبة ثالثة أقل حجمًا تعلو المحراب، وقد حلي سطح القبتين بنقوش بارزة على شكل دالات نقشت في الحجر، ومما يسترعي النظر أن أكتاف من الحجر قواعدها وتيجانها مربعة أما أبدانها فمثمنة.

والمنبر من الحجر المنقوشة عليه زخارف هندسية الشكل أنشأه هو والدكة الخشب السلطان قايتباي سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م)، ولما مات برقوق سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ – ١٣٩٩ م) دفن بالتربة الكائنة بالقبة البحرية ودفن معه بعض أولاده. أما أبناؤه وزوجاته فدفنوا في الترب الكائنة بالقبة القبلية.

جامع المؤيد بشارع السكرية

سنة ٨١٨ – ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ – ١٤١٠م)

هذا الجامع الكبير أنشأه السلطان الملك المؤيد شيخ، ومدخله الكائن في الطرف البحري للوجهة الشرقية مركبة عليه درفتان من الخشب مكسوّتان بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة كانتا في

الأصل مركبتين على باب مسجد السلطان حسن، فاشتراهما المؤيد بأبخس قيمة وركبهما على باب جامعه، ولا يزال اسم السلطان حسن منقوشًا عليهما إلى الآن.

وبالدركاة بابان متقابلان أحدهما القبلي يؤدي إلى مدفن السلطان والآخر البحري يؤدي إلى صحن الجامع الذي تحول إلى حديقة، أما الإيونات الأربعة فقد تهدم ثلاثة منها فلم يبق سوى الإيوان الشرقي المكسو جزء من جدرانه بوزرة من الرخام المختلف الألوان، وبجوار المحراب منبر حشواته المجمعة على هيئة أشكال هندسية مطعمة بالسن، والسقف محمول على أعمدة من رخام وكله محلى بنقوش عربية مذهبة.

ومنارتا الجامع منفصلتان عنه وقائمتان على بدنتي باب زويلة، ومما يبعث على الاستغراب الشديد وجود إفريز بأعلى الوجهة الشرقية مشحون بآيات قرآنية تسرب الخطأ إلى بضع كلمات منها، ولعلّ هذا هو الحادث الوحيد من نوعه فيما كتب على الآثار الإسلامية بمصر الآن.

مسجد الأشرف برسباي بالأشرقية

سنة ٨٢٦ - ٨٢٧ هـ (١٤٢٢ - ١٤٢٤م)

أمر بإنشائه الأشرف برسباي منشئ الجامع بالخانكاه، والتربة بجبانة المماليك، ودرفتا بابه العمومي مكسوتان بالنحاس المخرم تخريمًا

هندسيًّا، وهو كجميع المدارس مكون من صحن تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة المكسوة بالرخام البديع، أما المنبر فإنه تحفة فنية قليلة النظير، وبالركن البحري الشرقي للمسجد تربة دفنت بها زوجة الملك الأشرف وابنه الناصر محمد، وأقيمت فوقها تربة ظهرها محلى بنقوش على شكل دالات.

تربة الأشرف أبي النصر قايتباي

سنة ٨٧٧ - ٨٧٩ هـ (١٤٧٢ - ١٤٧٤م)

هذه التربة من أشهر الأماكن الأثرية التي يندر أن لا يزورها قاصدو القاهرة الأجانب من سائحين وعلماء ومستشرقين، وشهرتها هذه ترجع إلى ميزتين في تصميمها، وهما تناسب مجموعة أجزائها خصوصًا مجموعة القبة والمنارة والسبيل والمكتب، ثم الزخارف والنقوش البديعة المنتشرة في الداخل والخارج، والواقف في صحن المصلى الملحقة لا يرى إلَّا رخامًا مختلف الألوان متنوع الأشكال وسقوفًا منقوشة ومموهة بالذهب وشبابيك من الجص والزجاج تسر الناظرين، وفي القبة كرسي للسورة بلغت فيه صناعة الأويمة منتهى الدقة، أما ظاهر القبة فحدّث عن جمال زخارفه المورقة ولا حرج، وأما المنارة فرشاقّها ظاهرة للعيان.

قبة يشبك (الفداوية) بشارع العباسية

سنة ٨٨٤ - ٨٨٦ هـ (١٤٧٩ - ١٤٨١م)

عرفت هذه القبة بـ "الفداوية" نسبةً إلى طائفة من بلاد "الإسماعيلية" أبناؤها أشداء مستهترون بالموت ويسترخصون الحياة، ولذلك عني بهم ملوك مصر وخصصوا لهم المرتبات.

أما منشئ هذه القبة فهو الأمير يشبك الدوادار سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩م) وأنشأ بجوارها مدرسة وغرس حولها حدائق؛ مما جعل هذه المنطقة إحدى متنزهات القاهرة وبها ميدان كان فضاءً يحوي بعض القبور، ومات الأمير يشبك قبل أن يتمها فأنماها السلطان (قايتباي) وهي وإن سادتها البساطة من الخارج إلَّا أنها حافلة بالزخارف الجصية من الداخل، وبها منبر ظريف نقل إليها من جامع كاتم السر، وقد أنشأت مصلحة التنظيم حولها حديقة غناء.

مسجد قجماس الإسحاقي بشارع الدرب الأحمر

سنة ٨٨٥ - ٨٨٦ هـ (١٤٨٠ - ١٤٨١م)

أنشأ هذا المسجد الأمير سيف الدين قجماس الإسحاقي، وألحق به تربة ليدفن فيها إلا أنه مات بدمشق ودفن هناك؛ فبقيت التربة خالية إلى سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) حيث مات الشيخ أحمد أبو حريبة ودفن بها فأشهر المسجد من ذلك الحين باسم "مسجد أبي حريبة".

وبمقابلة هذا المسجد بمسجد قايتباي الملحق بتربته نجد وجود الشبه متوفرة بينهما من الداخل إلى حد كبير، فمن سقوف مذهبة إلى شبابيك جصية ملونة، ومن رخام دقيق منوع الأشكال إلى نجارة متقنة للغاية، أما من الخارج فزخارف مسجد قجماس فاقت سواها من الآثار الأخرى ولا يدانيها إلى حد ما سوى زخارف سبيل قايتباي بشارع الصليبة.

مسجد الغوري بالغورية

سنة ٩٠٩ - ٩١٠ هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٤م)

هذا المسجد الصغير على يمين السالك من شارع الأزهر إلى باب زويلة، وهو إن اشترك في التخطيط مع أمثاله من المساجد الأخرى – خصوصًا مسجد قايتباي – وفي تمويه السقوف بالذهب وتغطية النوافذ بشبابيك جصية ملونة وفرش الأرضية بنوع الرخام المختلف المكون منها أشكال هندسية ظريفة إلّا أنه انفرد بوجود منور مفتوح بوسط سقف الصحن ومنارته المُربعة الأدوار منتهية بأربعة رؤوس كانت مكسوّة بالقاشاني الأزرق الذي لا تزال آثاره باقية إلى الآن.

ومن مقارنة واجهة هذا المسجد بالواجهة الغربية لتربة وخانقاه الغوري المقابلة لها، يتضح أنهما متماثلان في الارتفاع، وفي كثير من التفاصيل والزخارف كما أنهما تمتازان عن بقية الواجهات السابقة لهما بأمرين أولهما ارتقاء شكل الشرفات، والثاني عمل الكسوة الرخام التي

تعلو فتحات الشبابيك من حطتين مزررتين تزريرًا دقيقًا بدلًا من حطة واحدة.

العصر العثماني

ابتداءً من سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م)

بعد ما تطورت العمارة الإسلامية بمصر هذا التطور البديع وبلغت أوج الرقي والازدهار عادت مصر فاصطدمت بالفتح العثماني لها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) وتحولت من إمبراطورية واسعة الأطراف إلى إمارة عثمانية، وبارت الصنائع فيها بما أقدم عليه السلطان سليم من جمع المهرة والمبرزين من الصناع في كل فرع من فروع الصناعة وإرسالهم إلى الأستانة فتحول الطراز الإسلامي الجميل عن طريقه القويم وتغلغل فيه الطراز البيزانطي فضعف فمات ولم تقم له قائمة.

ولكن على الرغم من كل هذا ظهرت مساجد مبنية على الطراز التركي لها طرازها الخاص من ناحية التخطيط وحده مثل مساجد: سليمان باشا، وسنان باشا، والملكة صفية، ومحمد بك ابي الذهب، أما في تفاصيلها فقد تجلت روح الصناعة المملوكية إلى حد ما كما هو الحال في جامع البرديني؛ فرخام الوزارات والأرضيات والسقوف والمقرنصات لا يقل جمالًا ولا إتقانًا عن كثير من نظائرها في بنايات المماليك. وقد ندر استعمال الحجر الأبيض في البناء وحل محله الحجر الأحمر.

أما الأسبلة وما يعلوها من كتاتيب فقد قل جدًّا عدد الملحقة منها بالمساجد كما كثر عدد المستقلة منها، وحليت وجهات الأسبلة بزخارف مفرغة على الحجر على أشكال هندسية منتظمة، كذلك الشبابيك النحاس فإن عددًا كبيرًا منها تحوَّل عن طريقة المصبعات (الأرماح والمخزات) إلى قطع من القضبان المتعرجة بكيفية تجعل من مجموعها أشكالًا هندسية ظريفة وفي كل من كتّاب المطهر بالصاغة وكتّاب عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين استخدم رفَّان بدلًا من رفٍّ واحد وفي العقود يرى العقد الموتور، استعمل في عدد من أبواب المساكن وفتحات المقاعد، بدلًا من "العقد المدبب".

كذلك المنارات فإن منها ما بدنه مضلّع، وقد يكون أسطوانيًّا أملس، وكلا النوعين نادر جدًّا أما الشائع كثيرًا فهو الأسطواني المقسم سطحه إلى مناطق مفصولة بعضها عن بعض بفروع خيزرانية بارزة عن السطح، وكل هذه الأبدان الثلاثة تنتهي دائمًا بمسلة مخروطية الشكل مكسو ظاهرها بألواح من رصاص على أن هناك بعض منارات التزم فيها المهندس الطراز المملوكي كمنارات البرديني بالداودية وحسن باشا طاهر ببركة الفيل والعريان بسوق الزلط والكردي بسويقة اللالة.

أما التجارة فقد تطورت تطورًا محسوسًا، فالمصاريع تتكون وجوهها من حشوات مستطيلة ضيقة متعامدة ومتعرجة ومرتبطة بعضها ببعض بمقاسات (فواصل) تجعل منها نماذج طريفة تميز لدى رجال

الصناعة بأسماء مختلفة نذكر منها (المعقلي) و(الرضواني) و(موج البحر) و(السداسي).

وأول ما يلاحظ هذا التطور واضحًا في نجارة مسجد (سليمان باشا) (سارية الجبل) بالقلعة فإن مصاريع الشبابيك والخزائن والأبواب – رغمًا عن دقة صنعها – استخدم فيها الخشب الثمين كـ (البقس) و(الأبنوس) وصنعت مغاليقها من النحاس المحلى بنقوش محفورة غاية في الدقة، ومثال آخر لهذا التفوق فإن نجارة المماليك لا تزال صاحبة المقام الأول في الدقة والجمال.

وما يقال عن المصابيح يقال عن أشكال الخرط كالمشربيات والشبابيك فقد كثر استعمالها في المساكن وتنوعت أشكالها، وحليت شرائح الخرط أحيانًا بكتابات حروفها من الخرط ذاته أو بزهريات أو أباريق ونحوها، أما القاشاني فقد شاع استعماله في كسوة الجدران أكثر منه في أي عهد سابق حيث غشيت أماكن بأكملها بالقاشاني الذي يرى أحيانًا محلى بكتابات قرآنية وغيرها أو برسوم أهمها رسم الكعبة المشرفة.

وهناك حالات غشيت فيها الجدران بوزرات من الخشب المطلي بالدهان المقسم على هيئة ترابيع القاشاني، ومما لا شك فيه أن هذه الوزرة المزيفة أقل قيمة من القاشاني الحقيقي.. لكن هل يكون الاقتصاد وحده هو الباعث على هذا التزييف، ويخيّل إليَّ أن الباعث على هذا

العمل هو رطوبة الجدران، وهي ميزة لا تتوافر في الوزرات الرخام أو القاشاني.

على أن الأهم من كل ما سبق هو تطور القبة، فقد جعلت الرقبة من حطتين مضلعتين أحدهما فوق الأخرى والحطة العليا أقل سمكًا من السفلى، وكلتاهما مدعمة في أركان التضليع بدعائم مضلعة أو مستديرة ومنتهية بمخاريط أو أهرامات، تتوجها أحيانًا كريات وبين الدعائم توجد الشبابيك، أما الغطاء في القبة التركية فهو أقل ارتفاعًا من نظيره في القباب المملوكية، وهذه القلة في ارتفاع الغطاء تقابلها زيادة في ارتفاع الرقبة بحيث يمكن القول بأن مجموع ارتفاعي الرقبة والغطاء في كلتا القبتين واحد.

هذه هي مميزات الطراز العثماني بمصر ذكرناها باختصار، وعلى الرغم من شيوعه بمصر طول مدة الحكم العثماني فإنه أخذ في التقهقر والانحطاط في أواخر القرن الثاني الهجري.. أي إلى قبيل الحملة الفرنسية، فلما تبوأ عرش مصر المغفور له "مُحمد علي باشا" أنشأ طرازًا جديدًا من العمارة جمع بين الطراز العثماني المصري، وبين طرز العمارة الأولى خصوصًا الفرنسي، وتتجلى في الأبنية الأميرية وفي قصور الأمراء والعظماء، ثم ما لبث هذا الطراز أن تلاشى وعمت الفوضى جميع البنايات فصارت لا تمت بصلة إلى طرز من طرز العمارة المعروفة غير أن هذه الحالة قد تخللها فترات قليلة ظهرت فيها بنايات جليلة في عهدي

المغفور لهما: "الخديوي إسماعيل باشا" و"الملك فؤاد الأول" كسراي الجزيرة وجامع الرفاعي والجامعة المصرية.

على أننا نرجو أن تستعيد مصر مجدها وتتبوأ المكان اللائق بها كأمة عريقة في فن العمارة وكل فن جميل، وفي ظل مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله وأبقاه، وتختم هذه الكلمة بوصف بعض الآثار العثمانية الشهيرة بالقاهرة.

مسجد المحمودية بميدان صلاح الدين

سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧م)

هذا المسجد أمام أحد أبواب القلعة (باب العزب) وشرقي جامع والسلطان حسن، أنشأه محمود باشا أحد ولاة مصر في العهد التركي، وهو مرتفع عن مستوى الشارع يصعد إليه بسلم يؤدي إلى الداخل المكون من مربع يتوسطه أربعة عُمد كبيرة من الجرانيت تحمل منورًا كبيرًا مرتفعًا عن السقف، وحول العُمد سقوف للمسجد مموهة بالذهب والألوان، وفي جدار المحراب باب يوصل إلى قبة ملحقة بالمسجد وبارزة عنه، وهذا ثاني نموذج من نوعه في المساجد حيث كانت قبة مسجد السلطان حسن هي أولى القباب البارزة عن جدار المحراب.

ولم يقتصر الاقتباس على القبة، بل تعداه إلى قاعدة المنارة من حيث الوضع والشكل، أما جزؤها العلوي فتركي الطراز الذي ينتهي عادة بمخروط.

جامع الملكة صفية بشارع محمد علي

سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م)

هذا الجامع مكون من جزأين أحدهما الصحن والآخر القبة، أما الصحن فله ثلاثة أبواب في جوانبه الثلاثة القبلي والغربي والبحري يتوصل إليها من ثلاثة سلالم دائرية، إلّا أن السلم البحري هدم في وقت ما، وبدائرة الصحن أربعة ألونة سقوفها مقبية ما عدا أربعة منها فإنها على شكل مخاريط منحنية الأضلاع.

وأما القبة فإنها كائنة شرقي الصحن يتوصل إلى قاعدتها المربعة من ثلاثة أبواب مفتوحة في جانبها الغربي، وأجمل هذه الأبواب أوسطها، وهو يحمل فوق عتبه لوحة من رخام منقوش عليها اسم منشئة الجامع، وهي الملكة صفية والدة السلطان محمد خان الثالث، وتاريخ إنشائه هو سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م).

وبوسط الجنب الشرقي للقاعدة فجوة بارزة عنه تشغل المحراب ومنبرًا من الرخام المزخرف ودكة المبِّلغ التي تعلو الباب الأوسط محمولة على عمودين من رخام وسقفها مقسم على هيئة أشكال هندسية ودرابزينها خرط جميل، والمنارة مبنية على الطراز التركي، والجامع كله مبني بالحجر الأحمر كعادة المباني التركية بمصر.

مسجد البرديني بشارع الداودية

سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦م)

أنشأ هذا المسجد كريم الدين البرديني، ومن بابه العمومي تتكون واجهته الغربية وجميع مبانيه بالحجر، وهو عبارة عن قاعة صغيرة جمعت محاسن العمارة الإسلامية، فالجدران كسيت بوزرة من الرخام الدقيق المختلف الألوان، وبها كتابة بالخط الكوفي المربع يعلوها طراز من الرخام الدقيق. والمحراب من الرخام البالغة صناعته حد الإتقان، والشبابيك من الجص المحلى بزجاج ملون، وبجوار المحراب محراب صغير مطعم بالصدف والسن، وبالجهة الغربية دكة المبلِّغ وسقف الجامع محلى بنقوش مذهبة. أما المنارة فهي كائنة على يسار الباب، وقد أنشئت سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ – ١٦٢٩ م)

بيت جمال الدين الذهبي

بحارة خشقدم سنة ١٠٤٧هـ - (١٦٣٧م)

أنشأ هذا المنزل "الخواجة جمال الدين الذهبي" كبير التجار بمصر، وهو يكاد يكون باقيًا على حالته الأولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على ضدّ مظهره الداخلي فإنه جدير بالإعجاب؛ فعلى حوشه اللطيف يشرف من الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام، ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الإيوانين تتوسطها دور قاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب، وجدران القاعة

مكسوّة أسفالها بوزرة جميلة من الرخام الدقيق، وبصدر القاعة مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون، وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المموه بالذهب، ومما يلفت النظر في هذا البيت حمامه الصغير الكامل النظام ثم المجازات الخفية التي توصل فيما بين الحجرات فضلًا عن السلالم الكثيرة المؤدية إلى أجزاء المنزل المختلفة.

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي الشهير ببيت "السحيمي" بالدرب الأصفر

سنة ١٠٥٨ - ١٢١١هـ (١٦٤٨ - ١٧٩٦م)

هذا المنزل مكون من قسمين أحدهما، وهو الجزء القبلي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ هـ (١٦٤١ م) وأهم مشتملاته القاعة الكائنة على يمين الداخل ثم القاعة الكائنة على اليسار المفروشة أرضيتها بالرخام الدقيق، ووجهة البيت المشرفة على الدرب الأصفر مشتملة على مجموعة قيمة من المشربيات الخرط الدقيقة الصنع.

أما القسم الآخر، وهو البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل جلبي سنة ١٢١١هـ (١٧٩٩م) وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما منزلًا واحدًا، وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول فهو يشتمل أولًا على قاعة بحرية كبيرة تعلوها حجرة مثلها، ولكل منهما وجهة بحرية من الخشب الخرط الجميل مشرفة على الحديقة الكبرى..

ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية تتوسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعد من أدق وأجمل ما صنع من نوعها، ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان إلى الدور العلوي المشتمل ضمنًا على قاعة راكبة على التختبوش هي أفخم وأجمل حجرات المنزل جدرانها مكسوّة بالقاشاني المنوع، وبصدري إيوانيها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من أعلاها بخورنقات تعلوها رفوف وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأواني القاشاني، وبالحجرة باب مطعم بالسن والزردشان من صناعة القرن العاشر الهجري، ووجهتها القبلية من الخشب الخرط الجميل.

جامع أبي الذهب

سنة ١١٧٨هـ (١٧٠٣م)

هذا الجامع تجاه الوجهة الغربية للجامع الأزهر أنشأه الأمير محمد بك أبو الدهب، وله وجهتان إحداهما بحرية وتشرف على ميدان الأزهر، وبها أحد أبواب الجامع، والأخرى شرقية وتقابل الجامع الأزهري وبها الباب الآخر، وكلا البابين يؤدي إلى طرقة مكشوفة تحيط بأروقة ثلاثة محيطة بالقبة من جهاتها البحرية والغربية والقبلية، ومسقوفة بقبوات محمولة على عقود متكئة بأطرافها على أعمدة من رخام، وبوسط كل رواق مجاز يؤدي إلى باب من أبواب القبة الثلاثة التي يرى الواقف في وسطها محرابًا مكسوًا بالرخام يجاوره منبر مطعم بالصدف، وبرقبة القبة مجموعة من النوافذ المغطاة بشبابيك من الجص والزجاج الملون، كما

أن جوف القبة محلى بنقوش مذهبة ويتوصل إلى سطح الجامع من سلم مخبأ داخل جوف الجنب الغربي للقبة.

ويجاور القبة من الجهة البحرية مقصورة من نحاس بها قبر المنشئ وابنه، جدرانها مكسوة بالقاشاني الجميل، وبجوار المقصورة مكتبة أعدها أبو الذهب ليستعين بها المدرسون بالجامع فلما أنشئت دار الكتب المصرية نقل إليها ما كان بهذه المكتبة من الكتب، وبنهاية الطرقة القبلية للجامع منارة كبيرة مربعة منتهية بخمسة رؤوس.

سراي المسافر خانة بدرب الطبلاوي

سنة ١١٩٣هـ (١٧٧٩م)

أنشأ هذه السراي الخواجة محمود محرم أحد تجار القاهرة، وهي مكونة من قسمين أحدهما بحري أنشأ سنة **١١٩٣**هـ (**١٧٧٩**م) ويتوصل إليه من درب المسمط، والآخر قبلي أنشئ سنة **١٢٠٣**هـ (**٩/١٧٨٩** ويتوصل إليه من درب الطبلاوي الَّا أن القسمين ارتبط أحدهما بالآخر وصارا مبنىً واحدا يتوصل إليه الآن من درب الطبلاوي.

الجزء البحري: يتكون من دركاة بها على اليسار باب يؤدي إلى القسم القبلي، وباب آخر يؤدي إلى حوش مكشوف به على اليسار (الشرق) باب يؤدي إلى سلم ثانوي يوصل إلى الغرف العلوية، ويلي السلم قاعة ذات إيوانين بينهما دور قاعة مفروشة بالرخام الملون، ويلي

هذه القاعة باب يؤدي إلى القسم القبلي، ثم تختبوش سقفه قشر بلدي جميل.

أما على اليمين ففي الجهة البحرية قاعة بسيطة يليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي إلى جمبع غرف الدور العلوي، وأهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق التختبوش، والمشتملة على مجموعة قيمة من الرخام والنجارة وخصوصًا الشخشيخة، هذا فضلًا عن المشربيات الخرط المحيطة بالحوش.

الجزء القبلي: يتوصل من بابه الأخير إلى ردهة فسيحة تؤدي إلى قاعة بأرضيتها فسقية رخام دقيقة، وجانبها القبلي كله من الخرط، والسقف لا يقل فخامةً عن سقفي التختبوش والقاعة العليا، ويلاحظ أن هذه السراي بحالتها الحاضرة هي الجزء الباقي من السراي الأصلية بعد هدم أجزاء منها الغرب والجنوب بسبب خللها.

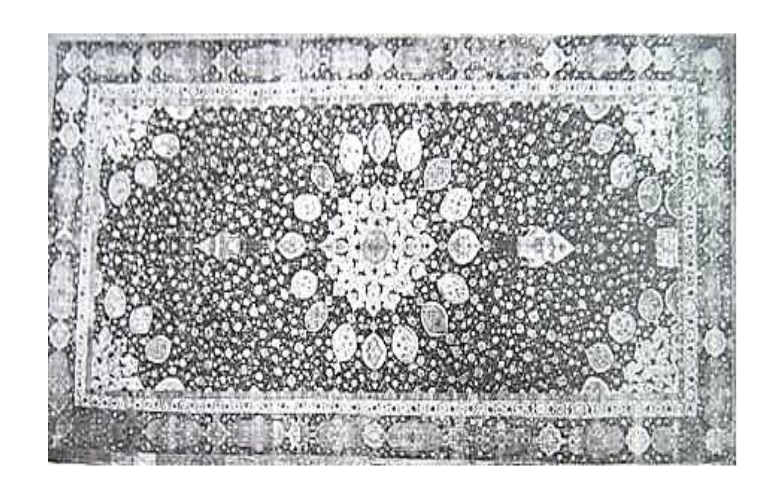
وبعد وفاة منشئيها آلت للأسرة العلوية المحمدية فاتخذتها مقرًّا لضيافة الواردين إلى مصر من الكبراء ولذلك عرفت (بالمسافرخانة)

منزل ابراهيم كتخدا السناري

حوالي سنة ١٢٠٩هـ (١٧٩٤م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبةً إلى مسيو (منج) أحد علماء الحملة الفرنسية أنشأه ابراهيم كتخدا السناري، واجهته بسيطة ليس فيها ما يهم سوى الباب العمومي والمشربية التي تعلوه، وبالجنب القبلي للحوش تختبوش ومقعد بابه مشحون بالزخارف وسلمه يؤدي إلى بابين.. الأيمن منهما يوصل إلى بعض حجر المنزل ثم إلى القاعة الكبيرة والحمام والباب الأيسر يؤدي إلى المقعد والجناح الشرقي.

وتنحصر مكانة المنزل في أن الحملة الفرنسية أثناء إقامتها بمصر سنة ١٢١٣- ١٢١٦هـ (١٧٩٨ – ١٨٠١م) خصصته لإقامة مصوريها وبعض علمائها، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالλوس ولاتكريه وتبراج وجالوي، وفيه عملت الأبحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر)، وفي المدة من سنة ١٩١٦ إلى ١٩٢٦ أقام به جلياردو بك متحفًا باسم (بونابارت) أغلق بعد وفاته ثم أخلي من السكن سنة ١٩٣٣.

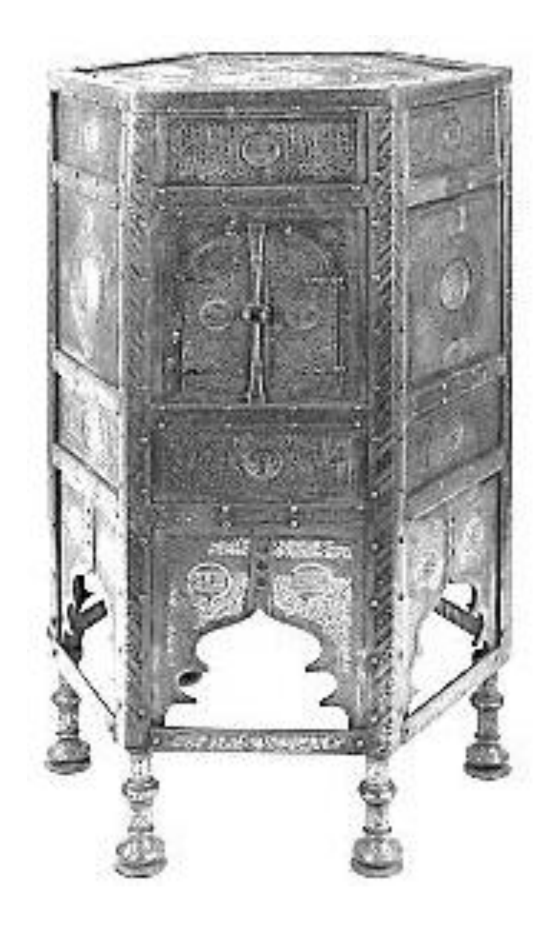


سجادة من صناعة مصر في العصور الوسطى، وقد ظل هذا النوع ينسب طويلًا إلى مدينة دمشق





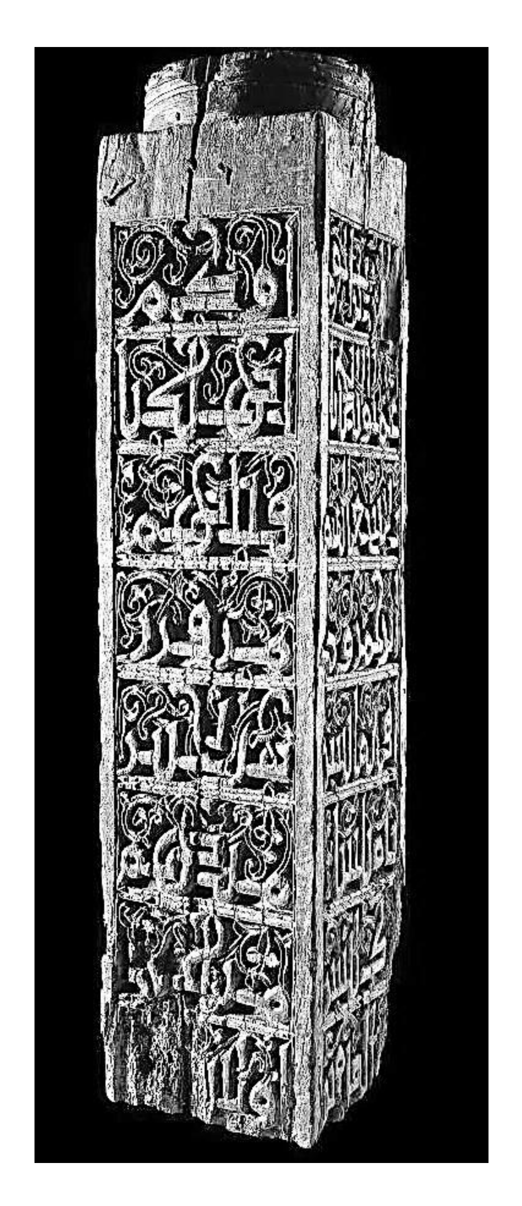
إناء من فخار مطلي بالمينا الصفراء، عليه زخارف بالخط النسخي المملوكي باسم مملوك من مماليك السلطان الناصر محمد المتوفى سنة ١٣٤١ ميلادية، وفيه دوائر تشتمل على رسم رنوك مموهة بالمينا.



مائدة (كرسي) من النحاس، مخرم ومنقوش، ومكفت بالذهب والفضة،كان في مارستان الملك الناصر قلاوون، وهو على شكل منشور ذي ست أضلاع، وسطح هذا الكرسي وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير، ومن الكتابات المنقوشة عليه العبارتان الآتيتان "عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العامل المجاهد الرابط المشاعر المؤيد المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محبي العدل في العالمين نصير المظلومين من الظالمين ناصر الملة المحمدية ناصر الدنيا والدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي" و .. "عمل الفقير الراجي عفو ربه المعروف بابن المعلم الأستاذ محمد بن سنقر البغدادي السناي، وذلك في تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعمائة في أيام مولانا الملك الناصر عز نصره"



محراب من خشب منقوش ومكوّن من "حشوات" صغيرة مجمعة ويحبط بها إطار به نقوش بالخط الكوفي المشجر، كان في مشهد السيدة رقية، وهو أحد محاريب ثلاثة من الخشب، يمكن نقلها، وترجع إلى العصر الفاطمي في القرن الثاني عشر الميلادي وأصلها من الجامع الأزهر ومشهد السيدة نفيسة



لواح من الخشب المنقوش، أصلها من القصر الغربي الفاطمي، وجدت في مارستان قلاوون،
ويرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي



مشكاة من الزجاج المموه بالمينا، كانت في مدرسة السلطان الملك الناصر حسن التي شيدت بين سنتي ١٣٦٢ و١٣٦٣ ميلادية، وعلى هذه المشكاة جامات فيها بالخط النسخي: "عز لمولانا السلطان الملك الناصر"، وهي واحدة من ثمان وسبعين مشكاة محفوظة بالدار، أي نحو نصف المعروف من هذه التحف في العالم كله، وهذه المشكايات متشابهة الشكل ذات رقبة على هيئة قمع وبدن منتفخ ومنسحب إلى أسفل ولها آذان وقاعدة ترتكز عليها إذا أريد عدم تعليقها، وارتفاعها بين ٢٥ و ٤٥ سنتيمترًا، وكان الفتيل والزيت يوضعان في "قرايات" تعلق بسلاسل على الحافة العليا للمشكاة، وكان يشبك بالآذان سلاسل من نحاس أو فضة تجمع ببعضها تحت كرة مستديرة أو بيضاوية تعلق بالسلسلة الرئيسية المتصلة بالسقف.

عواصم مصر الإسلامية

الفسطاط - العسكر - القطائع - القاهرة

د. عبد الرحمن زكي

اشتغل العرب قبل الإسلام بالتجارة بين الأقاليم المحيطة بشبه جزيرتهم، وكان العربي الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يكون وسيطًا بين الأقاليم لمعرفته طرق الصحراء ولمقدرة إبله على اختراقها لصبرها على الجوع والعطش، ولمَّا كان محتاجًا إلى محطات تستريح فيها القوافل التجارية ليتناول رجالها فيها ما يلزمهم من الماء والعتاد؛ فقد قامت مدن صغيرة نشأت حول عيون المياه مثل مكة ويثرب (المدينة) وهما على ما يظهر أقدم المدن العربية في شمالي شبه الجزيرة.

وبعد أن بزغ نجم الإسلام انتشرت الدعوة المحمدية، وتكوَّنت الدولة العربية، برزت ظاهرة إنشاء المدن أو تمصير الأمصار، وأهم ما كان يرمي إليه ولاة المسلمين في البلاد التي فتحوها تأسيس قاعدة لملكهم الجديد لتكون معسكرًا لجنودهم ولكي تضم بين جوانبها دواوين حكومتهم وفي قلبها مسجد يقيمون فيه شعائر دينهم، وعلى هذا النحو أنشئت البصرة (سنة ١٦ هـ) والكوفة (سنة ١٨ هـ) في العراق، والفسطاط في مصر (سنة ٢٠ هـ)، وسنرى هل مهر العرب في اختيار

مواقع المدن الجديدة التي أسسوها، وإلى أي حد وصل نجاحهم في هذا المضمار.

ذلك هو النوع الأول من المدن الإسلامية الذي نشأ في عصر الحروب الإسلامية عندما قضت الحاجة إلى إنشاء مدن عسكرية يستقر فيها الجند المحاربون ولا يلبث أن يلحق بهم كثيرون من أفراد أسرهم، وبانتهاء عصر الفتح وإخلاد الخلفاء إلى الطمأنينة والاستقرار لم تتجاوز رغبتهم بناء قصر لهم ولحاشيتهم في مكان خاص سرعان ما تقوم حوله مدينة كما حدث في بغداد وسامرًّا والقاهرة.

ولقد انتقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة مهندسي العرب الأوائل لأنهم لم يراعوا الشروط الأساسية التي يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها، فذكر أنه يشترط في اختيار موقع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل إليها إلَّا بعد العبور، كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات، وضرب ابن خلدون مثلًا في سوء الإختيار لذلك مدن القيروان والكوفة والبصرة التي كانت أقرب إلى الخراب لأنها لم تراع فيها الأمور الطبيعية[1].

---

[1] – مقدمة ابن خلدون – الطبعة الثاثة بالمطبعة الأميرية عام ١٣٢٠ – ص ٣٢٩

وإن كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ملاحظاته فإن أقواله لا تنطبق على بعض المدن التي أسسها العرب في مصر كالفسطاط، وذلك إذا نظرنا إلى الأمور الجغرافية والسياسية التي أدت إلى تأسيسها لأن :

١- رأس دلتا النيل موقع له من الوجهتين الحربية والإدارية ما يجعله في مأمن من هجمات العدو ويسهّل وصول المؤن والأقوات لقربها من الأراضي الزراعية، كما له من الوجهتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة كانت الباعث على إيجاد مدينة مهمة فيه منذ فكر مينا في نقل العاصمة من مصر العليا.

٢- من مزايا الموقع الذي شيدت فيه مدينة الفسطاط توفر الشرط الذي يجب أن يتوفر في بناء المدن وهو أن يكون لا جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها، وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال، فلما أريد توسعتها بنيت العسكر فالقطائع، فالقاهرة، وفي العهد القريب بنيت العباسية ومصر الجديدة[1].

٣- الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل أثناء الفيضان، لذلك كان الامتداد على هذه الضفة ولم ينقل إلى الضفة الغربية إلَّا أخيرًا جدًّا.

[1] – مذكرات للمرحوم حسن الهواري أحد أمناء دار الآثار العربية سابقًا، وكان قد قدمها لكتاب هذا المقال لما ألف كتاب القاهرة.

من ذلك نرى أن عمرو بن العاص قد وفق في اختيار موقع العاصمة الأولى لمصر الإسلامية – الفسطاط – أكثر من توفيق زملائه القوّاد الآخرين في اختيار العواصم الأخرى التي أسسوها في العراق أو في شمال أفريقية كالبصرة والكوفة والقيروان.

البصرة والكوفة

كانت البصرة من أقدم المدن التي بناها المسلمون، فقد مصرها عتبة بن غزوان عام ١٦هـ[١] في موقع تلتقي فيه الطرق الآتية من نجد والشام وهضبة إيران، وبذلك أصبحت مركزًا تجاريًّا عظيمًا، فبقيت مدينة معروفة إلى اليوم بينما اندثرت الكوفة لما زالت الأحوال السياسية التي قامت عليها، وقد اتخذها العرب الفاتحون في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة، وبنوها أولًا بالبوص ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن، وقسموا المدينة إلى خطط بحسب القبائل وجعلوا عرض شارعها الرئيسي ستين ذراعًا، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعًا، وجعلوا عرض كل زقاق سبع أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم[٢] وقد بلغت مساحتها في إمارة خالد بن عبد الله القسري ٣٦ ميلًا مربعًا.

[١] – ابن الفقيه ص ١٨٨.

[٢] – الماوردي ص ١٧١

وبعد عام واحد أو بعد بضعة أشهر شيدت الكوفة بعد أن هزم سعد بن أبي وقاص الأمبراطورية الفارسية، وقد رأى أن يتخذ المدائن (قيطقون) عاصمة فارس قاعدة لجيشه ومركزًا لإدارة البلاد التي فتحها، فانتقل إليها واستوطنها، إلَّا أن هذا لم يعجب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر سعدًا بإنشاء مدينة أخرى للجيش العربي، اشترط في تأسيسها أن لا يفصلها عن دار الخلافة بالمدينة بحر أو جسر، فاختار سعد مكانًا على الجانب الغربي من نهر الفرات وبنى معسكره من الغاب في أول الأمر وبنى مسجد الكوفة وبالقرب منه دارًا له، واختطت كل قبيلة خطتها وهكذا نشأت الكوفة.

الفسطاط

ولما فتح العرب مصر (سنة ١٨ هـ) كانت عاصمة البلاد – الإسكندرية – ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة للإدارة والجيش، الّا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك بل أمره بإنشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف.

وسواء أصحت أسطورة اليمامة[1] المشهورة التي أفرخت في مكان فسطاط عمرو، أم لم تصح فإنه بعودته من فتح الإسكندرية تحول إلى ذلك المكان الفسيح الذي يقع شمال حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى، وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد

---

[1] – إن حادثة اليمامة قد تكون سببًا في التسمية، ولكن لا يصح قط أن تكون سببًا في اختيار

ودار الإمارة واختط عمرو الجامع العتيق، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، وكان عمرو قد ولي على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها، وهم: معاوية بن خديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني، وجبريل بن ناشرة المعافري [1] ويخالف بطلر Butler هذا الرأي فقد قال "والظاهر أن الذي قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التي كان يجهلها العرب [2]، والواقع أن تخطيط الفسطاط في ذلك العهد لم يكن من التعقد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط.

وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط الفسطاط واتخذ لنفسه دارًا وجعل فيها السلم الذي صعد عليه إلى سور حصن بابليون وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور، أما ياقوت فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفًا منقولًا عن ابن دقماق.

ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيرًا من مواضع الدور والأمكنة التي بناها رؤساء الجند والزعماء، وقد أخذ المستشرقون مما كتبه وأخرجوا تخطيطات مهمة في غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط. وقد حدّد المقريزي موقع الفسطاط في خططه فقال:

---

[1] – ابن دقماق – الانتصار = الجزء الأول ص ٣٢٢

[2] – بطلر – فتح العرب لمصر وترجمة محمد فريد أبو حديد – ٢٩٤

"اعلم أن موقع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاءً ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يُعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يُعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلّقة ينزل به شحنة الروم المتولي على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة".

وتاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه فالبلاذري يقول أنه كان بعد فتح بابليون في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية كما ذكرنا، ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الإسكندرية وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير ثم نمت نموًا سريعًا بعد عام واحد من إنشائها، وقد قال أبو المحاسن أن "عمرًا بنى الفسطاط في سنة ٢١ هـ، بعد فتح الإسكندرية".

ومما زاد في مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمينس تراجانوس (ترعة طرايانوس)، وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح لكنها أهملت في وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص وعادت لها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر.

الجامع العتيق

وبانتهاء عمرو بن العاص من بناء عاصمته الجديدة أنشأ الجامع العتيق – أقدم المساجد في مصر وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها – وقد اختار عمرو موضع بنائه في المكان الذي كان فيه لواؤه وقد عرف باسم مسجد أهل الراية، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون نواة الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها، وقد أورد ابن عبد الحكم في تاريخه خطبة عمرو التي قالها في يوم الجمعة وجاءَ فيها:

"حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لهم فيكم صهرًا وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فرجوكم وغضوا ابصاركم"، وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (صلعم) يقول له أبو بكر: "ولم يا رسول الله؟" قال: "لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة..الخ".

ولقد مرت أدوار كثيرة على "تاج الجوامع" كما أطلق عليه، ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار مصر في القرن الثالث عشر قال:

"ثم دخلت إليه فعاينت جامعًا كبيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه، وأبصرت العامة رجالًا ونساءً قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى، والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم، والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه

وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة.."

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في تاريخه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار":"وانتشر الموسيقيون في فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضًا ولولا إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين".

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو دارًا له وأخرى غربيها لابنه عبد الله عرفت بالدار الصغرى تمييزًا لها عن دار أبيه التي عرفت "بالدار الكبرى"، كذلك بنى الزبير بن العوام دارًا بجوار دار عبد الله [1]

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر اتسمت وزادت عمارة الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه [2]، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال كما ذكر ابن حوقل [3]، وقال القضاعي عن مقدار عماراتها أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجدًا و ٨٠٠٠ شارعا مسلوكا و ١١٧٠٠ حماما، ونحن نقول وإن كان في هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلا شك أن الفسطاط بلغت درجة كبيرة من العمران، وارتقت الفسطاط في عهد خلفاء بني أمية وصارت مقرًّا لولاتهم، وفيها شيَّد عبد العزيز بن مروان أمير مصر – من قبل أخيه الخليفة عبد الملك – دارًا

---

[1] – مجلة الهندسة – العددان ١٢،١١ بتاريخ نوفمبر وديسمبر ١٩٣٣

[2] – تاريخ التمدن الإسلامي – جورجي زيدان – الجزء الثاني ص ١٧٤

[3] – ابن حوقل رحالة بغدادي زار الفسطاط في النصف الأخير في القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي – المسالك والممالك)

للإمارة عُرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم، وقد علت هذه الدار قبة مذهبة شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبز المباني البيزنطية التي خلَّفها الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم.

ولعل دار الإمارة هذه كانت أول بناية إسلامية كبيرة بمصر وصل إلينا نبأ زخرفتها، وقد مرت على الفسطاط بعد ذلك أدوار متعددة: "فكانت في زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة"[١].

ولما زار الفسطاط ابن سعيد كانت قد تغيَّرت أحوالها وانقلبت محاسنها إلى أضدادها فقال في وصفه:"ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسوارًا مثلمة سوداء وآفاقًا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغص طرف الطريف"[٢]

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر وليها تسعة وعشرون

١ – ابن حوقل – المسالك والممالك

٢ – ابن سعيد – الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط

أميرًا مدة مائة وثلاثة عشر عامًا وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل محرّم سنة عشرين من الهجرة لما وليها القائد عمرو، وكان آخر أمرائها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن محمد السفاح، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر، وكان أولهم أبو عون عبد الملك.

خاتم الفسطاط

كان قد وقع للفسطاط أثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام "العسكر" ثم "القطائع" فإن الدور النهائي للفسطاط جاء عقب ذلك في مناسبتين كانت الأولى في أيام الشدة العظمى اثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي، وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد، أما المناسبة الأولى فكانت لما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسبغة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالي، فكتب إليه سرًّا يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعمل بدر على تخريب الفسطاط، فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن يعمروا ما شاءوا في القاهرة وغيرها، فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئًا في الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشًا مقفرًا.

أما المناسبة الثانية فهي حريق الفسطاط الهائل، الذي أمر بإضرامه شاور سنة (٥٦٥هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عموري (أملريك) الديار

المصرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها في أيدي الصليبيين.

أمر شاور بإخلاء الفسطاط وحرقها ويقول المقريزي "بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرًا مهولًا، واستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا، ومن ثم تحولت الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر" فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش [1] ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقاتل أهلها قتالًا عنيفًا"

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد، فانتقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع، وقد قال ابن سعيد إذ ذاك: "وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة"

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزي والقلقشندي عن مدينة الفسطاط في القرن التاسع الهجري معلومات دقيقة تتفق في أن تدهور

---

[1] – هذه البركة كانت واقعة جنوب مدينة مصر فيما بين النيل والجبل، وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويًا، وكانت تشغل من الأرض مساحة قدرها ١٥٠٠ فدانا – تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨١،٣٨٢.

المدينة كان يزداد قرنًا بعد قرن، وفي العبارة الآتية لخّص القلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط فقال:"ولم يزل الفسطاط زاهي البنيان نامي السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص، وأخذ سكانه في الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه، وتتابع الخراب في بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين".

وقال القلقشندي في مكان آخر:"وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطاطه وعفا رسمها واضمحل ما بقي منها وتغيرت معالمه"

وعلى هذه الحال تحولت الميناء النهرية والعاصمة الإسلامية الأولى إلى كيمان من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثري الجليل المرحوم علي بك بهجت؛ فكشف فيما بين عامي ١٩١٢و١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلَّا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع، ولا تزال دار الآثار العربية تزاول أعمال الحفر في تلك الأطلال تنقيبًا عن آثار العصر الإسلامي.

العسكر[1]

وبينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية (١٣٣هـ - ٧٥٠م) فرَّ مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس الهاشمي أول خلفاء العباسيين فلما وصل إلى مصر أشعل رجاله النار في الفسطاط وفي القنطرة التي تصلها بجزيرة الروضة، واتجه إلى شاطئ النيل الغربي، لكن ذهبت تدابيره عبثًا لأن القائد العباسي ورجال خوراسان وقفوا على وسائل عبوره وأدركوه بسرعة في قرية بوصير وقتلوه[2] ثم حملوا رأسه وطافوا في المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي.

وكأن رجال العباسيين لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق منذ قديم الزمان، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم نارًا في

---

١ - في الأصل المعسكر كما جاء في فتوح مصر لابن عبد الحكم، وكان يمتد العسكر على شاطئ النيل وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالي الزمن نحو خمسمائة مترا، وكان العسكر يحده جنوبًا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون (المجرى) وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزيني وغربًا بين شارعي السد والدبورة وشرقًا خط تصوري يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا إلى السيدة نفيسة المعروف قديمًا بباب المقدم، وعلى عهد المقريزي لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف – من تعليقات محمد بك رمزي.

٢ - راجع Quatremere, Mem. Sur l'Egypte. II. P. 452. Ravaisse, Essai I.P.419.; Lane – Poole. History of Egypt P. 31-36 – Cairo 32 – 33.

الفسطاط دمرت جزءًا كبيرًا منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة في مصر في مكان عُرف في صدر الإسلام باسم "الحمراء القصوى" ويمتد إلى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع [1].

في ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم، وبنى صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجند، ثم شيَّد الفضل بن صالح مسجد العسكر، وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور والبساتين والأسواق، وفي القطائع بنى فيما بعد الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه بالقرب من بركة قارون التي رُدمت وشَيَّد عليها كافور الأخشيدي دارًا صرف عليها مائة ألف دينارا ليسكنها.

وازدهرت العسكر لكثرة ما شُيِّد فيه من الأحياء العامرة، وقد سكنها الخمسة والستون واليًا الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة، وصار حيًّا زاهرًا لم يقلل من شأن الفسطاط كمركز مهم للتجارة أو كعاصمة ثانية لمصر.

وبتوالي السنين عظمت العمارة في العسكر إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر فنزل بدار الإمارة في العسكر، وكان لها باب

---

١ - Dr. Zaki Moh. Hassan Les Tulunides. P. 48

إلى جامع العسكر ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن علي وما زال بها حتى شيّد ابن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر.

واليوم ليس هناك أثر لهذه الضاحية، كما أن المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ وافٍ لحكامها فقد ساد عصرهم نوع من سوء الإدارة وفساد الحكم، ولقوا صعابًا كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بني أمية في مصر، وكان لزامًا عليهم أن يخمدوا الفتن التي أثارها الخارجون عن الإسلام أصحاب بعض المذاهب، أو يقاوموا الثورات التي شبّت بين القبائل العربية أو سكان البلاد الأصليين من الأقباط.

وقد ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في المعسكر حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة، وتخربت العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى كما ذكرنا لما تكلمنا عن خراب الفسطاط.

ولسنا نظن أننا في حاجة إلى أن نصف تلك الفترة من حكم العرب في الفسطاط أو العسكر فإن ولاة العسكر لم يتركوا أثرًا لهم نستدل منه على أعمال الإصلاح التي قاموا بها وليس أمامنا اليوم نموذج واحد من مبانيهم يرشدنا إلى طرازهم العماري، لكننا نقول أن العسكر عمّرت كقاعدة رسمية لمصر الإسلامية أكثر من قرن (١٣٣ – ٣٥٦هـ)، وتناول المقريزي وصف ما آلت إليه العسكر وذكر بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق والحمامات... إلخ.

وبـادوا فـلا مخبـر عنهـم	ومـاتوا جميعًـا وهـذا الخـير
ومـن كـان ذا عبـرة فليكن	فطينًـا ففـي مـن مضـى معتبـر
وكـان لهـم أثـر صالـح	فأيـن هـم ثـم أيـن الأثـر

القطائع

فإذا انتقلنا إلى العصر الذي زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسي رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال وقدم إلى وادي النيل والٍ تركي الأصل سنة ٨٤٦ ميلادية ثم بدأ الخلفاء في إقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القواد من الترك وكان هؤلاء القواد لا يميلون إلى الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس فكانوا يرسلون إلى مصر عمالًا من قبلهم.

كانت مصر من نصيب أحد كبار الأتراك واسمه "باكباك" ولّاه الخليفة المعتز بن المتوكل، ونظرًا لما كان الشاب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة انتخبهُ "باكباك" ليكون قائدًا للحامية العسكرية في الفسطاط، وكانت نفسيته تطمح إلى المجد فلم يمض على ولايته في مصر عامان حتى استقل بملكها.

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لا تسع حاشيته وتضيق بمطامعه فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط، فصعد إلى

المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيه من العمارة إلّا بعض مدافن المسيحيين واليهود فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته واختط في موضعها مدينته الجديدة "القطائع" ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م).

ويمكن القول بأن حدود العاصمة الجديدة كانت تمتد بين حد الفسطاط الشمالي حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء، وفيما بين الرميلة تحت القلعة إلى مشهد الرأس الذي عُرف فيما بعد بمشهد زين العابدين.

واختط الأمير ابن طولون قصره وأمر اصحابه ورجاله وأتباعه بأن يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط، واقتطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها، ثم عمّرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران...الخ.

ولما كثر أتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا أن يشيّد لهم جامعا آخر أوسع من الجامع الأول فأجابهم إلى التماسهم، واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣هـ - ٨٧٦م) وانتهى تشييده بعد عامين، وقد غالى في زخرفته الداخلية وعلّق في سقفه القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على أفاريزه آيات من القرآن لا

يزال بعضها ظاهرًا إلى اليوم... وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذي خلّد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم، وهو طليعة أجمل الآثار في مصر ويعتبر علمًا ظاهرًا في تاريخ العمارة الإسلامية.

وتولى "خمارويه" بعد وفاة أبيه؛ فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيرًا وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوّله إلى بستان فتان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وكسا أجسام النخل نحاسًا مذهبًا أو مفضضًا، وأنشأ في وسط قصره بركة ملأها بالزئبق وجعل في أركان البركة سككًا من فضة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة، وعمل فرشًا من آدم يمشي بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقي على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده أزرق العينين.

وبوفاة خمارويه هوى نجم الأسرة الطولونية وأخذت في الانحلال، أقبل محمد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد، فبلغ الحدود المصرية وهزم الأسطول المصري ثم انقضّ على القطائع (٢٩٢هـ – ٩٠٤م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمّامات، ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة، ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقرًّا للحكومة، ولما أصيبت مصر بالمجاعة

في أيام المستنصر قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة وأصبحت القطائع أثرًا بعد عين ولم يبق منها فيها غير الجامع.

كانت القطائع أول مدينة ملوكية بمعنى الكلمة أنشئت في وادي النيل في العهد الإسلامي، روعي في إنشائها وتخطيطها وتطورها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامرا، فإن كان الخليفة المعتصم قد أمر قائده أشناس ببناء سامرا عام ٨٣٦م بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى أن يتلافى نفس الخطر، فاستدرك الأمر وأنشأ تلك الضاحية ليبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة لملكه الساطع واتخذها بعده خلفاؤه من أسرته.

كانت أوجه الشبه متقاربة جدًّا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا، فقد كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع تضم كل قطيعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة جنسية أو رابطة العمل، وأصبح اسم القطائع علمًا على مدينة ابن طولون، وقد كان هذا الاسم يطلق في سامرا على كل أحياء المدينة إلّا القصور الملكية[1] وأمامه ميدان للعب الكرة وحدائق غناء وطرق متقاطعة، وطراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في إنشاء الدور الخاصة والعامة في سامرا كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يكون قد مضى على إنشاء سامرا نفسها أكثر من أربع وثلاثين

[1] – الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٥٧و٥٨

سنة، ومما يؤيد ذلك تأييدًا ماديًا الزخارف الجصية التي عُثر عليها في جدران دار طولونية كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢ [١].

والأثر الوحيد الذي خلَّفته القطائع وهو – الجامع الطولوني – يثبت لنا بجلاء أثر فنون سامرّا على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلًا.

القاهرة

والآن ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية فنرى أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته الأفريقية وأوصل حدودها إلى ساحل المحيط الأطلنطي عزم على فتح مصر، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا، فلما تولى الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما.

كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين، فقد سادتها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون، وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل بهِ "يعقوب بن كلّس" اليهودي الذي هاجر من مصر، وكان مقربًا من كافور الأخشيدي. طلب إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته المصرية فحشد مائة

[١] – راجع الفصل الخاص بالفن الطولوني من كتاب الدكتور زكي محمد حسن:
Les Tulunides, Paris, 1933

ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار[1].

وبدأت الحملة تحركها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ (٥ فبراير ٩٦٩م) فوصل جوهر إلى الإسكندرية واستولى عليها بسهولة ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٦ يوليو ٩٦٩م) وعبر النيل من منية الشلقان وسحق الجيوش التي أعدت للدفاع على الشاطئ الشرقي للنيل.

وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس، وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج [2] الذي يصل بين شمالي الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهي عند القلزم على البحر الأحمر، وكان السهل المذكور خاليًا من البناء إلّا بضعة مبان تتعلق ببساتين كافور وديرًا مسيحيًّا اسمه دير العظام، وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصنًا صغيرًا يسمى قصر الشوك [3] .

---

[1] – راجع للاستيفاء Capt. K. A. C. Creswell, the Foundation of Cairo. Bulletin The Faculty of Arts Vol I. Part II. 1933 وترجمة السيد محمد رجب بمجلة المقتطف.

[2] – يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب إلى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج وقد ردم الخليج المذكور في أواخر القرن التاسع عشر، ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري.

[3] – راجع للاستيفاء: Ravaisse, Essai sur l'histoire et sur La Topographie du Caire M. M. A. F.C. pp. 415 – 419

.

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم [1] اختط جوهر موقع القصر الذي قرر فيه المعز تنفيذًا لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط في الصباح التالي لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت، وبنى جوهر سورًا خارجيًا من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة، وكانت مساحة الأرض التي حدّدها هذا المربع ٣٤٠ فدانًا منها نحو سبعين فدانًا بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فدانًا للبستان الكافوري ومثلها للميادين، والباقي وقدره مائتا فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانبي قصبة القاهرة [2].

ولما كان جوهر قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل فكانت فيه انحناءات غير معتدلة، فلما شاهدها في الصباح لم يعجبهُ، لكنه قال "قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة" وتركه على حاله، وفي اليوم الذي خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التي تألف منها جيشه خطة فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم، واختطت جماعة

[1] – نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقريزي أن إنشاء القاهرة كان في ٦ جمادي الأولى سنة ٣٥٩ في نفس اليوم الذي اختط فيه جوهر الجامع الأزهر، ولكن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم المقريزي نفسه يذكر التاريخ الذي شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٧هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير، ويرى القارئ أن ما اتفق عليه المؤرخون في هذا الشأن بعيد الاحتمال فليس من المعقول أن يبدأ جوهر بناء القصر ليلة وصوله وليس من المعقول أن يجد اللبن الذي بنى به السور معدًا لاستخدامه.

[2] – الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك. ج ٢ . ص ٨١

من برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر [١]

وكان قصد جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلًا حصينًا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصرًا واحتفر خندقًا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها [٢]

أما القصر الذي بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذي رمى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب. ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية في أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التي أمدنا بها المقريزي ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أي بيانات عنه [٣]، وقد كانت القاهرة تُحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه، ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالي المواجه للفسطاط، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعاده المطل أو المحاذي لخليج أمير المؤمنين بعيدًا عنه بنحو ثلاثين مترًا.

---

١ – الخطط المقريزية – طبعة النيل – ج ٢ ص ١٧٩

٢ – الخطط المقريزية – طبعة النيل – ج ٢ ص ١٧٩

٣ – راجع K. A. C. Creswell – The Foundation of Cairo. P. 269

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور سمى المدينة في أول الأمر المنصورية تيمنًا باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز، واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة[١] وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها[٢]

ومن الواضح كما أشارت رايتماير Reitemeyer [٣] أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن، ويلاحظ لهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح، وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور القاهرة المصرية.

---

[١] – اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزي – بيت المقدس – سنة ١٩٠٨

[٢] – وقيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين، وعرّفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيه أجراسًا، وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة، فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابًا وقع على حبل من الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا، فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه، وقيل ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة – الخطط المقريزية – جـ ٢ ص ٢٠٤

[٣] – Reitemeyer, Beschreibung Agyptens in Mittelalter 185 – 193.

وصول المعز

وفي يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجًا لمقدمهِ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توابيت، وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد.

وذكر ابن عبد الظاهر أن المعز بعد دخوله القاهرة عتب على جوهر لأنه لم يؤسس المدينة الجديدة في مكان المقس بالقرب من باب البحر أو جنوبي الفسطاط لتكون قريبة من شاطئ النيل، وقد أورد المقريزي [1] هذا العتاب بقوله: "ياجوهر فاتك عمارتها هنا" مريدًا المقس [2] فكأن القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر ان تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكنًا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجأ إليه [3] فنشأت

[1] – اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزي ص ٧٤

[2] – كان المقس (المقسم) ضيعة تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل، وقد جعلها المعز مرفأً صناعيًا وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس، وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والمشار فيها ثم قلبت فقيل المقس، وفي عهد دولة المماليك أصبح خط المقس يطلق على المنطقة الكبيرة التي تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد وشارع الملكة نازلي وشارع عماد الدين، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة ومن الشرق بشارع الخليج المصري ومن الشمال بشارع الطواشي والشمبكي، تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة – جـ ٤ – ص ٥٣،٥٤.

[3] – الخطط المقريزية – طبعة النيل – جـ ٢ – ص ١٨٤

القاهرة مدينة متواضعة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينًا بعد قيامها مدينة ملوكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطنًا له (٣٦٢ هـ)

ولم يكن لقاطني مصر أن يدخلوا "المدينة الملوكية" إلَّا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة، وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجند على الطريقة البيزنطية، وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه.

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموًا محسوسًا وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين، وتبوأت مكانتها العظيمة ذات الرونق والبهاء ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا كما سنرى تؤلفان معًا إحدى مدن الإسلام العظيمة في العصور الوسطى.

أسوار القاهرة

ولنتكلم الآن عن أسوار القاهرة الأولى فقد بنيت من اللبن الكبير، وكان طول اللبنة الواحدة قدمين وعرضها خمس عشرة بوصة، وكان سمك جدران السور يسمح لفارسين بالمرور عليها معًا، وقد ذكر المقريزي أنه لم يبق من آثار هذا السور شيء في عام ١٤٠٠م، وذكر

أيضًا أنه شاهد جزءًا طويلًا من السور الذي شيده جوهر قائمًا على بعد خمسين ذراعًا من السور الحالي (وهو من أعمال صلاح الدين) في المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطة حتى دمرت عام (١٤٠٠ – ١٤٠١م)، ومن السهل أن نعرف امتداد المدينة التي شيدها جوهر القائد إذا تصوَّرنا نقطتين مهمتين، وهما أن باب الفتوح الحالي ومعه جامع الحاكم وباب زويلة ومعه جامع المؤيد يقعون خارج المربع الأصلي للقاهرة الأولى بمسافة قليلة، وكان عرضها ممتدًا من باب الغريّب خلف الجامع الأزهر من ناحية الشرق إلى الخليج من ناحية الغرب بالقرب من حي بين السورين (الموسكي)[١]

نرى أن موقع القاهرة قد اختير لغرض عاجل هو ستر الأماكن القريبة من المدينة الثلاثية: (الفسطاط والعسكر والقطائع) ووقايتها وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يهددون مصر؛ فتنفيذًا للخطة الدفاعية التي كلّف جوهر القيام بها أمر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة أذرع، وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة إحداهما في ربيع الأول ٣٦١ هـ والثانية في ٣٦٣ هـ، واستطاع القرامطة عبور الخندق في الغارة الثانية لكنهم لم يستولوا على القاهرة.

وبنى السور الثاني للقاهرة الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٨٠ هـ خارج سور جوهر لا على أساسه، وكان مثله في أن مادة بنائه

١ – K. A. C. Creswell : The Foundation of Cairo

كانت من اللبن للجدران ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج [١] .

أما السور الثالث فقد ابتدأ في عمارته صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ، وقد كان حينذاك وزيرًا للعاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، فلما استولى على الملك عام ٥٦٩ هـ وصار سلطانًا ندب للعمل في السور الطواشي بهاء الدين قره قوش الأسدي، فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن، وبدلًا من أن يحيط به القاهرة وحدها قرر أن يطوِّق به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط [٢] ولكنه توفي قبل أن يتم ذلك.

أبواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان، ففي الجنوب باب زويلة، كان في الأصل بابين بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر، كانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجازين [٣]

١ – محمود أحمد – مجلة الهندسة – أكتوبر ١٩٣٤ – الأعداد ٨ و ٩ و ١٠

٢ – محمود أحمد – المصدر السابق.

٣ – مسجد ابن البناء هو الذي يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح، وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالي بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم، وتسمية العامة بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة – تعليق محمد بك رمزي – النجوم الزاهرة – جـ ٤ – ص ٣٣٢.

باب الفرج:

يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوي من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فانثناء صغير به ضريح لمن يدعى "سيدي فرج" وهو ليس سوى باب الفرج، وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس.

باب النصر:

وموضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي، وقد ذكر المقريزي أنه رأى جزءًا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لجامع الحاكم[1].

باب الفتوح:

ذكر المقريزي أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده، وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية، وأن هذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكمي[2].

---

[1] – محمود أحمد – مجلة الهندسة – ١٩٣٤ ص ٣٣٢

[2] – الخطط المقريزية – جـ ٢ ص ٢١١،٢١٠ – طبعة النيل.

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة، وهى الجهة التي يسلك منها إلى الجبل بابان هما:

باب القرّاطين (المحروق):

يمكن تعيين موقع هذا الباب تعيينًا أقرب إلى الضبط نظرًا لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفًا باسم الباب المحروق [(١)] ويرى كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعًا من الباب المحروق الحالي [(٢)].

باب البرقية:

ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذي بحث فيه المقريزي أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية، ومن المحتمل جدًّا أن موقعه كان شمالي الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر، وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف فيما بعد بباب الغريب..

---

[١] – أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الأمير أقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢هـ، ففي أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقًا كما كانت العادة في ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة في الليل، فأوقدوا النار في الباب حتى سقط من ذلك الحريق، وخرجوا منه، ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق – المقريزي – طبعة جـ ٢ ، ص ٢١٣.

[٢] – انظر K. A. C. Creswell, The Foundation of Cairo. P. 273

أما في الجهة الغربية من القاهرة، وهي المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك:

باب السعادة:

وهو أول أبواب السور الغربي، وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي لمحكمة الاستئناف.

باب القنطرة أو الجسر:

وقد عُرف بذلك الاسم لأن جوهرًا بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجواني تجاه مدرسة باب الشعرية [1] وتسمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين أن ذلك الباب كان قائمًا غربي الخليج بميدان العدوي بين شارعي العدوي وسوق الجراية، وكان عند ذلك الباب قنطرة أخرى ذكرها المقريزي باسم قنطرة باب الشعرية، وتعرف في أيامنا باسم قنطرة

[1] – تعليق محمد رمزي بك بالنجوم الزاهرة – ج ٤ – ص ٣٩

الخروبي، والعدوي والخروبي مدفونان في مسجد واحد بجوار موقع الباب المذكور.

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة فكانت أولى خطواته بناء الجامع الأزهر، وقد أكد المقريزي أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبب لست بقين من جمادي الأولى سنة ٣٥٩ هـ، ولما تم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان عام ٣٦١ هـ (يونيو – يوليو ٩٧٢م)، ويعد الأزهر أول عمل فني عماري أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائمًا لليوم.

بني الجامع في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجودًا حينذاك بين حي الديلم وحي الترك في الجنوب، وكتب جوهر بدائرة القبة نقشًا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصهُ في الخطط المقريزية، وقد زال هذا النقش.

ويعدُّ التخطيط الأصلي الذي أنشأ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الاهتداء إليها، فقد زاد كثير من الولاة الفاطميين في بنائهِ وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة، واذا كان الجامع مازال يشتمل على بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزائه الحالية من عصر متأخر حيث قد زاد المستنصر

والحافظ في بناء الجامع بعض زيادات، ثم قطع عنه الأيوبيون كثيرًا مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه، وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع.

وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد يفسر الاسم الذي أطلق عليه، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب فاطمة التي سميت باسمها مقصورة في المسجد [١] وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت حينما أُنشئت القاهرة، وقال آخرون إنما سمي كذلك تفاؤلًا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه.

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حوَّل الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروّج فيها للمذهب الفاطمي، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامي، من ساحل الذهب إلى جزر الملايو، فقد تقابل في مقصوراته وفنائه المراكشي والجاوي والصيني والتونسي والجزائري والبولندي والزنجي تربطهم جميعًا رابطة الإسلام، وكان لكل طلاب أمة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والعروض والبلاغة والتفسير[٢].

---

[١] – دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثاني – العدد الأول ص ٥٢

[٢] – راجع ثبت المصادر لمادة الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثاني – العدد الأول ص ٧٠،٧١.

أخطاط القاهرة

ونتنقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتملت عليها القاهرة المُعزية فنقول:

سبق القول إنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها، وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتي:

١- حارة الروم: كانت حارتين، وهى التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر، وحارة الروم الجوّانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة، وقد نسبت إلى الأشراف الجوّانيين.

٢- حارة برجوان: منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي، وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدبر مملكته حتى قتله في أحد قصوره.

٣- حارة زويلة: منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر الواصلين صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة.

٤- حارة الجدرية: وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبى الخلفاء الفاطميين، وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسدّ عليهم أبوابها وحرقهم ليلًا.

٥- حارة الأمراء: بالقرب من باب الزهومة [١] وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين، وبها كانت دار الوزير عباس.

٦- حارة الديلم: منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة "أفتكين" غلام المعز ابن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز، وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة، لكنه وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقُه إلى القاهرة، فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطة وبها كانت دار الصالح طلائع بن رزيك.

٧- حارة الباطلية: وتعرف بقوم أتوا مع المعز، ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئًا، فقالوا: "رحنا في الباطل" فسموا الباطلية [٢]

٨- حارة الكافوري: كانت بستانًا للأستاذ الملك كافور الأخشيدي ثم من بعده صار للخلفاء المصريين.

٩- حارة قائد القواد: (درب ملوخية) سكنهُ في بادئ الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية

---

[١] - باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين - تعليق محمد بك رمزي - النجوم الزاهرة. جـ ٤ - ص ٣٦

[٢] - يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية في الجنوب الشرقي لجامع الأزهر.

أحد فراشي القصر، ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة قصر الشوك

١٠- حارة العطوف: منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمي وتدل على موقعها المنطقة التي يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر

١١- الوزيرية: منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة

١٢- حارة المحمودية: أو المصامدة، منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التي قدمت أيام العزيز بالله الفاطمي إلى مصر

ولقد زاد عدد الخطط وتطورت كثيرًا في أيام الأيوبيين والمماليك، مما لا يتسع هذا البحث لشرحِه ووصفه مفصلًا [١] .

القصور الزاهرة

وصف المقريزي قصور الفاطميين فيما لا يقل عن مائتي صفحة، وقد ذكرنا أن جوهر وضع أساس القصر الكبير في نفس الليلة التي اختط فيها القاهرة، واستمر العمل في أقسامه المتعددة عدة سنين، وقد اشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو

---

[١] – تبحث المراجع المفصلة –كالمقريزي وعلي باشا مبارك و Ravaisse

الذهب الأفيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم.

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير، وكان للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها: باب الذهب، ثم باب البحر، فباب الريح، وباب الزمرد، باب العيد، وباب قصر الشوك، وباب الدليم، وباب تربة الزعفران، ثم باب الزهومة، وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجمع أهل الدولة في يومي الإثنين والخميس لقاعة الذهب، وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومي العيدين.

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزير بالله عام ٤٥٠ هـ، وقد قال المسّبحي عنهُ "لم يبن مثله في شرق ولا في غرب"، وكانت له عدة أبواب أهمها باب الساباط وباب النبّانين وباب الزمرد وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض، كان ينزل منه الخليفة ممتطيًا ظهر بغلة تحيط بهِ فتيات القصر.

ولم يتم بناء القصر إلَّا في عام ٤٥٧ هـ في خلافة المستنصر، وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصوري إلى جوار حارة برجوان.

وشيد الفاطميون دورًا كثيرة ومناظر جميلة منها: دار الضيافة، ودار الوزارة الكبرى، ودار الضرب، ودار الذهب، وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الافضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب

السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده [1]

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي، وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن بدر الجمالي.

وكان العزيز ميالًا إلى اقتناء الكتب فجمع جانبًا كبيرًا منها خصص لها قاعات في قصره سماها "خزانة الكتب" وبذل الأموال في الإكثار من المؤلفات النادرة والمخطوطات النفيسة في شتى العلوم والآداب، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري [2].

جوامع الفاطميين

بين منشآت الفاطميين في القاهرة لم يبق إلّا الأبواب الثلاثة وجزء من سور المدينة وبقايا أربعة مساجد من ستة أقامها الفاطميون، هي الجامع الأزهر وقد تحدثنا عنهُ والجامع الحاكمي والجامع الأقمر وجامع المقس والجامع الظافري المعروف بجامع الفكاهين وجامع الصالح طلائع ابن رزيك، أما القصور فقد اندثرت.

---

[1] – الخطط المقريزية نقلًا عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ – طبعة النيل

[2] – الدكتور زكي محمد حسن – كنوز الفاطميين – ١٩٣٧

ومن الآثار الفاطمية الباقية إلى اليوم: جامع الحاكم وهو لأن الأزهر لم يحتفظ إلَّا بشيء قليل جدًّا من عمارته القديمة وزخارفه الأصلية، وكان العزيز هو الذي شيّد جامع الحاكم عام (٣٨٠ هـ) بمعاونة وزيره "ابن كلس" ثم أتمه الحاكم بأمر الله وأكمل زخرفته وشيد مئذنته (٤٠٣ هـ)، ولما استولى الصليبيون على القاهرة (١١٦٧ م) حوَّلوا جزءًا منه إلى كنيسة، فلما قدم صلاح الدين إلى مصر هدمها، وأبطل استعمال الأزهر وجعل مسجد الحاكم المسجد الرسمي للدولة..

وشيَّد الخليفة الآمر جامع الأقمر في ما بين القصرين، وكل أول مسجد من الحجارة المنحوتة، وكانت عقوده الداخلية من اللبن أقيمت على أعمدة من الرخام، وقد نقش على إفريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه عام ٥١٩ هـ.

أما مسجد الصالح طلائع فقد أنشأهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله عام ٥٥٥ هـ، كما يستدل على ذلك من الكتابة المنقوشة على وجهته البحرية، ويواجه هذا المسجد باب زويلة، وعُنيت بهِ في السنين الأخيرة لجنة حفظ الآثار العربية.

خاتمة الفاطميين

لقد بلغت القاهرة في نهاية أيام الفاطميين شأنًا كبيرًا من التقدم والرقي، وكانت قد أصبحت كالمدن الكبيرة، تكتنفها الطرقات والأسواق وتتوسطها البساتين الغنَّاء، وتشتمل على الحمامات الجميلة والوكالات

والمدارس، وتاريخ هذه العمائر ووصفها قد أفاضت فيه صفات الخطط المقريزية، وقد تناولها المقريزي في فصول بليغة ساحرة اقتبسها مما أَلَّفهُ عنها كتَّاب معاصرون للقاهرة المعزية أمثال: ابن زولاق، والمسِّبحي، والقضاعي، فقد أمدونا بتاريخ مناحيها الشاسعة التي تضيء بعظمة القاهرة من أعوامها الأولى إلى القرون الوسطى.

ليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين النفيسة إلى الخراب فإنها لم تكن شيئًا قليلًا بل كانت في مجموعها مدينة كاملة.

لما قُضِي الأمر بوفاة العاضد لدين الله آخر الفاطميين (٥٦٧ هـ) أبعد الوزير قراقوش جميع الفاطميين عن قصورهم وأخلاها منهم، واستولى عليها صلاح الدين وتسلم ما كان فيها من خزائن ودواوين وأموال وتحف، واستمر بيع نفائسها وكنوزها عدة سنوات، ثم أغلق أبوابها وملكها لأمرائه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة المطل على الخليج، ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة التي بلغت محتوياتها ١٢٠,٠٠٠ كتابا من أنفس الكتب استطاع القاضي الفاضل أن يحصل على طائفة كبيرة منها، وأقام صلاح الدين في دار الوزارة الكبرى حتى شيدت قلعة الجبل لكنهُ لم يسكنها، ولم تمض أعوام أخرى على تلك القصور الزاهرة حتى درست وشغلتها العامة.

وباستيلاء السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب على مصر (٥٦٧ هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد أن كانت سكنًا للخلفاء الفاطميين وأتباعهم وحصنًا يلتجئون إليه وقت الحاجة، وإن كنا نعرف أن القائد بدر الجمالي قد أذن لمن يستطيع البناء أن يعمر ما شاء من القاهرة مستخدمًا في ذلك أنقاض الفسطاط، وبالتدريج اتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارتا مدينة واحدة تشتمل على البساتين والقصور والدور والرباع والأسواق والفنادق والقيسريات والحمامات والأزقة والجوامع والمدارس.. الخ

كان صلاح الدين أول من جعل القاهرة عاصمة للديار المصرية يسكنها الخاصة والعامة ولم ينسج على منوال من سبقهُ من الخلفاء أو الحكام فأقام ضاحية ملكية على مثال القطائع وفرساي وبوتسدام، بل إنه عمل شيئًا جديدًا، فقد رأى أن يجمع تلك الضواحي ببناء سور حولها ويتوجها معًا بقلعته المشهورة فوق جبل المقطم ويضم تلك النواحي المبعثرة وميناء المقس ثم يلف حولها سورًا من الحجارة الكبيرة ويمد سور بدر الجبالي إلى المقس من الغرب وإلى سفح المقطم من الجنوب ثم يلتف به عند بقايا الفسطاط ليمس النيل، إلّا أن هذا المشروع الكبير لم يتم لاشتغال صلاح الدين بحملاته العسكرية في الشام، ولم ينته إلّا جانب يسير منهُ.

وأهم المميزات التي امتازت بها قاهرة صلاح الدين، قلعة الجبل التي شيَّدها في عام (٥٧٢هـ - ١١٧٦م)، فأتم تشييدها بعد ست سنوات (٥٧٢ هـ ١١٨٣م)، ومن أجل القلعة هدم عددًا كبيرًا من الأهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة، كما أزال ما وجده في موقع بنائها من المساجد في المعارك التي دارت بينهُ وبين المسيحيين، ولقد شاهدهم الرحَّالة الأندلسي ابن جبير لما زار القاهرة عام (٥٨٧ هـ - ١١٩١م) ووصف بعض آثارها ومشاهدها في رحلته المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ومات صلاح الدين قبل انتهاء بناء القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل، فاهتم بعمارتها وأكملها ثم جعلها مقر سلطته.

وفي خاتمة القرن السادس الهجري زار القاهرة الرحالة عبد اللطيف البغدادي، ثم ياقوت الحموي الذي قال عن القاهرة في معجمهِ "هى أطيب وأجل مدينة رأيتها" وكان قد وفد إليها في فاتحة القرن السابع.

واهتم السلاطين المماليك فيما يعد بأمر القلعة، فشيَّد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن أحدها القصر الأبلق الذي "كان يجلس فيهِ السلطان في عامة أيامه ويدخل عليه فيه أمراؤه وخواصه"، وثانيها الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان في أيام

المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل في الرعية، وثالثهما جامع الخطبة الذي يصلي فيه السلطان الجمعة [1]

وبدأ في عصر صلاح الدين نظام المدارس للقضاء على المذهب الشيعي، وكان لهذا تأثير خاص في العمارة الإسلامية في مصر، وعلى كل حال فقد أنشئت في القاهرة الكلية الشافعية بجانب المشهد الحسيني، وحوّل دار عباس الوزير الفاطمي إلى مدرسة سيف الدين لتدريس مذهب الحنفية كما أنشأ مدرسة أخرى لمذهب مالك عرفت بالقمحية، وكانت النتيجة أن زخرت مصر بالأدباء والمفكرين، وهُم رمز الحضارة الإسلامية الذين حملتهم مصر بعد ان أن تخلت بغداد عنهم، تلك الحضارة التي وإن كانت قد استقرت في آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين فقد كانت في مصر الأيوبية زاهرة يانعة، ولا سيما أن وادي النيل كانت له في ذلك العصر أكثر القيادة الإسلامية ضد الصليبيين.

وحسبنا الآن أن نسجل هنا بعض الأعلام المصريين، فمن الشعراء بهاء الدين زهير (٦٥٦ هـ) وأبو الحسين الجزار (٦٧٩ هـ) والسعيد بن هناء (٦٥٨ هـ) وأبو الحسن المشد (٦٥٦ هـ) وابن مطروح (٦٤٩ هـ)، ومن اللغويين ابن الحاجب الشهير (٦٤٦ هـ)، ومن الحكماء محمد الخونجي الفيلسوف (٦٤٢ هـ)، ومن الأصوليين أبو الحسن الأمدي

---

[1] – صبح الأعشى – الجزء الثالث . ٣٧٢

(٦٣٢ هـ)، ومن الشعراء الصوفيين ابن الفارض (٦٣٢ هـ)، وغير هؤلاء كثيرون في جميع نواحي التفكير من أدب وعلم وسياسة وتصوف [١].

قاهرة المماليك

فإذا انتقلنا إلى المماليك، هؤلاء السلاطين البواسل الذين استطاعوا أن يجعلوا بحر الروم الشرقي بحيرة مصرية وصدوا هجمات الصليبيين الذين حاولوا مرارًا التغلب على فلسطين مفتاح مصر، وجدناها قد تحوَّلت إلى مدينة من أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها من جديد.

ظفرت القاهرة أثناء حكم المماليك بطائفة من السلاطين الذين دوَّنوا في التاريخ المصري صفحات مجيدة من الأعمال النادرة في الفتح والسياسة والإنشاء، وكان في مقدمة هؤلاء السلاطين الأمجاد الظاهر بيبرس البندقداري ومنقذ الإسلام وهازم المغول والصليبيين ثم السلطان الناصر حليف التتار وصديق المؤرخ العلامة أبي الفداء..

ويُعد عصر الناصر من أزهر عصور مصر والقاهرة فلم يسبق أن كان للعمارة عصر ذهبي كعصر الناصر، امتاز عهده بالإنتاج الفني، وتشهد النفقات الكثيرة التي أنفقها السلطان وأمراؤه على المنشآت بما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والرفاهية، وأهم مبانيه في القاهرة: مدرسة

[١] – في ميدان الأدب المصري – بقلم محمد ضياء الدين الريس – ملحق العدد ٢٩٧٥ من السياسة الأسبوعية

بين القصرين، والجامع العتيق بالقلعة، وبهو الأعمدة أحد أجزاء القصر الأبلق بالقلعة.

ولقد شاهد الرحالة ابن بطوطة الذي وفد على مصر عام (٧٢٦ هـ – ١٣٢٦م) في عهد السلطان الناصر ابن قلاون كيف كان تنافس الأمراء المصريين على تخليد أسمائهم، فشيّدوا الخانقات والتكايا وغيرها، فقال أنه ليتعذر على الإنسان أن يحصي المدارس أو يصف عظمة بيمارستان قلاوون بآلاته العجيبة وصيدليته المجهزة بالعقاقير الوفيرة، أو يتصور المبالغ الوفيرة التي تُصرف يوميًّا عليه..

وقد وصف ابن بطوطة، القاهرة في تلك العبارات الطريفة:

"ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها من شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم"

ولقد بلغ عدد المساجد والمدارس التي شُيِّدت في القاهرة بين عامي (٧٢٠ و٧٦١ هـ) أربعين، وهذا العدد أكثر من ربع ما شُيِّد منذ

فتح العرب مصر إلى أيام المقريزي في أوائل القرن الخامس عشر، ومجموعها عنوان لما كان عليهِ عصر المماليك من مجد ورفاهية ورخاء.

ومما يؤسف أن القاهرة في عهد الناصر لم تنج من بعض الحرائق التي دبرها أفراد من القبط انتقامًا لما أصاب كنائسهم من التخريب (٧٢١ هـ – ١٣٢١م) فدمَّرت أحياء كاملة وشغل الأمراء والشعب بإطفائها عدة أسابيع وبسببها فقدت القاهرة كثيرًا من خططها الفخمة ودورها وآثارها.

قاهرة المقريزي

فإذا وصلنا إلى القاهرة التي عرفها المقريزي وعاش تحت سمائها (٧٦٦ هـ – ٨٤٥ هـ) وجدناها صارت قلب الديار ومركز تجارتها ومبعث ثقافتها ومنارة دينها، ولم تكن ذلك المعقل المحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية، وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا والدور، وانتشرت مبانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمية والنيل وانحسر النهر عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم "بولاق"، وشُيِّدت مجموعة من المنازل مكان بحري النيل القديم.

عاش المقريزي في عصر امتد في أواخر القرن الثامن إلى أواسط

القرن التاسع، وعاصر من سلاطين مصر اثنى عشر [1] سلطانًا متعاقبين، وشاهد مرحلتين مهمتين في تطور القاهرة، كانت المرحلة الأولى لما ارتدت القاهرة ثوب حياتها الجديدة عقب ما أصابها من وباء عاث فيها في عهد الملك الناصر فكانت من أروع محن مصر، والمرحلة الثانية في أوائل القرن التاسع بعدما منيت به من المصائب الثلاث: الوباء والغلاء وهبوط النيل، ثم عادت تسترد مكانتها [2]

وعلى الرغم من تلك الكوارث التي فجعت بها القاهرة وعوامل الفناء التي كانت تذبل مجتماعتها كلما اجتاحتها تلك المحن كانت تعود القاهرة دائمًا وتخرج من غمار تلك المصائب قوية باسمة وسرعان ما تسترد حسنها وعظمتها [3]

وفي عصر قايتباي امتلأت القاهرة بمجموعة رائعة من منشآته السامية، وهى مجموعة تترك أثرًا جميلاً في النفس المهذبة لما تحتوي

---

[1] – كانت للعلامة المقريزي حظوة عند الظاهر برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٩م) وابنه الناصر فرج فالسلاطين المنصور عبد العزيز بن برقوق ففرج فالمنصور فالمؤيد شيخ فالظفر أحمد فالظاهر تتار فالصالح محمد ابنه فالاشرف برسباي فالعزيز يوسف ابن برسباي والظاهر جقمق وكلهم من المماليك الجراكسة .

[2] – راجع الخطط المقريزية . الجزء الثاني

[3] – من آثار عصر المقريزي التي زانت القاهرة وزادتها بهاء ورونقًا مدرسة ايطمش وبرقوق ومسجد زين العابدين ومدرسة اينال والمحمودية ومسجد ابن عبد العزيز ومدرسة سودون وتكية برقوق وضريحه وكلية فرج وضريحه ومساجد بركة الرطلي والباسطي والحنفي والزاهد وبيمارستان المؤيد ومسجده وجامع الفخري ومدرسة تغري بردي، وغيرها من المنشئات الرائعة الجمال التي تدل على ما كانت عليه حالة الفنون والعمارة من رقي وازدهار.

عليه من عناصر الذوق الجميل، وهذه المخلفات تجتذب إليها حتى الآن محبي الفنون التي تمثل خير تمثيل فن العمارة المملوكية، ونذكر من تلك المخلفات: جامع تمرز، وجامع إزبك، وقصر يشبك، ومدرسة قايتباي وضريحه ووكالته بالأزهر وسبيله ووكالته بباب النصر والثانية بالسروجية، وقبة الفداوية، ومدرسة الروضة، ومسجد غانم، ومدرسة أبو بكر مزهر، ومسجد جقمز، ومدرسة إزبك اليوسفي.

وفي أيام أولئك المماليك لم تقف عظمة مصر السلطان الحربي بل كان لها أكثر منهُ سلطان علمي وأدبي، وكانت القاهرة مركز ثقافة الشرق، وكمثل من سلطان مصر الأدبي أنقل إلى القارئ الفقرة الآتية من كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر" قال:

"ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية والشراكسة حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخوراسان، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء، كالبوصيري صاحب البردة والسراج الوراق وابن نباتة المصري، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى، والأبشيهي صاحب المستطرف، وابن منظور صاحب

لسان العرب، وابن هشام النحوي العظيم، وابن عبد الظاهر والقسطلاني المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان، والصفدي صاحب الوافي، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه، والعيني المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن دقماق والمقريزي صاحب الخطط والمكين ابن العميد، وأبو الفداء صاحب تقويم البلدان والذهبي والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب، وابن فضل الله العمري صاحب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وابن عقيل، وابن تغري بردي صاحب "النجوم الزاهرة"، وجلال الدين السيوطي، والدميري صاحب "حياة الحيوان" وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني، وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة في الشرق كالإمام ابن تيمية، وابن القيم الجوزية، وابن خلدون"

وفي خلال القرن الخامس عشر لما فتح الترك مصر فقدت القاهرة أهم عنصرين في حياتها: مكانتها وسكانها، فقد نزلت عن عرشها مضطرة للأستانة متنازلة عن مقامها الروحي، وفقدت أيضًا شأنها التجاري، ولم تعد في أيام الأتراك أكثر من مدينة قديمة ذات آثار وذكريات، واستمر مركز القاهرة ثانويًّا حتى ولي الأمر في مصر "محمد علي"، فأعاد لها مكانًا خليقًا لها بين المدن الكبيرة وأعاد إلى القاهرة المجد القديم.

الجامع الأزهر

الأستاذ / يونس مهران

معهد الآثار الإسلامية

نجح الفاطميون بعد نضال عسير، في إقامة ملكهم العظيم في بلاد المغرب، وكانوا قبل ذاك قد أخفقوا في نشر دعوتهم في بلاد الشرق: الشام والحجاز وغيرهما، ولما استقروا هناك، بدأوا يتطلعون إلى البلاد الأخرى الإسلامية، ينشدون توسيع أملاكهم ونشر دعوتهم، وكان أمر امتلاك البلاد المصرية جُل آمال الخلفاء الفاطميين الأوائل وغاية رغبتهم، وقد يكون ذلك راجعًا إلى حسن إدراكهم ما لموقع مصر من المكانة السياسية والحربية، "ولأن ولاة مصر كانت إليهم ولاية الشام والحجاز، فكان امتلاك مصر امتلاكًا لهذين البلدين العظيمين، وتأسيس نفوذ الفاطميين، السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهي: الفسطاط والمدينة ودمشق [1] ولهذا لم يتوان الخليفة المهدي، أول الخلفاء الفاطميين، على أثر تأسيس خلافته في القيروان، في وضع الخطط لغزو مصر.

وإن كان المهدي قد أخفق في حملته، كما أخفقت الذين جاءوا بعده، إلَّا أن هذه الحملات مهّدت الطريق أمام جيوش الخليفة الرابع

---

[1] – "الفاطميون في مصر "للدكتور حسن إبراهيم حسن" (ص ٨١)

المعز لدخول مصر، عندما احتل أمرها بعد وفاة الأمير كافور الأخشيدي (١٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ)، وكان هذا بقيادة أبي الحسن جوهر بن عبد الله (جوهر الكاتب الصقلي أو الصقلبي) في يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٢ يوليه سنة ٩٦٩م) وشرع جوهر يوم دخوله في إنشاء مدينة جديدة تكون العاصمة الجديدة الفاطمية سماها "المنصورية" [١] ثم سميت "القاهرة المعزية" لما جاءَ الخليفة المعز إليها في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ – ٩٧٤م) وسمع قصة وضع أساسها.

إنشاء الجامع الأزهر

وشرع جوهر، بعد أن أنشأ العاصمة الجديدة، في تشييد مسجد جامع بها فقد كان من عادة المسلمين في ذاك الوقت، إذا ما دخلوا أو أنشأوا مدينة جديدة، أن يكون أول ما يتجه إليه نظرهم، إقامة الجامع الذي يجتمع فيه المؤمنون لأداء فريضة الصلاة وإصلاح شئونهم السياسية والاجتماعية ورأي الفاطميين من ناحية أخرى – وهم أهل شيعة – إن من حسن السياسة وبعد النظر، إقامة جامع خاص يكون موطن تعاليمهم، وأن لا يفاجئوا في بدء حكمهم جوامع أهل السنة في مصر بخطبتهم التي يقولون فيها (وصل على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله) فأنشأوا الجامع الأزهر.

---

[١] –كالمنصورية التي أنشأها المنصور بالله في شمال مدينة القيروان

وقد تعددت الأقوال عن سبب تسمية هذا المسجد بـ "الأزهر" فيقول بعض المؤرخين أن الجامع لما بني كانت تحيط بهِ القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة فسُمي "الأزهر" ويقول آخرون إن تسميته بالأزهر ربما كانت تفاؤلًا بما سيكون له من الشأن العظيم بازدهار العلوم فيه، ولكن ثقاة المؤرخين يقولون إنه لما كان الفاطميون ينتسبون إلى السيدة فاطمة "الزهراء" بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد سموه "أزهر" إشارة إلى اسم "الزهراء" جدتهم.



الأزهر مكان الدعوة الفاطمية الأولى

بعد دخول الفاطميين مصر، زيد في الخطبة والأذان ف ي الجامع العتيق [1] ومسجد ابن طولون [1] ، ففي اليوم التاسع عشر من شعبان

[1] – لما كان مسجد عمر أقدم مساجد مصر، لأن عمرو بن العاص أنشأه عام ٢١هـ، فقد أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع: ابن دقماق، جـ ٤، ص ٥٩

المعظم سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) أقيمت صلاة الجمعة بمسجد عمرو، وخطب فيه للخليفة المعز وأدخلت في الخطبة: "اللهم صل على عبدك ووليك، ثمرة النبوة وسليل العزة الهادية المهدية، عبد الله (الإمام) معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائِه الطاهرين، وأسلافه الأئمة الراشدين..."

واشترك جامع ابن طولون في الدعوة للفاطميين، ففي يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ – ٩٧٠ م)، أي بعد ثمانية شهور من إقامة الخطبة الأولى – التي أشرنا إليها في جامع عمرو – أدخل المؤذنون على الأذان بجامع ابن طولون "حي على خير العمل"، اتباعًا لعادة الشيعيين، وأتبع ذلك مسجد العسكر ثم جامع عمرو، فكان هذا بشرى للفاطميين بنجاح تعاليمهم.

ولا شك في أن الأزهر، قد اتبع الزيادات، التي زيدت في الخطبة والأذان في الجامع العتيق ومسجد ابن طولون منذ أقيمت الصلاة فيهِ، حتى مجيء المعز إلى القاهرة، ومن ثم نظمت الدعوة الفاطمية تنظيمًا خاصًّا على يد الخلفاء أنفسهم، وكان المعز والعزيز يذهبان إلى الأزهر للصلاة بالناس، ويقيمان الخطبة فيهِ بانتظام إلى أن فتح جامع الحاكم في سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) فأصبحت تقام بانتظام في أربعة مساجد: عمرو، وابن طولون، والحاكم، والأزهر.. على التوالي.

---

[١] – بناه أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦ – ٨٧٧م) وخطب فيه لأول مرة في رمضان سنة ٢٥٦هـ (٨٧٨ – ٨٧٩م): ابن دقماق، جـ ٤ ص ١٢١ و ١٢٢

وكان الأزهر ومناراته يزين بزينة فاخرة في أيام الفاطميين، وينار بالأنوار الساطعة في المواسم العامة، حتى أنشأ المعز منظرة في قصره سماها "منظرة الجامع الأزهر" يشاهد منها الزينات والأنوار[1] وقد كتب المؤرخ أبو المحاسن في كتابهِ "النجوم الزاهرة" عن صلاة الخلفاء بالجامع الأزهر:

"إذا أراد الخليفة أن يخطب يتقدم متولي خزانة الفروش إلى الجامع ويغلق المقصورة التي برسم الخليفة والمنظرة وأبواب مقاصرها، ثم يركب متولي بيت المال وعلى يد كل واحد منهما تعليق وفرشه، وهى عدة سجادات مفروزة منطقة وبأعلاها سجادة لطيفة لا تكتشف إلّا عند توجه الخليفة إلى المحراب، ثم يفرش الجامع بالحصر ثم يطلق البخور، ويغلق أبواب الجامع، ويجعل عليها الحجاب، والبوابين، ولا يمكن أحد أن يدخله إلّا من هو معروف من الخواص والأعيان، فإذا كان حضور الخليفة إلى الجامع، ضربت السلسلة من ركن الجامع ولا يمكن أحد من الترجل إلَّا عندها، ثم يركب الخليفة ويسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق، سوى الرسوم المستقرة والهبات والصدقات في طول الطريق، ويخرج الخليفة والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه وعلى الخليفة الطيلسان فعند ذلك يستفتح المقرءون بالقراءة في ركابه بغير رَهَجيّة والدكاكين مزينة مملوءة بأواني الذهب والفضة فيسير الخليفة إلى أن يصل إلى وجه الجامع ووزيره بين

[1] – المقريزي: اتعاظ الحنفاء: (ص ٧٥ – ٧٦)

يديهِ، فتحط السلسلة ويبقى الخليفة راكبًا إلى باب الجامع الأزهر الذي تجاه درب الأكراد، فينزل ويدخل من باب الجامع إلى الدهليز الأول الصغير، ومنه إلى القاعة المعلقة التي كانت برسم جلوسه، فيجلس في مجلسه وترخى المقرمة الحرير ويقرأ القارئون وتفتح أبواب الجامع حينئذٍ.. فإذا وجب الأذان، أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة، ورئيس الجامع على باب المنبر، وبقية المؤذنين من المآذن، فعندما يسمع قاضي القضاة الأذان يتوجه إلى المنبر فيقبل أول درجة وبعده متولي بيت المال ومعه المبخرة وهو يبخر أيضًا، ولا يزالان يقبلان درجة بعد أخرى إلى أن يصلا ذروة المنبر فيفتح القاضي بيده النزرير ويرفع الستار ويتناول من متولي بيت المال المبخرة وهو يبخر أيضًا ثم يقبلان الدرج أيضًا وهما نازلان بظهورهما، وبعد نزولهما يخرج الخليفة والقارئون بين يديه بتلك الأصوات الشجية، إلى أن يصل إلى المنبر ويصعد عليه، فإذا صار بأعلاه، أشار للوزير بالطلوع فيطلع إليه فيقبل الدرج حتى يصل إليه فيزر عليه القبة ثم ينزل الوزير ويقف على الدرجة الأولى ويجهر المقرءون بالقراءة، ثم يكبر المؤذنون ثم يشرعون في الصمت، ويخطب الخليفة حتى إذا ما فرغ من الخطبة طلع إليه الوزير وحل الأزرار فينزل الخليفة، وعن يمينه الوزير، وعن يساره القاضي، والداعي بين يديه، والقاضي والداعي هما اللذان يوصلان الأذان إلى المؤذنين، حتى يدخل المحراب، ويصلي بالناس ويسلم، فإذا انقضت الصلاة أخذ لنفسه راحة بالجامع، بمقدار ما يعرض عليه الرسوم ويفرق الإحسانات، وهي للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير، وللنائب في الصلوات

الخمس ثلاثة دنانير، والمؤذنين أربعة دنانير، ولمشارف خزانة الفراش وفراشها ومتوليها لكلٍ ثلاثة دنانير ...." [1]

وأصبح الأزهر مكانًا لبث التعاليم الفاطمية ونشرها، ومن المظاهر الجديدة التي عرفت، أنه لما مات بعض بني عم المعز، صلى عليه الخليفة في الجامع الأزهر، وكبر عليه سبعًا، ولما مات ميت آخر، كبر عليه خمسًا فقط، فاقتدى بذلك أثر ابن عبد طالب، الذي كان يكبر على الميت بحسب مكانته، وهذا يخالف مذهب أهل السنة، إذ يكبرون على الميت أربعًا فقط [2] .

الأزهر بعد الفاطميين

وتغيَّر الحال في عهد الأيوبيين، أهل السنة، فقد حاولوا محو كل أثر للفاطميين، أهل الشيعة، فأوقف صلاح الدين الخطبة من الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي، لأنه يفوقه سعة، كما أنه قطع عن الأزهر كثيرًا مما أوقفه عليه الحاكم [3].

---

[1] – النجوم الزاهرة: جـ ٤ ص ١٠٢ – ١٠٤

[2] – المقريزي: خطط (جـ ٢ ص ٣٥٣)

[3] – يقول المقريزي أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلد وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه الشافعي، وهو امتناع إقامة الخطبتين في بلد واحد، كما هو مذهب الأمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، كانت مساحة الأزهر ١٣٠٠٠ ذراعا ومساحة الجامع الحاكمي ٣٦٠٠٠ ذراعا.

واستمر الأزهر معطلًا من إقامة خطبة الجمعة فيه نحو قرن من الزمان، وكانت أيدي الحكام والأمراء المغتصبين تمتد إلى أوقافه وأمواله، والإهمال يعتريه حتى كادت تنهار جدرانه وأركانه، فلما تولى الملك السلطان الظاهر بيبرس اهتم بأمره فزاد في بنائه، وشجع التعليم فيه، وأعاد إليه الخطبة في عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦ – ١٢٦٧م) [١].

وسارت سياسة الأمراء بعد ذلك على إصلاح الأزهر وتوسيع اختصاصاته وإدخال الزيادات في بنائه كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد.

في عمارة الأزهر

ما كاد جوهر الكاتب يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء الأزهر في اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل سنة ٩٧٠م) [٢] ولم يكن بمصر من المساجد الكبرى سوى اثنين: جامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون.. والجامع الأزهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية في الديار المصرية.

وقد بُني المسجد في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان حينذاك بين حي الديلم في الشمال وحي الترك في الجنوب، وليس من السهل أن يعرف الرسم الأصلي للجامع عند بنائه

[١] – Van Berchem Corp.Inscr. Arab جـ ١ رقم ١٢٨

[٢] – المقريزي: خطط (جـ ٢ ص ٢٧٣).

ولا أن نصف تمامًا جدرانه ومبانيه وأجزاءه، فإنه لا يوجد في الواقع مصادر تبين لنا تصميمه الأول، ومع ذلك فيمكننا أن نقول أن الجامع كان يتكون من رواق ذي خمس بلاطات، تسير من الشمال إلى الجنوب، وكان على الجانبين، يمينًا وشمالًا، رواقان من ثلاث بلاطات، أما في الجهة المقابلة لحائط القبلة (المحراب) فكان بالرواق بلاطة واحدة، ويتوسط رواق القبلة "بلاطة" رئيسية Transept [1] يسير من الصحن إلى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة، وأقيمت قبة في الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على يمنة المحراب والمنبر ويقول المقريزي أنه لما ارتفع بناؤها كتب على دائرتها:"البسملة، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الأمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك في سنة ستين وثلاثمائة" [2] غير أن هذه الكتابة زالت منذ أمد بعيد.

ويقول المقريزي في خططه أيضًا أنه كان ببناء الأزهر الأول طلسم، حتى لا يسكنه طير ولا يفرخ فيه، عبارة عن صورة ثلاثة طيور، منقوشة كل صورة على رأس عمود، فكان فيها صورتان في مقدمة الجامع بالرواق

[1] – من خصائص العمارة الفاطمية، التي دخلت مصر مع الفاطميين من شمال افريقية، إنشاء مثل هذه البلاطة الوسطى الرئيسية transept وإقامة قبة بالرواق الأول على يمنة المحراب والمنبر، وكان أول استعمال لهاتين الخاصتين في الجامع الأزهر ثم في الجامع الحاكمي.

[2] – المقريزي: خطط، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦هـ ، جـ ٤ ص ٤٩ Corp. Inser. Arab Van Berebem جـ ١، ص ٤٣ رقم ١٠

الخامس: منها صورة في الجهة الغربية، وصورة في أحد العمودين الذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين، والصورة الأخرى في الصحن في الأعمدة القبلية مما يلي الشرقية.

وقد أدخل على بناء الأزهر كثير من الزيادات حتى أصبحت مساحته الآن حوالي ٢٦٣٢٣ ذراعًا (١٢ ألف مترا مربعا)، وأول من زاد في بنائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦ – ٤١١ هـ (٩٩٦ – ١٠٢٠م)، وقد زاد أيضًا في أوقافه التي أوقفها أبوه وغيرهما رباعًا بمصر، وضمن ذلك في كتاب، وجعل أيضًا للجامع الأزهر، تنورين وسبع وعشرين قنديلًا من فضة، وشرط أن تعلق في شهر رمضان، وتعاد إلى مكان جرت العادة أن تحفظ فيه[1].

وجدده المستنصر بالله معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) (١٠٣٦ – ١٠٩٣م) وسار على خطته حفيده المنصور أبو علي الآمر بأحكام الله، وقد صنع للأزهر على يد الآمر من عام ٥١٩ هـ (١١٢٥م) محراب من الخشب، يعلوه لوح خشبي كتب عليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر سيدنا المنصور أبو علي الإمام الآمر بأحكام الله[2]".

---

[1] – المقريزي: خطط (جـ ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٥)

[2] – هذه التحفة لا تزال محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة إلى الآن.

وفي عام ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) جدد الحافظ لدين الله عبد المجيد بعض أبنية في الأزهر، وأنشأ فيه مقصورة جميلة، عرفت بمقصورة "فاطمة" لأنه قيل أن فاطمة "الزهراء" رضي الله عنها، رؤيت بها في المنام، وكانت بجانب الباب الغربي الذي في مقدم الجامع بداخل الرواقات.

وانتهى عهد الفاطميين، وجاءَ الأيوبيون فلم يعنوا بأمر الأزهر، وترك هذا المعبد مهملًا نحو قرن من الزمان، حتى جاءَ السلطان المصلح العظيم الظاهر، بيبرس البندقدراي فاهتم بشأنه، وزاد في بنائه، وقدم إليه الهبات الوافرة، وأعاد إليه في سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ – ١٢٦٧م) الخطبة التي كان قد أبطلها الأيوبيون. وفي عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ – ١٣٠٣م) خرب مصر زلزال عنيف، فسقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمي وجامع عمرو وغيرهم، واهتم أمراء الدولة بتجديد هذه الجوامع، وكان الأزهر من نصيب سلار (من رجال دولة المماليك البحرية) فجدد مبانيه وأعاد ما تهدم منها.

وفي سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) جدد الجامع على يد محتسب القاهرة محمد بن حسن الأسعردي (من سعرد في أرمينية)، وحوالي هذا العهد بنى الأميران طيبرس وأقبغا عبد الواحد مدارس بالقرب من الأزهر، فبنى الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري – نقيب الجيوش – المدرسة الطيبرسية عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ – ١٣١٠م)، وبنى الأمير أقبغا عبد

الواحد المدرسة الأقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م)، وقد ألحقت هاتان المدرستان بالأزهر فيما بعد ومازالتا جزءًا منه إلى الآن.

وفي عام ٧٦١ هـ (١٣٦٠م) كان يسكن بجوار الأزهر الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري، فرغب هذا الأمير، أن يقوم بتجديد الأزهر لعل هذا يكون ذكرًا طيبًا من بعده، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فسمح له بذلك، فقام الجمدار الناصري بتحسينات كثيرة في الأزهر، ورتب فيه مصحفًا، وجعل له قارئًا، ورتب للفقراء طعامًا يطبخ كل يوم، ورتب فيه درسًا للفقهاء من الحنفية، ووقف على ذلك أوقافًا جليلة.

وفي سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ – ١٣٩٨م) سقطت منارة الجامع فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنصل وأنفق عليها من ماله الخاص، غير أن هذه المنارة لم تدم طويلًا، فقد سقطت في ٨١٧ هـ (١٤١٤ – ١٤١٥م)، ثم في عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ – ١٤٢٤م)، وكان يعاد إصلاحها في كل مرة، وقد أنشأ السلطان برقوق صهريجًا للماء في صحن الجامع، وعمل فوقه مكانًا مرتفعًا له قبة ويسيل فيه الماء، وأقام أيضًا ميضأة.

وشيد الطواشي جوهر القنقبائي المتوفى عام ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ – ١٤٤١م) المدرسة "الجوهرية" بالقرب من المسجد، عند الباب الشمالي الصغير تجاه زاوية العميان، وبداخلها مدفن لمنشئها.

ويعتبر الملك الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي (٨٧٢ – ٩١٠ هـ = ١٤٦٧ – ١٤٩٦م) المصلح الكبير للأزهر في القرن التاسع الهجري، فقد أحدث تجديدًا ظاهرًا في المسجد، فأنشأ الباب المسمى "باب المزينين" والمنارة التي هناك وفسقية وسبيلًا وصهريجًا وميضأة، وبنى على باب الجامع مكتبًا، ونقش في الحجر على الباب، بعد كتابة كوفية صعبة القراءة: "إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، نصرٌ من الله وفتحٌ قريب، (البسملة)، أمر بإنشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان الأشرف قايتباي بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة..."

ولا يزال اسم قايتباي على أحد المحاريب وبعض الشبابيك، ويقال أن رواق الشوام ورواق الأتراك من إنشائِه، ويشير ابن إياس (جـ ٢ ١٦٧) إلى أن هذا السلطان كانت لهُ عادة غريبة، فقد كان يذهب إلى الجامع الأزهر متخفيًا في زي مغربي للصلاة ولسماع ما يقوله الناس عنهُ.

وفي عام ٩٠٤هـ (١٤٩٩م) رتب السلطان أبو سعيد قنصوة الأشرف – خال الناصر محمد بن قايتباي – الخبز والخزيرة (عصيدة باللحم) في الأزهر في أيام شهر رمضان، ولما جاء الملك الأشرف قنصوة الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ = ١٥٠٠ – ١٥١٦م) ضاعف الإحسان في شهر رمضان وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين المعتبرة داخل باب المزينين.

وفي عهد العثمانيين ضعف شأن الجامع قليلًا، ولكنا نلاحظ مع هذا بعض مظاهر الرعاية له، فقد زاره السلطان سليم خان الأول كثيرًا، وصلى فيه، وأمر بتلاوة القرآن فيه، وتصدق على فقراء المجاورين، ويلاحظ أن طراز المباني التي أقيمت في العهد العثماني يدل على أنها أقل شأنًا مما تقدمها.

وفي عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ – ١٥٩٦م) جدد الشريف محمد باشا والي مصر (في عهد السلطان محمد الثالث من ملوك العثمانيين) الأزهر ورتب للطلبة والفقراء طعامًا يطبخ كل يوم فأقبل عليهِ الطلاب من جميع البلاد.

وفي سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣م) أوقف عليه محمد باي بن مراد باي حاكم ولاية تونس أوقافًا جليلة وجدد الأمير إسماعيل بك القاسمي، ابن اإواظ بك القاسمي، المتوفى سنة ١١٣٦هـ (١٧٢٣م) سقف الجامع وكان قد آل إلى السقوط.

وفي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) بنى الأمير عثمان كتخدا القزدوغلي زاوية يصلي فيها العميان وسميت "زاوية العميان" وجدد رواق الأتراك ورحبته ورواق السلمانية (الأفغانيين).

وفي سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨م) عمل أحمد باشا كور والي مصر مزاول لمعرفة المواقيت ووضع إحداهما في ركن صحن الأزهر على يسار الداخل فوق رواق مصر.

وفي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣م) أجرى الأمير عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش القازدغلي (المتوفى سنة ١١٩٠هـ = ١٧٧٦م) في الأزهر عمارات وخيرات عظيمة فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريبًا، إذ بنى مقصورة وأحسن تأثيثها، وأقام قبلة للصلاة، ومنبرًا للخطابة، وأنشأ مدرسة لتعليم الأيتام وعمل صهريجًا للمياه، وشيد له قبرًا دفن فيه، وتصدق على فقراء المجاورين بالطعام والكساء، يقول الجبرتي أنه أنشأ مقصورة في الجامع مقدار النصف طولًا وعرضًا، ويشتمل على خمسين عمودًا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقي وبنى محرابًا جديدًا ومنبرًا، وأنشأ له بابًا عظيمًا جهة كتامة (المعروفة بالدوداري) وهو المشهور بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتبًا لهُ قناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجًا عظيمًا وسقاية لشرب العطاش، وعمل لنفسه مدفنًا بتلك الرحبة وجعل عليهِ قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع منقوش عليها أسماء العشرة المبشرين بالجنة ووصفًا للنبي عليه الصلاة والسلام وبعض الأشعار، وعليها أيضًا أسماه أهل الكهف، وكتابات أخرى.

وبنى أمام المدفن المذكور رواقًا مخصوصًا بمجاوري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم، وبهِ مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب، وبنى بجانب ذلك الباب منارة، وأنشأ بابًا آخر جهة مطبخ الجامع (وهو المشهور بباب الشوربة) وجعل أيضًا عليه منارة وجدد المدرسة الطيبرسية

وجعلها مع المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير الذي أنشأه خارجهما جهة القبو الموصل إلى شارع السكة الجديدة بجوار المشهد الحسيني، وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين، وجعل على يمينه منارة [1] وفوقه مكتب، وبداخله ميضأة، ووراء ذلك درج المنارة ورواق البغدادين والهنود، وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة من أحسن المباني في العظم والفخامة، وزاد في رواق الشوام ووقف عليهِ، وجدد رواق المسكيين والتكروبين وأجرى زيتًا للمصابيح وزاد في مرتبات الجامع وأخبازه ولا سيما في يومي الإثنين والخميس فضلًا عما رتبه لرمضان من وسائل الرفاهة والتوسيع، فكان مجموع ما عمله في الأزهر مما تقصر عنه همم الملوك.

ويقول علي باشا مبارك: "الشائع أن السبب في إجراء هذا الخير العظيم على يد الأمير كتخدا هو الشيخ علي العدوي شيخ رواق الصعيد بالأزهر، حتى أن الأمير كتخدا – لحبه بالصعايدة من أجل الشيخ العدوي – جعل مدفنه بجوار هذا الرواق، وكان أكابر الأزهر يتخذون هذا المدفن مجلسًا يجتمعون فيه للمفاوضة والتشاور في المهمات"

ويقول الجبرتي إنه في زمنه، أي حوالي سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٩م) أصبح أكثرها منسيًّا، وفي عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨ – ١٨٧٩م) جدد الخديوي الأعظم محمد توفيق باشا نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلي

[1] – ازيلت هذه المئذنة سنة ١٣١٥هـ

باب الشوام، وأصلحت المدرسة الأقبغاوية التي فيها دار الكتب الأزهرية.

وفي عصر الخديوي عباس باشا حلمي الثاني أجريت كثير من الإنشاءات والترميمات في الأزهر، ففي سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ – ١٨٩٣م) جدد صحن الأزهر وما بدائرتيه من البواكي ودربزينات المقصورة القديمة، وأصلح باب المزينين وطرقته، والمدرسة الطيبرسية والأقبغاوية، وأنشئت دار الكتب الأزهرية الكبرى في المدرستين المذكورتين في سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦ – ١٨٩٧م).

وفي يوم ٢٤ شوال سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) احتفل بافتتاح الباب العباسي والرواق العباسي، وفي أيام الخديوي المذكور أدخل نور الغاز بالأزهر وأبطلت وقدته بالزيت وأجري كثير من العمارات ببعض أروقة الأزهر خصوصًا المتصلة بالسور الجنوبي.

ومما يجب ذكره أن الأمراء والملوك، كانوا يبذلون المال والجهود في تكبير هذا الجامع وتحسينه ابتغاء مرضاة الله، وقد قيل أن الأمير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية لما أحضر إليه القائمون بأمر بنائها حساب نفقتها استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها وقال "شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه"

وقد وصف علي مبارك باشا (الخطط الجديدة، ج ٤ ص ١٤ – ١٦) وصفًا دقيقًا بناء الأزهر الحالي، وهو يفصل القول في أبعاد البناء، وفي كلامه عن الأبواب، والمحاريب، والقبلات، ودورات المياه، وأماكن الوضوء، وصحن المسجد، ومناراته، ومزاوله، والأروقة والحارات، وصهاريج المياه، والمدرستين اللتين اسلفنا ذكرهما، وقد ذكر فرانز باشا في كتابه (القاهرة، ١٩٠٣ ص ٢١ وما بعدها) كثيرًا من التفصيلات التي تهم الأثري مثل بوابة قايتباي وقبلة المدرسة الطيبرسية وغيرهما.



محراب الجامع الازهر

وللأزهر الآن ثمانية أبواب: ففي الجانب الغربي الخارج إلى ميدان الأزهر بابان: (١) باب المزينين [1] وهو باب شامخ عظيم من زيادات الأمير كتخدا، (٢) والباب العباسي [2] وفي الجانب الجنوبي باب

---

[1] – الباب الأصلي وخلف هذا الباب وكان يجلس المزينون عنده لحلق رؤوس المجاورين فعرف الباب بتلك التسمية.

[2] – أحدثته نظارة الأوقاف في عهد الخديوي عباس الثاني عند تأسيس الرواق العباسي.

المغاربة [١] ، وباب الشوام [٢]، وباب الصعايدة [٣] وفي الجانب الشمالي باب الجوهرية [٤] وفي الجانب الشرقي باب الحرمين (وهو مقفل) [٥]، وباب الشوربة [٦].

وتسموا فوق أسوار الجامع وأبوابه خمس منارات: ثلاث من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع، إحداها منارة الأقبغاوية [٧] (عن يسار الداخل إلى الصحن) واثنتان عن يمين الداخل، مئذنة قايتباي [٨]، ومئذنة قنصوة الغوري[٩] وهى أعلى مناراته وأعظمها فخامة.

والمئذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة، ويتوصل إليها من رواق الصعايدة، والمئذنة الخامسة بباب الشوربة، وكلتا المنارتين الأخيرتين من

---

١ – تجاه درب الأتراك والتوصل منه إلى صحن الجامع بعد المرور من رواق المغاربة ورواق السنارية والأتراك.

٢ – ويسلك منه إلى المقصورة القديمة.

٣ – من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا ويتوصل منه بعد رواق الصعايدة ومدفن الكتخدا إلى المقصورة الجديدة.

٤ – باب صغير تجاه زاوية العميان ويسلك من إلى المقصورة الجديدة بعد المرور في المدرسة الجوهرية وهو من إنشاء جوهر القنقبائي.

٥ – من إنشاء الكتخدا.

٦ – من إنشاء الكتخدا ويتوصل منه إلى المقصورة الجديدة وسمى كذلك لقربه من مطبخ الشوربة الذي كان يطبخ فيه الأرز في رمضان ويوزع على فقراء الجامع.

٧ – أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد مع مدرسة الأقبغاوية.

٨ – أنشأها السلطان الأشرف قايتباي.

٩ – أنشأها السلطان الغوري.

إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا، ولا يؤذن عادة على تلك المآذن إلا العميان حتى لا تقع أنظار المؤذنين على سكان المنازل.

وحرم الجامع (مكان الصلاة) ينقسم إلى رواقتين.

(١) الرواق الكبير وهو القديم ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة.

(٢) الرواق الجديد [1] ويلي الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع ونصل إليه بدرجتين

وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع، ترتكز الباكيات على أعمدة من الرخام الأبيض الجميل وهى من طرز مختلفة أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف ويلاحظ أن العقود دقيقة الزاوية Pointed Arch.

ويحيط بالصحن طرقة مسقوفة نعتقد أنها أدخلت حديثًا في القرن الثاني الهجري، أما عقود باكيتها التي تطل على الصحن فمن النوع الفارسي Keel Arch وهو الذي يقول عنه كثير من المؤرخين أنه من خصائص العمارة الفاطمية في عصرها الأول وأنه دخل عليها من بلاد الفرس، والوقع أن هذا لا ينطبق على الحقيقة إذ أن العقود الفارسية دخلت مصر في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين، ولو أنها

---

[1] – أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا في سنة ١١٦٧هـ (١٧٥٣م).

دخلت مصر في العصر الأول للفاطميين (كما يقول المؤرخون) لكانت قد استعملت في باكيات الجامع الحاكمي أو في زاوية الجيوشي.

وكان في الأزهر سبع مزاول، أربع في صحنِه لمعرفة وقت الظهر على يمين الداخل من باب المزينين، وثلاث جهة رواق لمعرفة وقت العصر. وكان للجامع عشرة محاريب أزيل منها أربعة وبقي الآن ستة؛ ففي الرواق الجديد محرابان: المحراب الكبير المقام عليه قبة مرتفعة قائمة على ستة أعمدة وإمامه مالكي المذهب، ومحراب صغير عن شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير، وفي الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة [1] وعليِه قبة قديمة مرتفعة، وأمام هذا المحراب شافعي المذهب، وكان في الرواق القديم محراب بالقرب من باب الشوام وكان يعرف في الزمن الأخير بقبلة الشيخ البيجوري شيخ الإسلام، وكان بالقرب من رواق الشراقوة قبلة صغيرة من خشب تعرف بقبلة الخطيب الشربيني وكان عليها كتابة تدل على أنها عملت في سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٩م)، وكان في صحن الجامع أربعة محاريب صغار بظاهر المقصورة: محراب يلي رواق معمر، ومحرابان يكتنفان باب المقصورة الأوسط، ومحراب عند الباب الثالث، ومحراب صغير من القاشاني عند رواق الأتراك.

وفي دار الآثار العربية بالقاهرة الآن المحراب الذي أنشأه الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) ولوح الخشب الذي كان يعلوه كما ذكرنا

---

[1] – في الواقع ليس هذا المحراب محراب الجامع القديم الأصلي.

في أول كلامنا عن "عمارة الأزهر".

وللجامع منبر واحد، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع، وله خطيب واحد يخطب في الجمع والأعياد (وهو غير الأمامين المخصصين لمحرابي الرواقين القديم والجديد)، وهذا المنبر حديث [1] وكان في الأصل بالرواق القديم فنقله الأمير كتخدا إلى المقصورة الجديدة عندما أنشأها.

ومما يسترعي النظر مجموعة من زخارف الجص الأصلية باقية في الأماكن الآتية من الأروقة

(١) على العقود الأربعة الأولى من الجناح (البلاطة) الكبير الموصل من الصحن إلى القبلة

(٢) حول النوافذ (المقفلة الآن)، التي لا نزال نراها، في الأجزاء الباقية من جدار حائط القبلة الأصلية.

(٣) على العقود الخمسة الأولى من الركن الشمالي الشرقي، ويلاحظ أن وجه الجدار في هذه الناحية محلى بكثير من الزخارف الجميلة مما لا نراه في كثير من الجوامع.

(٤) زخارف تحلي الحائط الداخلي للبلاطة التي تلي الصحن، ويلاحظ أن هذه الزخارف تختلف في الرسم والترتيب، فهى في بطن العقود

---

[1] – المنبر الأصلي القديم نقل إلى الجامع الحاكمي

الثلاثة من كل طرف متشابهة تقريبًا، أما العقود الثلاثة عشر الوسطى فالجزء الواقع فوق الأكتاف محلى بلوحة مستديرة ذات زخارف جميلة عن زخارف بطن هذه العقود.

حرمة الأزهر وقداسته

وكان للأزهر حرمة وقداسة في النفوس، يدلنا على ذلك ما روي من أنه كان مقصد اللاجئين في القرون الوسطى [1] وكان يتلى في الجامع الأزهر أجزاءٌ من القرآن أو من البخاري دفعًا للأوباء أو المجاعات [2] ففي سنة ٧٨٩ هـ (١٣٥٩ – ١٣٦٩م) حصلت مجاعة بمصر فذهب سراج الدين البلقيني (عمر بن رسلان) إلى الأزهر وصلى فيه [3] وفي عام ١١٧٢ هـ (١٧٥٨ – ١٧٥٩م) سأل المجاورون شيخهم أن يقرأ لهم درسًا في البخاري عسى الله أن ينقذ القاهرة من شر الطاعون [4] ويذكر بعض المؤرخين أن أتباع محمد بك الألفي – من أمراء المماليك – ظلموا أهل قرية بلبيس فجاء أهلها صارخين ملتجئين إلى الأزهر فقام شيخه وعلماؤه وذهبوا إلى إبراهيم بك – وهو حاكم القطر المصري وقتئذٍ – وطلبوا منهُ رفع المظالم، وبعد أخذ وعطاء استقر القرار على رفع المظالم، وأن يكف الأمراء وأتباعهم عن مد أيديهم لأموال الناس ويسيروا في الناس سيرة حسنة، وكتب القاضي حجة بذلك...

[1] – ابن إياس (جـ ٢ ، ص ٢٦٢ و جـ ٣ ص ١٠٦

[2] – ابن إياس (جـ ٢ ص ١٧٧ و جـ ٣ ص ١١٦ و ١٦٧)

[3] – ابن اياس (جـ ١ ص ٣٠٦ و ٣٠٨)

[4] – علي باشا مبارك: خطط (جـ ٤ ص ٣٤ س ٣)

وهناك حادث آخر وهو أنه في عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) أكل العساكر الدلاتيه (نوع من عساكر الترك) الزرع وخطفوا ما صادفهم من الفلاحين والمارين وأخذوا النساء للإفساد، فحضر الناس رجالًا ونساءً إلى الجامع الأزهر يستغيثون فخاطب المشايخ الباشا والي مصر في ذلك، فكتب للدلاتيه بإقلاع عن ذلك.

وكما كان الأزهر ملجأ فإنه كان دار للتقوى والعبادة، يروي ابن إياس (ج ١ ص ٨١ س ٣) أن عمر بن الفارض الصوفي كان مقيمًا بهِ، كذلك كان أيضًا دارًا للفقراء والمعوزين، فقد أنشئت فيه كثير من المنشآت للفقراء والمتصوفة والزهاد وأهل التقوى والصلاح، ولكن يظهر أن كثيرًا من الأشرار لجئوا إلى الأزهر تحت ستار التقوى ويقال أن بعض الأشرار كانوا يتسربون إلى الأزهر في ليالي الموسم فيرتكبون فيهِ السرقات والمنكرات، ولهذا نجد عنهُ المقيمين فيهِ من المجاورين وأهل السبيل والكسالى، هم وما يملكون من متاع، ولكن ثارت عليهِ ثورة الأتقياء، كما تغير عليهِ السلطان المؤيد فقبض عليه وسجنه في دمشق [1] ويشايع المقريزي، في كتابه، أهل التقوى فيقول أن ما حل بسودوب كان جزاءً وفاقًا من الله على ما فعلته، وهنا يتحدث عن الصدقات الكثيرة والهبات الجمة التي كانت تنفق على الأزهر ويقول أنه كان بين الفقراء عجم وزيالعة وأناس من أهل مصر ومن المغاربة ولكل طائفة منهم رواق.

---

[1] – دائرة المعارف الإسلامية

الأزهر جامعة عالمية

لا شك في أن الأزهر أشهر جامع بين جوامع الإسلام، وأعظم معهد للعلوم الإسلامية، تقصده الوفود من جميع أنحاء المعمورة الإسلامية لتعلم العلم الذي أمرهم دينهم الحنيف بطلبِهِ ولو بالصين، وهو مجتمع للمسلمين يجتمعون فيهِ، ويتعاشرون سنين مع تفرق جنسياتهم واختلاف بلدانهم.

ويقول المقريزي إن أول درس في الأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة، ففي صفر عام ٣٦٥ هـ (٩٧٥م) جلس قاضي مصر (أبو الحسن عليّ بن النعمان بن محمد بن حَيّون) بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، ويعرف هذا المختصر (بالاقتصار) وكان جمعًا عظيمًا، وأثبت أسماء الحاضرين.

واستمر الحال على ذلك حتى جاء الخليفة العزيز بالله ابن المعز الفاطمي، وكان هو ووزيره أبو الفرج يعقوب ابن كلس من فحول العلماء، فاختار خمسة وثلاثين عالمًا وجعلهم مدرسين في الأزهر، وإذا كان يوم الجمعة حضروا إليه وتحلّقوا فيه لقراءة الفقه على مذهب الفاطميين، وكانوا شيعة إسماعيلية، ودراسة الحكمة وعقائد الدين وفنون الأدب وقد ابتنى لهم الخليفة العزيز منازل حول الجامع [1] يسكنون فيها وأجرى

---

[1] – هذه المنازل ألحقت بالأزهر الشريف فيما بعد وصارت من أروقته، ولعل السبب في إطلاق لقب "المجاورين" على طلبة الأزهر هو سكن علماء الأزهر وطلبته في مثل هذه المنازل المجاورة له من قديم الزمان.

لكل منهم رزقًا معلومًا كما كان يخلع عليهم في عيد الفطر وفي غيره من المناسبات، بذلك كان العزيز أول من حول الأزهر إلى جامعة وأول من ابتنى بجواره مساكن لسكنى طلبته، ويجب أن نذكر في هذا المقام أن اليد الفعالة التي كانت تقوم بكل هذه الإصلاحات هى في الواقع لوزيره يعقوب بن كلس الذي كان يدين باليهودية أولًا ثم تحول عنها إلى الإسلام.

وأول من وقف الأوقاف على الأزهر هو الحاكم بأمر الله، ولقد نقل هذا الخليفة الكتب التي كانت بدار الحكمة، إلى مساجد الأزهر، والحاكم، والمقس، فخص الأزهر منها بما يقرب من النصف، وسار الخلفاء الفاطميون على سنة اعلاء شأن الجامعة الأزهرية حتى جاء الأيوبيون فأهملوها، ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس عرش مصر خصّ الأزهر بعنايتهِ واتخذه معهدًا للعلم وزاد في اوقافه، ومنذ ذلك الحين ابتدأ الأزهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرقي، حتى صار الطلاب يهرعون إليهِ من كل أرجاء العالم الإسلامي، وفاق المعهد الأزهري المدارس الإسلامية خلال قرون عدة لأسباب عديدة منها – أن غزوات المغول في الشرق وما ترتب عليها من خراب وتدمير خارج مصر قضت على معاهد العلم هناك، وكذلك انقراض الحضارة العربية وتفكك المسلمين في بلاد الأندلس أدى إلى دمار مدارسه الزاهرة، فكان طبيعيًّا أن يهرع الراغبون في العلم إلى الجامعة الأزهرية من مختلف البلدان.

وهناك عوامل أخرى ساعدت على نمو العلوم والآداب في الأزهر:

وقوعه في مكان يتوسط العالم الإسلامي، وقربه من الحجاز ومكانة مصر الاقتصادية وصفتها العربية وامتداد القارة الأفريقية فيما يلي مصر، وما كان لوادي النيل من ثقافة عظيمة قديمة العهد.

إجراء الأرزاق على المشتغلين بالعلم في الأزهر

عرف الخلفاء الفاطميون منذ الساعة الأولى، أن قوام الأمور النافعة في العالم لا يكاد يتم، إلَّا بمساعدة المال فسخره المعز في نصر قضيته وتوطيد سلطانه ثم جاء العزيز فلم يكتنف هو ووزراؤه ومن جاء بعد بإجراء الأرزاق والصلات على المشتغلين في الأزهر بل وقفوا أيضًا هم ومن جاء بعدهم من الأمراء والأغنياء – في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية – الأوقاف الكثيرة، للصرف على هذا المعهد الجليل وإطعام فقراء الطلبة الملتحقين بهِ.

ويقول المقريزي إن أول من وقف على الأزهر الأوقاف هو الخليفة الحاكم بأمر الله ثم تبعهُ في إسداء الخيرات على هذا الجامع الشريف كثير من الأمراء محبي البر من المتقدمين والمتأخرين.

هذا الأمير الناصري [1] رتب للفقراء والمجاورين طعامًا يطبخ كل يوم وأنزل للجامع قدورًا من نحاس جعلها فيهِ، وهذا الملك قنصوة الأشرف [2] رتب الجزيرة (نوع من العصيدة باللحم) في شهر رمضان

[1] – أحد أمراء المماليك

[2] – المتولي سلطنة مصر في سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م)

لكل الطلبة، وهذا الملك قنصوة الغوري [1] رتب في شهر رمضان من كل سنة ٦٧٠ دينارًا تصرف على مطبخ الأزهر ومائة قنطار من العسل، وخمسمائة أردب من القمح، وهذا الأمير عبد الرحمن كتخدا [2] زاد في مرتبات الجامع وإخبازه ورتب لمطبخه في أيام رمضان من كل يوم أرزًا وسمنًا ولحمًا وزيتًا وأطعمه أخرى للمجاورين.

ومما يذكر بالإعجاب عناية أعضاء العائلة المالكة العلوية الكريمة وأغنياء مصر بهذا الجامع الشريف وطلبته، فالأميرة زينب هانم كريمة العزيز محمد علي أوقفت أوقافًا على الأزهر بلغ ربعها عشرين ألف جنيه وهو الآن أعظم من ذلك.

ووقف السيد أبو بكر راتب باشا رحمة الله عليه في سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) أوقافًا غنية على رواق الحنفية وخصهُ بالحنفية من المجاورين المصريين.

ووقفت المرحومة الأميرة جميلة هانم كريمة ساكن الجنان إسماعيل باشا خديوي مصر العزيز أوقافًا عظيمة، ووقف محمد باشا أبو سلطان كبير أعيان منية ابن خصيب مائة وخمسين فدانًا من أجود أطيانه في المنيا لينفق من ريعها على الجراية اليومية في الأزهر.

---

[1] – المتولي في سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠م)

[2] – أحد أمراء الأتراك

ووقف أمير الأمراء محمد باي ابن مراد باي ابن الأمير الكريم محمد باشا ابن مراد باشا حاكم ولاية تونس أوقافًا كبيرة في سنة ١١٠٥هـ (١٦٩٣م)

وقبل إنشاء نظارة كانت الأعيان الموقوفة بيد من يعينهم القاضي الشرعي نظارًا على تلك الأوقاف، ومما يؤسف له أن كثيرًا من أولئك النظار قد أهملوا في حفظ الأعيان الموقوفة فتلاعبت بها الأيدي واندثرت، ولو بقيت كل تلك الأوقاف لكان للأزهر اليوم إيراد يفوق إيراده الحالي أضعافًا مضاعفة.

وكانت تعطى للمشائخ المدرسين ولبعض الطلبة أرزاق من مرتبات مالية شهرية وخبز يسمى "الجراية" وكان العالم المدرس إذا توفى عن أولاد أجري بعض رزقهِ عليهم وكلفوا الاشتغال بطلب العلم، ومما يذكر أنه في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ – ١٣٨٣م) في عهد الأمير بهادر الذي كان ناظرًا على الجامع استصدر مرسومًا من السلطان برقوق ينص على أن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي وترك شيئًا فإنه يؤول إلى المجاورين أقرانه بالجامع، وقد نقش هذا على حجر عند الباب البحري القديم ولكن هذا النقش غير موجود الآن[1] .

---

[1] – المقريزي: خطط (جـ ٢ ص ٢٧٦)

مساكن الطلبة

ذكرنا أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله كان أول من بنى سكنًا للطلبة والعلماء، ثم اهتم من بعده الأمراء والوزراء وأغنياء الأمة المصرية في تعمير الأزهر وتوسيعه، فألحقوا بهِ مساكن للطلبة تسمى بالأروقة، وهى عبارة عن غرف ومبانٍ [1] أنشئت في أوقات مختلفة، متصلة بأسوار الأزهر، وأعدت بجانبها محلات الغسيل والطبخ، ووصلت بنفس الجامع، فأصبح الطالب لا يحتاج إلى الخروج من الأزهر إلا نادرًا، وسهلت على الطلبة الغربة، وساعدت الفقير على التعلم، وآخت بين أفراد الأمة الإسلامية المتباعدة أطرافها.

ولكل جهة من جهات القطر المصري ولكل إقليم من الأقاليم الإسلامية الأجنبية عن مصر رواق بالأزهر، وتقسيم أروقة الأزهر إما بحسب الجنس، وإما بحسب المذهب، وهى تسعة وعشرون رواقًا:

إلى اليمين من الباب العباسي (الواقع إلى جنوب باب المزينين) يوجد الرواق العباسي وهو ثلاث طبقات وفيه أروقة الأكراد، والهنود، والبغداديين، واليمانيين، ودكارنة صليح، ورواق الطيبرسية، ورواق الأقبغاوية، ويليه في السور الجنوبي رواق الجبرتية ثم رواق الترك ورواق السنارية ورواق البرنية ورواق المغاربة، وبعده في السور الجنوبي أيضًا باب الشوام وعن يساره رواق الجاويين وعن يمينه رواق السلمانية

[1] – الرواق بمعناه الدقيق هو الفضاء الواقع بين عمودين

(الأقبغان) ورواق الشوم، ويليه في السور نفسه إلى جهة الشرق باب الصعايدة وعلى يمينه رواق الصعايدة، وفي السور الشرقي إلى جهة الجنوب باب الحرمين (وهو مقفل) وداخله رواق الحرمين، ويليه باب الشوربة وعن يساره رواق البرابرة، وفي السور الشمالي إلى جهة الشرق باب الجوهرية في داخله رواق الجوهرية، وعلى يمينه رواق أهل الشرقية، وفي خارِج الجوهرية رواق زاوية العميان الذي لا يسكنه غيرهم، وبجواره رواق الحنابلة، وفي الجانب الغربي من السور الشمالي أروقة البحارة والفشنية، والفيوميين والشنوانية، ورواق الحنفية، ورواق ابن معمر.

ويلحق بالأروقة الحارات، وهى أماكن ليست ذات غرف، ويضع فيها الطلبة خزائنهم ودواليب أمتعتهم، ولكل حارة شيخ من العلماء يرجع إليهِ طلبتها في أمورهم، وعدد الحارات الآن اثنتا عشرة حارة. البشاشة، والواطية (في ظهر رواق المغاربة)، والسلمانية (على يمنة باب الشوام والممشى) والزهار (بين بابي الجوهرية والشوربة)، والنفراوية، والبيجرمية، والمناصرة (قريبة من رواق الشرقاوية)، والعفيفي، والزرقاوية، والجيزاوية (في صحن الأزهر) والشنوانية (في الجانب الشمالي وراء الصحن).

التعليم في الأزهر

ذكرنا أن أول ما درس في الأزهر الشريف الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة، ولكن المعروف ان الفاطميين عنوا فوق ذلك بعلوم التوحيد والرياضة والمنطق والبيان والنحو والطب والفلك وتقويم البلدان

وغيرها، إذ أن المعروف أن مكتبة الفاطميين، كانت محتوية على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب، وعلى كرتين سماويتين، إحداهما من الفضة، وعلى خرائط جغرافية ثمينة، ويقول المقريزي أن أحد الرحالة دخل هذه المكتبة "فرأى فيها مقطعًا من الحرير الأزرق، غريب الصنعة، فيه صورة أقاليم الأرض، وجبالها، وبحارها، ومدنها، وانهارها، ومساكنها، وجميع المواطن المقدسة، مبينة للناظر، مكتوبة أسماء طرائفها ومدنها، وجبالها، وبلادها، وأنهارها، وبحارها، بالذهب وغيرها بالفضة والحرير"، ولما جاء صلاح الدين الأيوبي وأراد أن يقضي على كل أثر للفاطميين فتح بمصر مدرسة لتعليم الفقه الشافعي والمالكي وانقطع الأزهر عن تدريس العلوم الفاطمية فكان أول ما درس به من مذاهب أهل السنة مذهب الأمام الشافعي، رضي الله عنه، ثم المذاهب الأخرى، ثم جاء السلطان الظاهر بيبرس – من ملوك الجراكسة – فأعاد للأزهر حياته العلمية والدينية، وقد اهتم من جاء بعده من سلاطين وأمراء بأمر الجامعة الأزهرية وعنوا على الخصوص بتدريس العلوم الدينية وكذلك علوم النحو والصرف والبلاغة، وكانت العلوم العقلية من رياضية وغيرها تدرس أيضًا ولكن كان يشتغل بها عدد قليل من الطلاب، واعتقد البعض أن الاشتغال بهذه العلوم مخالف للدين فأهمل تعلمها وأصبح الطلاب ينظرون إليها ساخطين ويفرون منها، قال المرحوم علي باشا مبارك ناظر المعارف العمومية في خططه: "وينهى أهل الأزهر من يقرأ كتب الفلسفة ويشنون عليه الغارة وربما نسبوه للكفر" ولكن لم يستمر إهمال هذه العلوم طويلًا فقد جعلت تأخذ مكانتها بين العلوم التي تدرس في الأزهر وأصبحت

طريق الوصول إلى المنصب والشهرة، وبعثت شيئًا من الحياة يدب في الركود الذي أصاب التعليم في ذلك المعهد القديم، ثم توالى إرسال بعثات علمية إلى أوروبا يختار أعضاؤها من طلاب الأزهر ولكن كان الأزهريون يسخرون من اخوانهم الذين تعلموا في أوروبا

ولما جاء الخديوي إسماعيل عمل على إصلاح الأزهر إصلاحًا يتفق والآراء الجديدة وأعانه على تنفيذ مشروعه شيخ الأزهر لعهدة الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي وكان فقيهًا واسع الخبرة ولم يكن في الأزهر قبل زمن هذا الشيخ الجليل امتحانات للطلاب، بل كان يمنح الطالب شهادة غير رسمية من شيخه (إجازة) تدل على أنه قد فهم نصًّا معينًا، وتؤهله للتدريس، وهذه الطريقة كانت لا تؤدي طبعًا إلى إيجاد عناصر تتميز بالكفاءة والجدارة، فاستصدر الشيخ المهدي الأمر العالي الخديوي [١] بتنظيم امتحانات للطلبة عند التخرج، وتكوين لجنة من ستة أعضاء وتعيين المواد التي يجب تأدية الامتحان فيها، وتقرير مكافآت دراسية للطلاب، وقسمت العلوم الدينية والشرعية إلى إحدى عشرة مادة يؤدى فيها الامتحان، وأصبح الطالب يحصل أولًا على الشهادة "الأهلية" (ثانوية) ثم الشهادة العالمية (عالية) إذا أراد المزيد

على أن الخديوي توفيق باشا والخديوي عباس الثاني اللذين خلفا الخديوي إسماعيل لم يضنا على الأزهر بالرعاية والعطف، وبذل الخديوي عباس الثاني كل ما في وسعه لتحقيق الإصلاح ولكنه كان يجد

[١] – تجد نصه في جريدة وادي النيل الصادر في ١٦ فبراير سنة ١٨٢٢م

معارضة قوية، لأن الكثرة الغالبة من الأزهريين، كانت إلى ذلك الوقت، لا تقبل التجديد ولا ترضاه.

كتب الأزهر

تعطينا الكتب العديدة التي كانت تدرس في الأزهر فكرة عن الذوق العلمي والأدبي، الذي كان سائدًا في العصور الأخيرة، وقد أخذت الكتب القديمة، على مر الأيام تصاب بالعقم لأنها وقعت فريسة للجمود الديني، ويلاحظ أن الأزهر، شأنه في ذلك شان بلاد الشرق، يميل إلى المؤلفات الأحدث عهدًا التي يضعها الشراح، وهى شروح تعليمية بحتة تصور الإسهاب المجرد من الابتكار، وكان الأجدر أن يدرس أمهات المؤلفات القديمة القيمة، في الأدب والشعر واللغة والتاريخ والنحو والبيان، والدين، والحديث الشريف والأصول وغيرها وعلى كل حال فقد بدأ الآن يتنبه إلى ذلك بفضل ما يقوم به رجال الإصلاح في الأزهر الشريف وعلى رأسهم العلامة الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي.

مكتبة الأزهر

ذكرنا أن مكتبة الفاطميين كانت مملوءة بدرر الكتب النادرة وأنها كانت محتوية على مائة ألف مجلد في علوم الطب والتوحيد والرياضة والمنطق والبيان والنحو والبلاغة والفلك وتقويم البلدان وغيرها [1]، وكان

---

[1] – راجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٢٧ – ٣٢

أعيان المسلمين يتبارون في تسهيل طلب العلوم الإسلامية ونشرها بما يقفونه عليها من خزائن الكتب ونوادر المصنفات في مختلف العلوم والفنون قبل اختراع الطباعة، فلم يمر زمن طويل حتى امتلأت خزائن أروقة الأزهر بالمجلدات والكتب مع ما كان يحل بها في كثير من العصور.



مكتبة الأزهر

وفي سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦ – ٩٧م) في عصر الخديوي عباس الثاني وفي مدة مشيخة شيخ الإسلام حسونة النواوي، أسست "دار الكتب الأزهرية الكبرى" وأعدت لها مدرستا الأقبغاوية والطيبرسية،

وجمعت فيها كتب الأروقة والحارات، عدا كتب قليلة، ورتبت وجلدت الكتب، ونظمت أحسن تنظيم، وأخذ أعيان المسلمين يمدون هذه الدار بنفائس الكتب: وفي مقدمّهم أحمد مختار باشا الغازي وأحمد باشا راشد وورثة سليمان باشا أباظة والمرحوم السيد حسن باشا جلال الحسيني المستشار بمحكمة الاستئناف، فبلغ الآن عدد ما فيها من الكتب أكثر من تسعة وأربعين ألف مجلدا، والمخطوط منها نحو ١٥ ألفًا. وهناك مكتبات فرعية خاصة ببعض اروقة الأزهر، ففي رواق المغاربة مكتبة فيها حوالي ٨١٥٧ مجلدًا وفي مكتبة رواق الترك حوالي ٦٩٠ مجلدًا، وفي مكتبة رواق الشوام أكثر من ٣٣٥٠ مجلدًا، وفي مكتبة رواق الحنفية حوالي ١٤٠٠ مجلدات، وأمناء هذه المكاتب خاضعون لمراقبة دار الكتب الأزهرية الكبرى.

مشيخة الأزهر

لم يكن للأزهر في عصره الأول شيخ يتولى أمره كما هو اليوم، بل كان يرعاه الملوك والأمراء، ويدبر شئونه الحقيقية مشايخ المذاهب الأربعة، ومشايخ الأروقة، وفي القرن الحادي عشر الهجري رأى ولاة الأمور أن مكانة الجامع أصبحت تستدعي وجود رئيس يراقب أموره، ويدبر شئونه، يكون "شيخ الجامع الأزهر" وينتخب من بين كبار العلماء الممتازين مهما كان مذهبه.

وكانت العادة في أول الأمر أن شيخ الجامع يستمر قائمًا بأعماله حتى وفاته، حتى أنه لما كبر الشيخ إبراهيم الباجوري عن القيام بأعباء منصبه سنة ١٢٧٥هـ (١٨٥٨ – ٥٩م) أمر خديو مصر المغفور لهُ سعيد باشا أربعة مشايخ ليديروا حركة الجامع بطريق التوكيل، غير أن هذا النظام أُبطل في سنة ١٢٧٨هـ (١٨٧٠ – ٧١م) بعزل الشيخ العروسي من مشيخة الجامع، وشيخ الجامع الأزهر بمصر هو شيخ الإسلام، وهو أيضًا عضو في مجلس البلاط الملكي، وعضو في المجلس الأعلى للأزهر، ورئيس لمجلس إدارة الأزهر، ومدير لإدارة أوقاف الأزهر، ورئيس أعلى للمعاهد الدينية بالقطر المصري إلى غير ذلك من المناصب العالية الأخرى، فليس من شك في أن لهُ أعظم مقام ديني إسلامي في المملكة المصرية، وأن مكانته سامية، لا في مصر وحدها، بل وفي جميع بلدان العالم الإسلامي

وليس لدينا في الواقع تاريخ مفصل لمشايخ الأزهر قبل عام ١١٠٠هـ (١٦٨٨ – ٨٩م) إذ أن الجبرتي هو الذي اهتم بتدوين تاريخ المشايخ من هذا التاريخ، وكان يتولى المشيخة في ذلك الحين علماء المالكية، وأول شيخ منهم هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي، رجل العلم والإصلاح، المتوفى في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٠١هـ. ثم جاء بعده الشيخ إبراهيم محمد البرماوي الشافعي المتوفى سنة ١١٠٦هـ ثم شيخ الإسلام الشيخ محمد النشرتي المالكي وتوفى سنة ١١٢٠هـ ، ثم الشيخ عبد الباقي البلقيني، ثم الشيخ محمد شنن المتوفى (سنة ١١٣٣هـ)، وكان أعظم المصريين ثروة فقد ترك لولده أربعين ألف جنيها من الذهب، ماعدا الفضة وغيرها، وترك غير ذلك املاكًا وضياعًا وأطيانًا ومماليك، فبدد ابنه

كل هذه الثروة ومات مدينًا. ثم تولى الشيخ إبراهيم موسى الفيومي المالكي وتوفى عام ١١٣٧هـ. ثم انتقلت المشيخة إلى الشافعية وأول من تولاها شيخ الإسلام العالم الشيخ عبد الله محمد عامر الشبراوي وتوفي سنة ١١٧١هـ. ثم جاء بعده العالم الجليل الشيخ محمد سالم الحنفي الشافعي، صاحب المؤلفات في الحديث والعقائد والفرائض والجبر، وقد توفي سنة ١١٨١هـ. ثم تولى الإمام الفقيه الشيخ عبد الرءوف السحيني المتوفى سنة ١١٨٢هـ. ثم العلامة الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهوري المتوفى سنة ١١٩٢هـ وبعد وفاته قام نزاع على من يتولى المشيخة بين أنصار الشيخ عبد الرحمن بين أنصار الشيخ عبد الرحمن العريشي والشيخ أحمد العروسي وقد انتهى الأمر بتولي الشيخ أحمد العروسي الشافعي المتوفى سنة ١٣٠٨هـ. ثم تولى الشيخ عبد الله حجازي الشرقاوي المتوفى سنة ١٢٢٧هـ، وكانت أيامه من أشهر الأيام في تاريخ الأزهر بسبب حصول الحملة الفرنسية في زمنه وما جرته على الأزهر من متاعب وبلاء. ثم تولى الشيخ محمد الشنواني المتوفى سنة ١٢٣٣هـ ثم الشيخ العروسي المتوفى سنة ١٢٤٥هـ، وجاء بعده الشيخ أحمد على الدمهوجي المتوفى سنة ١٢٤٦هـ، ثم الشيخ حسن محمد العطار، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، وقد كان متضلعًا من العلوم الرياضية، والشرعية والعربية والشعر. وجاء بعده الشيخ حسن القويسي المتوفى سنة ١٢٥٤هـ وكان كفيف البصر شريفًا، ذا هيبة عند الأمراء والعظماء. ثم تولى الشيخ أحمد عبد الجواد الصائم السفطي المتوفى سنة ١٢٦٣هـ، ثم الشيخ إبراهين محمد البيجوري الذي لم يتمكن في أواخر أيامه لكبر سنهِ وشيخوخته، من

القيام بأعباء المشيخة فوكل أربعا من كبار العلماء بالمشيخة وهم: الشيخ أحمد كبوه العدوي المالكي، والشيخ إسماعيل الحلبي الحنفي، والشيخ خليفة الفشني الشافعي، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعي، ولما توفى الشيخ البيجوري (سنة ١٢٧٧هـ) بقي الأزهر بلا شيخ مدة أربع سنوات، استمر الوكلاء في ولاية المشيخة، وتسمى هذه المدة "فاصلة الوكلاء" وفي سنة ١٢٨١هـ تولى المشيخة الشيخ مصطفى العروسي وعزل عنها سنة ١٢٨٧هـ، فتولى الشيخ محمد المهدي العباسي الحنفي ولكنه عزل عنها – بطلب من العرابيين – في عام ١٢٩٩هـ فتولاها الشيخ محمد الأنباني.

وبعد انتهاء الثورة العرابية أعيد الشيخ المهدي في ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ ولكنه استقال من الأزهر والإفتاء سنة ١٣٠٤هـ. وأعيد الشيخ محمد الأنباني حتى استقال في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ، وجاء بعده الشيخ حسونه عبد الله النواوي الحنفي وفصل في المحرم سنة ١٣١٧هـ، ثم تولى الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي في عام ١٣١٧هـ وتوفي إلى رحمة الله فجأة بعد شهر واحد، فتولى بعده الشيخ سليم البشري المالكي واستقال في ذي الحجة سنة ١٣٢٠هـ، فتولى الشيخ السيد محمد الببلاوي واستقال في المحرم سنة ١٣٢٣هـ، فتولى الشيخ عبد الرحمن الشربيني واستقال في ذي الحجة سنة ١٣٢٤هـ، ثم تولى الشيخ حسونه النواوي للمرة الثانية واستقال سنة ١٣٢٧هـ، فتولى الشيخ سليم البشري – للمرة الثانية – إلى أن توفي لرحمة الله يوم الجمعة ٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ، فتولى الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي إلى سنة ١٣٤٦هـ،

ثم الشيخ الجليل العلامة محمد مصطفى المراغي إلى سنة ١٣٤٨هـ، فتولى الشيخ محمد الأحمدي الظواهري حتى سنة ١٣٥٤هـ، فعاد للمشيخة ثانية فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي.

المراجع

(١) خطط المقريزي

(٢) الفاطميون في مصر: للدكتور حسن إبراهيم حسن

(٣) خطط علي باشا مبارك

(٤) الإسلام والتجديد في مصر سنة ١٩٣٥

(٥) ابن إياس

(٦) كنز الجوهر في تاريخ الأزهر: للشيخ سليمان الزياتي

(٧) "رسالة إلى المؤتمر": لمصطفى بيرم

(٨) "الأزهر": لمحب الدين الخطيب

(٩) محاضرات: للأستاذ كرسويل ألقيت بمعهد الآثار الإسلامية

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية

(١١) النجوم الزاهرة

(١٢) كنوز الفاطميين: للدكتور زكي محمد حسن

مصادر مهملة في دراسة التاريخ الإسلامي

د. زكي محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

يشكو أساتذة الجامعة، والمشتغلون بدراسة التاريخ الإسلامي في مصر مما يرونه في أبحاث الطلاب، ورسائلهم من ضعف، وقصور. ويبذل أساتذة الجامعة جهودا كبيرة في إصلاح هذا النقص، وفي تلقين تلاميذهم طرق البحث العلمي الصحيح، وقد أوشكت جهودهم أن تؤتي ثمرها. وأن كنا نلاحظ أن التقدم بطيء، ولا يتفق، والمكانة التي يجب أن تكون لجامعتنا بوصف كونها أكبر الجامعات التي تعني بدرس حضارة المسلمين، وتاريخهم.

ولا ريب أن أساس هذا البطء أما هو كثرة عدد الطلاب، وقلة الأساتذة المشتغلين بتدريس التاريخ الإسلامى، وإرهاقهم بالدروس، والمحاضرات، وصرفهم عن تخصيص جزء كاف من وقتهم الثمين لمقابلة تلاميذهم، والبحث معهم في ما يصدر من مؤلفات، ودراسات، وإرشادهم إلى المصادر، والمراجع، والإشراف على ما يكتبونه من نبذ، ورسائل، لتقويم أخطائهم، وهدايتهم إلى أصلح الطرق للدرس، والتحصيل.

والواقع أن الاتصال الشخصي بالأساتذة، والإفادة من التحدث

إليهم في غير أوقات المحاضرات العامة، والدروس المقررة أمر تنبهت له الجامعات، والمدارس العالية في أوروبا حتى أننا لنجد بعضها يطبع بيانات بالمواعيد التي يخصصها كل أستاذ الاستقبال طلابه في بيته، أو في حجرات البحث بالجامعة، أو المدرسة.

فضلا عن أن معاهد التعليم العالي عنيت أشد العناية بحجر البحث فيها، فزودها بأثمن المؤلفات، وفرضت على الطلاب قضاء ساعات فيها للدرس، والرجوع إلى الأساتذة فيما يستعصى عليهم فهمه، والاسترشاد بآرائهم في مختلف المسائل العالمية. ولعل ألمانيا أكثر الأمم مسكا بهذا النظام في جامعاتها، ومدارسها حيث يسمونه Seminar [1] أما الجامعات الإنجليزية، والفرنسية فيعتمد طلاها على الاتصال بالأساتذة في بيوتهم، أو في مكتبات معاهدهم أكثر من اعتماده على ساعات «السيمنار».

على أننا لا نعني في هذا المقال بطلاب الجامعة المصرية، والمعاهد العالية بقدر ما نعني بغيرهم ممن يبحثون في التاريخ الإسلامي؛ لأن لأولئك أساتذة في الجامعة يقومون برسالتهم العلمية على خير ما يسمح به إرهاقهم، وغير ذلك. وقد ظهرت بشائر نجاحهم في إعداد شبيبة صالحة للدرس، والبحث العلمي أما «المتطوعون» فلا رقيب عليهم، ولا مرشد لهم بل أن لبعضهم ذكر

([1]) من اللاتينية seminarium بمعني «مشتل، أو مكان أزرع فيه الأشجار الصغيرة».

مستفيضًا، وقد عودهم كثيرون من القراء على أن يصدقوا ما يسطرون، وأن يعجبوا ما يكتبون، وأن يروا فيهم أعلاما في التاريخ الإسلامي، حتى لقد بلغ بعضهم أن ينقلوا عن المقريزي، وعن أبي المحاسن بن تغري بردي، وعن غيرها من مؤرخي العرب ما يملأون به صحيفتين، أو ثلاثا فيها آراء بعض الكتب المدرسية ثم يدفعون بهذا كله إلى صحيفة تنشره بتوقيعهم ،وإلى جانبه عبارة : "النقل ممنوع بتاتًا" كان مؤلفي العرب قد بعثوا من قبورهم؛ ليحظروا الإفادة من كتبهم، أو كان هذه أصبحت وقفا على هؤلاء «المتطوعين»، أو كأنهم أحدثوا في التاريخ الإسلامي أحداثا، وكشفوا في دراساته نظريات يحرصون على تسجيلها، والاحتفاظ بها.

نترك إذن طلاب الجامعة لأساتذتهم، ونحدث هنا غيرهم ممن يكتبون في التاريخ الإسلامي عما نراه في كتاباتهم من مآخذ حبذا لو عملوا على إصلاحها.

العلاقة بين التاريخ الإسلامي، والآثار الإسلامية

ولعل أخطر ما نلاحظه في ما يكتب في مصر عن التاريخ الإسلامي أن لا صلة بينه، وبين الآثار الإسلامية في شيء. فكان مصادر التاريخ الإسلامي عند كتابنا لا تتجاوز ما في كتب الأدب، والتاريخ من سير، وحوادث. أما الكتابات التاريخية المرقومة على العمائر، والمساجد، والأضرحة، والتكايا، والتحف الأثرية، وغيرها فهم لا يظنون أن لنصوصها

شأنًا عظيمًا في تأييد أقوال المؤرخين، أو إثبات خطأها، وهم لا يعرفون أنها تكشف لنا في كثير من الأحيان عن حقائق لا تعرض لها كتب الأدب، والتاريخ مما جعل المستشرقين يعفون عناية وافرة بدراسة هذه الأدلة المادية، وبجمعها، وتنظيمها، والتعليق عليها.

ومنهم من وقف جزءا كبيرة من حياته على هذه المهمة الشاقة. وعلى رأس هؤلاء العلماء الأستاذ السويسري مكس فان برشم . Max van Borehen عميد البليوجرافيا الإسلامية (علم قراءة الكتابات القديمة). وقد ولد هذا العالم الجليل سنة ١٨٦٣ وتلقى علومه في جنيف وشتتجارت، ودرس العلوم الشرقية في ليبزج، وبرلين، وباريس، ووجهه إدوار سخاو، وكلرمون جانو إلى دراسة الفيلولوجيا، وعلم الآثار، ولم يلبث – فان برشم – أن نبغ في قراءة الكتابات الأثرية العربية، وتفسيرها، وربطها مسائل التاريخ الإسلامي نبوغا جعله أكبر حجة في هذا الميدان، وعلم يهتدي به. واقتفى أثره علماء هذه الناحية من الدراسات الإسلامية في العصر الحاضر، ولا تزال الرسالة التي تقدم بها إلى جامعة ليزج للحصول على درجة الدكتوراه من المراجع الهامة في ضريبة الخراج[1] ثم زار فان برشم بلاد الشرق الإسلامي، ورجع منها بمحصول وافر من المواد، والمستندات العلمية اللازمة للعمل العظيم الذي كان يعد له نفسه، وأخذ يدرس الآثار الإسلامية في جامعة جنيف.

---

(1) موضوعها: La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes. étude sur l'impôt du Kharag

ورأى بثاقب نظره أن للعمائر الإسلامية، وما عليها من كتابات أخطر الشأن، وأجل الفائدة في دراسة المدنية الإسلامية، وتطور الحياة العقلية، والسياسية، والأدبية الأمم الشرق الأدنى. فعول على أن يصف العمائر المذكورة، وأن يجمع فصوص ما عليها من الكتابات، وأن يضمنها مؤلفا كبير أظهرت في حواشيه ثقافته العظيمة، وعلمه الغزير. هذا المؤلف الضخم هو Corpus inscriptionum arabicarun أي «جامع الكتابات العربية»، وليس لأي باحث في التاريخ الإسلامي غنى عنهُ.

واستعان فان برشم في هذا العمل الجليل بأعوان من خيرة تلاميذه، وزملائه فجمعوا معه الكتابات الأثرية في مصر، وسوريّة، وفلسطين، وأدرك مجمع الآداب في باريس قيمة «جامع الكتابات العربية» فشمله برعايته، وجعله لاحقا «لجامع الكتابات السامية» الذي عمل قبل ذلك على يد إرنست رينان.

وكتب فان برشم مع أدمون فاتيو وصفا لرحلته في سورية لا يزال من أنفس المراجع في تاريخها، وآثارها، والعلاقات بين الشرق، والغرب في عصر الحروب الصليبية. هذا كله فضلًا ما كتبه من أبحاث شتى في مختلف نواحي الآثار الإسلامية، والتاريخ الإسلامي مما لا مجال لاستقصائه هنا.

على أن الحرب أبعدت عنه كثيرين من تلاميذه، وأعوانه إذ شغلهم واجبهم نحو أوطانهم عن الدرس، والتحصيل، والكتابة، والتأليف . وكان

فان برشم السويسري المحايد يشاهد هذا في آسف، وحزن. ثم التي المحاربون سلاحهم، وعاد إلى العلم طلابه، وأساتذته، وبدأت الحياة تدب من جديد في أوساط المستشرقين، وعلماء الآثار، ولكن شاء القدر ألا ينعم فان برشم بعودة السلام طويلا إذ أنهكه العمل فسقط في ميدانه مريضا، وكان في مصر فنصحه الأطباء بالعودة سريعة إلى بلاده حيث لم يمهله المرض إلا بضعة أسابيع فمات في مارس سنة ١٩٢١.

مات فان برشم بيد أن على الكتابات الإسلامية القديمة كان قد نما، وترعرع، وتمشت أقدامه. وخلف فان برشم في حمل عبئه قليلون من تلاميذه، وعلى رأسهم جاستون فييت الذي وقف على إتمام الجزء المصري من «جامع الكتابات العربية»، فكتب الجزء الثاني من هذا المرجع الجليل [١] وكان طبيعيا أن يعمل تلاميذ فان برشم، وأعوانه على تحقيق رغبته في جمع كل النصوص العربية المكتوبة على العمائر، والتحف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فتضافروا على تنفيذ هذا المشروع، ونهض بأعبائه فييت G . Wiet وكومب Et. Combe وسوفاجيه J Sauvaget معتمدين على معونة المشتغلين بالآثار الإسلامية، والتاريخ الإسلامي.

وكان طبعا أن يهدي هذا السجل الجامع الشامل إلى روح فان برشم. كما كان اختيار العبارة العربية التي كتبت تحت الإهداء اختيارًا

---

(١) انظر G . Wiet : Corpus inscriptionum arabicarum , Egypte , tome II (Mém. de l'Institut fr. d'Archéologie Orientale t. 52, 1930)

موفقًا إلى أبعد حدود التوفيق:

"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ عن علم ينتفع به".

أجل! أي عبارة تصدق أكثر من هذه في الإشارة إلى الرسالة التي أدّاها فان برشم في حياته العلمية؟

هكذا ولدت فكرة السجل التاريخي للكتابات العربية:

Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe

وقد ظهر الجزء الأول منه سنة **١٩٣١** وتلته أجزاء أخرى حتى طبع الثامن في هذا العام، ويشتمل كل جزء من هذا السجل على أربعمائة كتابة مرتبة ترتيب تاريخيا، وموصوفة وصفًا موجزًا، وإلى جانب كل منها بيان بالمراجع المختلفة التي تحدثت عنها، أو عن العمارة، أو التحفة المكتوبة عليها. وهذا البيان خير دليل للباحثين في الدرس، والمقابلة.

وقد بدأ السجل بنقش التجارة المكتوب بالحروف النبطية سنة **٣٢٨** ميلادية، وتاريخ آخر الكتابات في الجزء الثامن سنة **٥٥٠** هـ، وقد جمع هذا السجل كل الكتابات المؤرخة، أو التي يمكن معرفة تاريخها باسم أمير، أو حاكم فيها، أو بطرازها الفني، أو بغير هذا، وذاك من الأدلة، والقرائن.

وهكذا نرى أن للباحثين في التاريخ الإسلامي مصادر خطيرة الشأن

بما تشتمل عليه من كتابات تاريخية تكشف عن كثير في حياة بناة العمائر، وأصحاب التحف، وفي تطور الأنظمة، والعادات، والحوادث السياسية في العالم الإسلامي. وأوفى هذه المصادر.

(١) جامع الكتابات العربية Corpus لفان برشم، وبعض زملائه، وتلاميذه.

(٢) سجل الكتابات العربية Repertoire لفييت، وكومب، وسوفاجيه، وبعض المشتغلين بالآثار الإسلامية.

هذان معجمان نفيسان، نحرص على التنويه بقيمتهما، وتتمنى أن نرى الطلاب، والباحثين يقبلون على الانتفاع بما فيهما.

أوراق البردي

كذلك نلاحظ أن كثيرين ممن يكتبون عندنا في التاريخ الإسلامي يهملون دراسة أوراق البردي إهمالا يؤاخذون عليه، وأن كثيرين منهم لا يعرفون شيئًا عن علم قراءة الأوراق البردية العربية، بينما تنبه إلى خطر شأنه الغربيون منذ زهاء قرن من الزمان.

فقد عثر بعض الفلاحين في سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة فيها ورقتان مكتوبتان باللغة العربية، وأرسلهما دروفتي قنصل فرنسا في القاهرة إذ ذاك إلى المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي فكتب مقالا عنهما في مجلة العلماء باريس سنة ١٨٢٠.

وفي النصف الثاني من القرن الماضي اضطرد العثور – ولا سيما في إقليم الفيوم – على أوراق البردي المكتوبة باللغة الإغريقية، أو العربية، أو هما معا. وبيعت جل هذه المجموعات إلى الأوربيين فتفرقت في المجموعات الأثرية، والمتاحف، ولا سيما في فينا، وبرلين، وباريس، ولكن دار الكتب المصرية لا تزال تحتفظ مجموعة معينة من أوراق البردي العربية التي كشفت في الفيوم، أو في غيرها من الأقاليم المصرية كأخميم، وسقارة، والأشمونين، وميت رهينة، وإهناسية، وإدفو.

وقد وقف الأستاذ أودلف جروهمان جزءا كبيرا من جهوده العلمية على درس أوراق البردي العربية، وأصدرت له دار الكتب المصرية مؤلفا – في جزئين – عما فيها من هذه الأوراق كما كتب كاراباتشك Karalacek وجروهمان عن أوراق البردي المحفوظة في مجموعة الأرشيدوق رينر Rhiner بالمكتبة الأهلية في فينا.

وكتب مرجوليوث سفرًا ضخمًا عما في مكتبة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في إنجلترا وكتب المستشرق الألماني بيكر Beeker عن الأوراق البردية في مجموعة شوت راينهارد Schott-Reinhardt وكتب أيضا عن مجموعة إفردويت في المتحف البريطاني[1] التي كتب عنها أيضا بل H .J. Bell و كروم. W.E.Crum .

([1]) لا يتسع المجال هنا لبيان الكتب، والمقالات التي كتبها هؤلاء المؤلفون، وفي استطاعة القارئ أن يعرفها بالبحث، والاستقصاء في فهارس دور الكتب.

وحسبك لتعرف قيمة هذه الأوراق البردية في دراسة الحياة الاجتماعية، والسياسية في مصر الإسلامية أن تعلم أن بينها وثائق حكومية تتعلق بالخراج، والجزية، والبريد، وإسناد المناصب، وأنظمة الإدارة، وطرق التجارة، وأثمان البضائع، والحاجيات المعاشية، والبيوت، والأراضي فضلا عن المكاتبات الخاصة التي تكشف عن أشياء دقيقة في العلاقة بين الأفراد، وأسراتهم، أو رؤسائهم، أو محبيهم.

هذه الأوراق البردية إذا مصدر صادق لدراسة الحياة في وادي النيل إبان العصور الوسطى فعسى أن يقبل الكتاب في التاريخ الإسلامي على استغلاله حق الاستغلال(١)

السكة

وإذا تذكرنا أن وجود اسم الخليفة، أو الأمير على عمالة إقليم من الأقاليم يشهد بخضوع هذا الإقليم له، فكتابة الاسم على السكة تشبه ذكره في الخطبة، أو كتابته على الأقمشة، وبعض التحف، نقول إذا تذكرنا ذلك، عرفنا ما لدرس الدنانير، والدراهم المضروبة في العالم الإسلامي من فائدة جليلة، في تحقيق كثير من حوادث الفتح، وإخضاع المدن حربا، أو صلحا. وقد عنى الغربيون كثرة ما في المتاحف، والمكتبات، والمجموعات الأثرية الخاصة من قطع العملة الإسلامية فصوروها، ونشروا لها الفهارس

---

(١) راجع المحاضرات الأربع التي ألقاها الأستاذ جروهمان في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة في إبريل سنة ١٩٣٠ عن الأوراق البردية العربية، وترجمها الأستاذ توفيق إسكاروس، وطبعتها دار الكتب المصرية

العالمية. فكتب لافوا H .Lavoix عن النقود الإسلامية في المكتبة الأهلية بباريس، وكتب كاستليوني Castilliogni عن المحفوظ مها بمتحف ميلانو، وكتب فون فريهن Von Fraclin وماركوف A. de. Markof . عما في متاحف سنت بطرسبرج (لينغراد) ونسلمان H . F . Nesselmann . عما في متحف العملة مدينة كونجزبرج بألمانيا، ولين بول Lane - Pool عما في المتحف البريطاني، ودار الكتب المصرية كما ألف هانس .J Hans ومولر J. H.Noller وسوفير Sauvaire وبتراسفسكي J Pietraszewski. وارتين باشا، وإسماعيل غالب، وأحمد توحيد، ونلسن رأيت Wright وروجرز زبك، E.T.Rogers ومحمد مبارك وماوس Mauiss ويونجفلايش Jungleisch وغيرهم المؤلفات الوافية في هذا الموضوع، ولكن أكثر كتابنا في التاريخ الإسلامي لا يعنون بهذه الكتب، ولا يعملون على أن يستنبطوا منها شيئا، بل أن أكثرهم يجهل وجودها، وربما كان جل الموجود مها في دار الكتب المصرية لم تفصل أطراف صفحاته حتى الآن. ومع ذلك فإن أميها الجليل قد يصر على ألا يسمح لك باستعارتها في الخارج حفظا لصالح الجمهور، وضمانا لانتفاع الجميع بها !!.

المراجع الجديدة

وقد لاحظنا أن اعتماد كتابنا على بعض المراجع الإنجليزية، أو الفرنسية القديمة عظيم جدا فسيد يلو، وجوستاف لوبون، وكونديه، ودوزي من أكثر الأسماء ورود في مراجعهم، ونحن لا نريد أن نبخس هؤلاء المستشرقين حقهم، ولكننا نذكر أنهم كانوا يكتبون في زمن لم

يكن على الاستشراف قد تقدم إلى الحد الذي بلغه الآن، فضلا عن أن معرفتهم اللغة العربية لم تكن من الهام بحيث مكنهم من قراءة المراجع العربية، واستنباط الحقائق التاريخية منها، ومما يزيد الطين بلة أن الأمانة العلمية عند بعضهم لم تكن فوق كل شك.

فالنصوص التي لم يفهموها كانوا يمرون عليها مر الكرام دون إشارة، أو تنبيه، وعواطفهم الدينية، والشعبية كانت تلتقي بهم أحيانا في أحضان التفاسير الخاطئة، وتجعلهم يستنبطون نتائج مشدودة من شعرها كما يقول الفرنسيون.

نود إذن أن ننبه طلابنا، وكتابا إلى المؤلفات الحديثة التي يكتبها المستشرقون لأخذ آرائهم بالدرس، والتمحيص، وتفنيد الفاسد منها، وتأييد الصحيح. كما أن ثمة طبعات جديدة لبعض المراجع القديمة، ينشرها أصحابها، ويضيفون إليها ما أفادوه من تقدم العلم، وطبع المخطوطات وظهور المؤلفات، ونشر الوثائق، والمستندات، مما قد يقلب كثيرا من نظرياتهم القديمة. ويعمل بعض المستشرقين على تمديح بعض المؤلفات التي كتبها شيوخهم، عاملين على إصلاح فاسدها، وكتابة الحواشي لشرح ما غمض منها، أو التعقيب على ما كان مقتضبا فيها. كما فعل الفي بروفنسال في تاريخ أسبانيا لدوزي.

فالواجب إذن أن يكون الطلاب على اتصال بالهيئات العلمية المختلفة لمعرفة ما يصدر من الكتب، والأبحاث، وما يشغل بال

المستشرقين، وأساتذة التاريخ الإسلامي في الشرق من المسائل، والنظريات، والحلول التي تراها المدارس المختلفة لبعض ما أشكل من حوادث التاريخ الإسلامي، والأحكام التي يصدرها الأساتذة على المراجع، والأبحاث للتمييز بين الغث منها والسمين، وليتيسر للطالب، أو الباحث أن يعرف الأساتذة الذين اختصوا بدراسة النواحي المختلفة في التاريخ الإسلامي، والمدنية الإسلامية. فالباحث في تاريخ مصر لا خير فيه أن ترك مؤلفات كتر مير ولين بول، وبيكر، وفان برشم، وفييت، ليرجع إلى ما جاء في موير، أو سيدلو، أو لسترينج Le Strange أو دوزي، كما أن الكاتب في تاريخ شمالي إفريقية، أو الأندلس يؤخذ عليه عدم الإلمام بما كتبه دوزي، وجورج مارسيه، ولفي بروفنسال، وفور تل، وكودل، وفون درهايدن، وغيرهم.

فنحن نحتاج قبل كل شيء إلى تنظيم بحثنا، والتفريق بين المراجع، و تقدير كل منها حق قدره، ومعرفة الناحية التي يمكن فيها الاعتماد عليه، والرجوع إليه.

أبحاث العلماء في المجلات العلمية

أنشأ المستشرقون في شتى البلاد الأوربية المجلات العلمية؛ لنشر أبحاثهم، وتسجيل نظرياتهم. وتشتمل المجلات المذكورة في كثير من الأحيان على مقالات من خطورة الشأن بدرجة عظيمة فتصبح من المراجع الأساسية في الموضوعات التي تتناولها. ولا غرو فإن الذين يقومون على تحريرها من العلماء الأجلاء ، فهم لا ينشرون إلا الأبحاث

التي لها قيمة عالمية كبيرة. فضلا عن أن كتاب المقالات المذكورة إما أساتذة لهم إطلاع كبير، وإلمام وافر ، وهم حجة في الموضوعات التي يكتبون فيها ، وأما من نوابغ الباحثين الناشئين، الذين يعنون كل العناية بهذه المقالات، ويعملون على أن تظهر فيها حسن طريقهم في البحث فضلا عما أفادوه من الدرس، والتحصيل؛ لأن هذه المقالات أكبر سلم إلى الشهرة في أوساط العلماء، وها رشح كتابها الكراسي التدريس، أو المناصب العلمية، والسياسية التي يتطلعون إليها.

وعلماء الغرب يعنون أشد العناية بالأبحاث التي تنتشر في المجلات العلمية التي قد تعرض يدرسونه من موضوعات. وهم يعتمدون على الجيد منها؛ لأنها تمثل جهود علماء يقفون جزءا كبيرًا من وقتهم لبحث إحدى المسائل، التي تؤهلهم للكتابة فيها دراساتهم، أو أوساطهم، أو رحلاتهم، أو غير ذلك من الظروف، والمناسبات.

ولكننا في مصر لا نعني بهذه الأبحاث، والمجلات العلمية الحية التي ترد إلى مكتبة دار الكتب، أو مكتبة الجامعة لا يفيد منها الطلاب فائدة تذكر، فيفوتهم ما فيها من أبحاث قد تهديهم إلى كثير من المراجع القديمة، وتكفيهم مؤونة قراءة طويلة في غير ما دليل، أو مرشد. فطلابنا لا يكادون يعرفون إلا المراجع العربية الرئيسية كالطبري، وابن الأثير، وابن خلدون، وأضراهم، و بعض المراجع الإفرنجية «الكلاسيك»، التي أضعفت قيمة كثير منها الدراسات الحديثة، ومؤلفات المستشرقين المعاصرين.

وأنك لتجد نتيجة ملموسة لإهمال هذه الأبحاث النفيسة في عقلية طلابنا، فهم يحتقرونها، ويحجبون الكتب الضخمة. وهم حين يفكرون في البحث، أو التأليف ينصرفون إلى الكليات دون الجزئيات فطالب الليسانس يريد أن يكتب رسالته عن حكم المماليك في مصر (مرة واحدة !!) وهو ينسى أن دولة المماليك ظلت في وادي النيل زهاء قرنين و نصف قرن، وإن الإدارة فيها كانت متشعبة، والحياة مضطربة بالأحداث، التي لا يكفي لبحتها بجلد، أو مجلدان، وأن في استطاعة عشرين طالبا أن يكتب كل منهم رسالة عن ناحية من نواحي الحياة العقلية، أو السياسية، أو الأدبية في عصر المماليك، وأن كل سلطان من سلاطين هذه الدولة يمكن أن يكتب عنه بحث قائم بنفسه، وأن مجلد يشتمل على تاريخها كله لا يمكن أن يكون رسالة علمية فيها بحث شخصي، وآراء جديدة، ولا يمكن أن يفيه حقه إلا أستاذ كبير، يكون همه تبسيط الحقائق، وشرحها، وربط بعضها بعض على نحو لا يتيسر لبادئ، أو طالب لم تكمل ثقافته بعد.

مؤلفات المستشرقين عامة

ولعلّ القارئ يرى أن حديثنا حتى الآن كان جله على مؤلفات المستشرقين، وأبحاثهم، ولعله يتساءل كيف نغض الطرف عن المراجع العربية، أو ما يكتبه المؤرخون المسلمون. والواقع أن هذا بعيد عن قصدنا، فالمراجع العربية القديمة لها عندنا المقام الأول.

وما يكتبه المؤرخون المسلمون المحدثون مختلف تبعا لقيمة صاحبه العالمية، وطريقته في التفكير، والبحث، والكتابة. ولكن الواقع أننا لم نحسن الإفادة من مراجعنا العربية القديمة، حتى اتصلنا بالغرب، وأخذنا طريقة الدرس عن المستشرقين. فلم نجحد الجميل؟ ولم تنكر أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا ابن خلدون، وما في مقدمته من نظريات اجتماعية تبدو كأنها وليدة القرن العشرين؟ ولم تنكر أننا تعلمنا من المستشرقين أن نحسن استغلال النصوص، وأن تنقب في بطون الكتب، وإن نبذل الجهود الجبارة في استنباط الإجابة على أسئلة تهمنا في العصور الحديثة، ولم يكن المؤلفون العرب يعنون بها، حين كانوا يستطردون في تفاصيل لا تأبه لها الآن؟، ولم تنكر أن المستشرقين علموا بعضنا طريقة الدرس، ونظام البحث، والتأليف؟، ولم تنكر أنهم دفعونا دفعة إلى العناية بدرس تاريخ مدنيتنا في أسلوب علمي سليم؟

قد يقال أن كثيرين من المستشرقين يعميهم التعصب الديني عن الحقائق، أو يدفعهم إلى قلبها، ولكن لا تكر ذلك بل أستطيع أن نقيم عليه ألف دليل، ودليل. ولكن الباحثين منا ليسوا أطفالا، لا يستطيعون أن يفطنوا إلى مثل هذه الحالات، وأن يتخذوا لها ما يجب من الحيطة، والحذر.

ولقد كان الأب لا مانس Lmmenas غفر الله له من أشد المتعصبين على الإسلام، وهو بعد ذلك من المعجبين ببني أمية؛ لأن دولتهم كانت لا دينية؛ ولأنهم أقاموا ملكهم في الشام، وتأثروا بالمدنية

القديمة التي قامت في ربوعه.

وكان المستشرقون أنفسهم يعرفون في لا مانس هذا العيب الكبير، ويأخذونه عليه [1]. ولكنه كان وافر الاطلاع. وحسب المرء نفعًا، ومرانًا في التاريخ الإسلامي أن يقرأ لا مانس، وأن يهضم ما يروقه من أبحاثه، وأن يبحث، وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقي، وأن يراجع النصوص التي كان يبني عليها لا مانس كثيرا من أحكامه، ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها، وكيف كان يهمل ما لا يتفق، ورأيه، وكيف أنه كان يغض الطرف أحيانا عن المناسبات، فيستنبط من الشواذ قواعد، ومن الحالات الفردية أحكاما عامة. وقصارى القول أن قراءة لا مانس، ومن على شاكلته، رياضة عالمية، ميدانها الكتب، والمكتبات، وتقرع فيها الحجة بالحجة، ويدفع النص الواحد بالنصوص الكثيرة.

ولكن بعد ذلك كله، لا نظن أن باحثا منصفا يستطيع أن ينكر ضرورة الإلمام بكل ما يكتب المستشرقون؛ لأن أكثر ما يكتبونه دقيق، ومنظم، وفيه كثير من مزايا البحث العلمي الصحيح، أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركها، ونحذر شرها. ومع ذلك فإن الروح التي تسود المستشرقين اليوم في الكتابة عن الإسلام ليست هي الروح التي كانت تسود أكثرهم في الحيل الماضي. فأغلبهم اليوم يدفعه إلى درس المدنية الإسلامية ميل إليها، وإعجابها، ومن ثم فإنهم في الجملة أكثر إنصافًا

---

(1) راجع مقال الأستاذ فييت في تأبين الأب لا مانس ، وذلك في مجلد سنة ١٩٣٧ من مجلة الجمع العلمي المصري (Bulletin de l.Institut d ' Egypte)

الآن منهم في الماضي.

وجلهم يعملون على أن يتركوا الحكم على العقائد الدينية تركا تاما، وأن يكتبوا بأسلوب علمي عن الظواهر الاجتماعية، والأحداث السياسية في حد ذاتها، وأن محكموا على أبطال التاريخ الإسلامي، وأمرائه من الناحية الشخصية، والسياسية فحسب، تاركين الدين جانبه بل عاملين على تفهم البيئة العربية، وما كان للإسلام من فضل في توحيد كلمة العرب، وإعلاء شأن المسلمين في العصور الوسطى.

والذي يزيد مؤلفات المستشرقين قيمة، ويجعل كثيرين منهم حجة في الموضوعات التي يكتبونها نظام التخصص الذي اتخذوه. فإن المتبع عندهم إذا أكمل الناشيء منهم دراسته أن يتخذ فرع يحلو له فيزداد فيه تعمق، ويثار على الدرس، والتحصيل فيه ليصبح ثقة يعتمد عليه طلاب هذا الفرع، ويرجعون الله في تفهم معمياته. ومن ثم نشأ نظام في التأليف لم نعرفه في مصر تماما. وهو نظام التعاون في تأليف كتاب من الكتب، يخرجه أحد الأساتذة، ويكتب فيه أساتذة آخرون كل في الفرع الذي وقف نفسه على دراسته. ومن أصدق الأمثلة في هذا الميدان كتاب راث الإسلام الذي أخرجه توماس أرنولد، والفريد جيوم، واشترك في الكتابة فيه الأساتذة جب ورينل وباركر، ونيكولسن، ومايرهوف، وكرادي فو، وغيرهم.

وهناك مؤلفات عظيمة النفع في دراسة التجارة بين الشرق، والغرب في العصور الوسطى. وكلها تشتمل على بيانات دقيقة، وأبحاث طبية في هذا الموضوع، ولكنها لاحظنا أن أشخاصًا يهملونها إهمالًا معيبًا.

فكتاب هايد Heyd في تاريخ تجارة الشرق في العصور الوسطى [1] كتب سنة ١٨٧٩ ولا يزال حتى الآن المرجع إلا، وفي في موضوعه. ومقالات جاكوب Jacob. G عن تجارة العرب مع بلاد بحر البلطيق طريفة، وشائقة، بما فيها من بيانات، وحقائق. وكتاب الموظف الصيني شاو يوكوا Chaut Ju-kula عن التجارة الصينية العربية في القرنين الثاني عشر، والثالث عشر بعد الميلاد غني با خيار رحلات التجار بين هذين البلدين، وما كانوا يحملونه من بضائع، ويسردونه من أخبار. وقد نقل هذا الكتاب النفيس إلى الإنجليزية على يد الأستاذين هرث Hirth Fr.وركول W . W . Rockhill وطبع في سنت بطرسبرج (لينغراد) سنة ١٩١٢.

كل هذه مؤلفات فيها أخبار جمة تهم الباحثين في التاريخ الإسلامي، ولكن أكثرهم لم يطرقها بعد.

---

(1) والطبعة الفرنسية W . Heyd : Geschichte des Levantelandels in Mittelalter
Histoire du Commerce du Levant au moyen-âge. Ligi

كتب الرحلات

كذلك قلّ أن نجد بين طلابنا، وكتابنا من يعني بدراسة كتب الرحلات، واستنباط الحقائق التاريخية منها. ولا يستطيع باحث أن ينكر أن بعضها يشتمل على وصف دقيق للحياة الاجتماعية، والسياسية في مختلف البلاد الإسلامية. فرحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير، والنفحة المسكية في السفارة التركية (١) ورحلة سلمان التاجر العربي في الهند، والصين (٢) والرحلات التي طبعها ج. فران G . Ferrand (٣) وكذلك مرآة الحرمين اللواء رفعت باشا، والرحلة الحجازية، ورحلة الأندلس للبتانوني، كلها مؤلفات يستطيع الباحث أن يستخرج منها شيئا كثيرا عن العالم الإسلامي، وأحواله الاجتماعية، يوازي ما يمكن استنباطه من رحلات الأوربيين في العالم الإسلامي مثل ماركوبولو ونيبهر Nebuhr و فون ملتزان Von Maltzan و بوكوك Pococke و پترمان Petermann والفاريز Alvare وبومجارتن Baumgarten ودوني Douté وستوكهر جرونيه Snouck Hurgronje و تافرنديه Tavernier وتيقنو Thevenot

---

(١) انظر A. Tamgrouti : In-Nafat al-Miskiya fi-s-sifarat et - Tourkiya. ! Relation d'une ambassade marocaine en Turquie (1581-91) Paris 1929, Publications de la Section Historique du Marco.

(٢) عنوانها بالعربية (سلسلة التواريخ)، وقد علمت هي، والذيل الذي كتبه لها أبو زيد حسن، وذلك يد الأستاذ رينو مع مقدمة طويلة، وزجت إلى اللغة الفرنسية في باريس سنة ١٨١٥.

(٣) انظر G. Ferrand : Relations des voyages et textes géographiques arabes, y persans et tures, relatifs à l'Extrème. Orient, du VIIIe au XVIIe siècles, traduits, revus et annotés par G. Ferrand, Paris 1913-14.

و تورنفورت Tounefort وغيرهم.

حواشي المستشرقين، وتعليقاتهم

وهذه مراجع نفيسة أيضًا. فقد جرى كثيرون من المستشرقين على سنة طبع الكتب العربية، أو رجمتها إلى لغاتهم مع كتابة الحواشي الطويلة لشرح محتوياتها، أو المقارنة بين ما جاء فيها، وما جاء في غيرها من المصادر، أو لبيان الروايات المكتوبة في مخطوطات مختلفة من كتاب واحد.

ولعل خير مثال أسوقه دليلا على خطر هذه الحواشي، وجليل شأنها طبعة الأستاذ فبدت لخطط المقريزي . ولا غرو فلفة المقريزي ليست سهلة ، وطبعة بولاق من الخطط مملوءة بالأخطاء ولأن هذا الكتاب من نفس المصادر الأساسية لدراسة التاريخ الإسلامي، والآثار العربية في مصر، فقد بدأ الأستاذ فييت منذ سنة ١٩١٠ في نشر طبعة جديدة له، لم يصدر منها إلا خمسة أجزاء ضخمة، ولكنها لم تصل إلى نهاية الجزء الأول من طبعة بولاق؛ لأن حواشيها غنية جدا، وفهارسها طويلة، ومتنوعة، ولكن الأستاذ فييت انصرف لسوء الحظ عن هذا العمل المضني إلى غيره من الأبحاث، والمؤلفات. ولدينا مثال آخر من شروحه الشاملة، نجده في ترجمة كتاب البلدان لليعقوبي، وقد ظهرت هذا العام [١].

ومثل هذه الطريقة في طبع الكتب القديمة بكثير من الشروح، والحواشي حديثة في مصر، ولا نكاد نجدها إلى حد ما إلا في الكتب

([١]) انظر Yakubi : Les Pays, traduit par Gaston Wiet, (Textes et Traductions wi( ) d'Auteurs Orientaux, Publ. de l'Inst. fr. d'Archéol. Or., 1937)

التي وقف على نشرها أساتذة الجامعة، أو رجال القسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ولكننا نرى مثالا طيبا لها في كتاب السلوك للمقريزي، الذي نشره وكتب حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة، وطبعته لجنة التأليف، والترجمة، والنشر.

مجموعات الأبحاث

بقي أن نلفت نظر القراء إلى الأبحاث النفيسة التي تظهر في الكتب التي يتضافر على تأليفها الغربيون في بعض المناسبات، كالذي هديه بعض المستشرقين إلى شيوخهم من الأساتذة عند بلوغهم الستين، أو السبعين – ومن ذلك كتب أهديت إلى فليشر Fleischer وهو مل Hommel وجولدزهر Goldziher وجا كوب و راون Brown – أو الكتب التي تؤلف تكريما لبعض الأساتذة الأحياء كالمستشرق جود فروا ديو مبين، أستأذنا في جامعة باريس، ومدرسة اللغات الشرقية Gaudetroy - Denombynes ، أو تكتب أحيانا أحياء لذكرى أساتذة آخرين مثل باسية Basset أو ماسبرو.

وكذلك الكتب التي تصدرها المعاهد العلمية في مناسبة مرور السنين الطويلة على تأسيسها، ومثال ذلك الكتاب الذي أصدرته مدرسة اللغات الشرقية في باريس في عيدها المئوي. ولن يفوتنا أن نشير إلى محاضر مؤتمرات المستشرقين، وما يهدى إلى هذه المؤتمرات من مؤلفات، ويلتقي فيها من أبحاث. وقد عقد من هذه المؤتمرات منذ سنة

١٨٧٣ حتى الآن تسعة عشر مؤتمرة: في باريس سنة ١٨٧٣، ولندن سنة ١٨٧٤، وسنت بطرسبرج سنة ١٨٧٩، وفلورنسة سنة ١٨٧٨، وبرلين سنة ١٨٨١، وليدن ستة ١٨٨٣،وفينا سنة ١٨٨٦، وستوكهلم، وكريستيانيا سنة ١٨٨٩، ولندن سنة ١٨٩٢، وجنيف سنة ١٨٩٤، وباريس سنة ١٨٩٧، وروما سنة ١٨٩٩، وهامبرج سنة ١٩٠٢، ومدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وكوبنهاجن سنة ١٩٠٨، واثنا سنة ١٩١٢، وإكسفورد ستة ١٩٢٨، ولدن سنة ١٩٣١، وروما سنة ١٩٣٥، وصدرت عنها مؤلفات هي معين لا ينضب للعلوم الشرقية على اختلاف أنواعها.

اللغات الأجنبية

على أن كثيرًا من المراجع التي استعرضناها في هذا المقال مكتوبة باللغة الألمانية، أو الإيطالية. وهما لغتان لم يقبل الطلاب المصريون على دراستهما بعد. واللغة الألمانية صعبة المنال، بينما الإيطالية ليست سهلة إلا لمن يتقن الفرنسية، ويعرف أصول اللغة اللاتينية، ولكن يلوح لنا أن كثيرين من الباحثين، والطلاب في مصر يحجمون عن تعلم اللغات الأجنبية؛ لأنهم يخشون صعوبتها، ويخافون أن تضيع أتعابهم سدى.

والذي نريد أن نقرره هنا أن العلماء يميزون بين دراسة أي لغة دراسة وافية ليمكن التكلم، والكتابة بها ، وبين دراستها للتمكن من قراءة ما كتب فيها من المؤلفات التي هم الاطلاع عليها، وإنما نعرف كثيرين من

المستشرقين لا يستطيعون أن يتكلموا إلا لغات بلادهم، ومع ذلك فهم يستوعبون كل ما يكتب باللغات الأخرى في الفروع التي يدرسونها. ولاغرو فإن الأمر في هذه الحالة لا يتجاوز حفظ عدد كبير من المفردات – ولا ننسى أن جزءا كبيرة منها مشترك في الإنجليزية، والفرنسية، أو في الفرنسية، والإيطالية، أو في الإنجليزية، والألمانية، وهكذا – ودراسة النحو، والصرف، والدأب على القراءة حتى تثبت العبارات، والمفردات، ولاسيما ما يتكرر وروده منها في أبحاث الفروع التي يدرسها الطالب. فدراسة اللغة دراسة جدية سنة، أو سنتين مع شيء من الدأب، والمثابرة كافية للوصول إلى هذه النتيجة.

وقصارى القول أننا نود أن يتنبه الكتاب إلى تفاهة الاعتذار بجهل اللغة الألمانية مثلا. فنحن لا نريد أن يترافعوا بها، أو يلقوا الخطاب، ويكتبوا الأبحاث. بل حسبنا أن يستطيعوا، وإلى جانبهم معاجم اللغة – أن يقرأوا كتابا، أو بحثا فيعرفوا ما جاء فيه، وإلا فحدثني ربك عن حال طالب يدرس الإدارة في مصر الإسلامية في نهاية القرن الثالث، وبداية القرن الرابع للهجرة، ويفوته أن يقرأ كتابا في نحو ١٣٠ صحيفة ألفة بالألمانية جوتشلك H.Gotschalk عن أسرة المادرائيين، التي كان لها شأن خطير في الإدارة المصرية في عصر الطولونيين، وبعد أن زالت دولتهم وعادت مصر إلى حك الدولة العباسية [1]. هذا مثال واحد، ولن يعجزنا أن نأتي بغيره من الأمثلة ولكن المقام لا يتسع لغيره.

---

(1) انظر كتابنا Les Tulunides, Etude de l ' Egypte musulmane a la fin du IXe

وإذا فرضنا أن الطالب كان ممن لا استعداد عندهم لدراسة اللغة الألمانية، أو الإيطالية، وإنه ممن لا يرجى منهم نفع في هذه الناحية فجدير به أن يسعى في تعويض جزء من هذه الخسارة، وذلك بالبحث، والتنقيب عما نشر من تراجم، أو تعليقات على المؤلفات الأجنبية التي يهمه أمرها فكثير من أبحاث بيكر Backer عن تاريخ مصر الإسلامية ملخص في المقالين اللذين كتبا عن مصر، وعن القاهرة في دارة المعارف الإسلامية التي يظهر مها طبعة إنجليزية، وطبعة فرنسية غير الطبعة الألمانية. وحبذا لو عنيت لجنة ترجمة دائرة المعارف إلى اللغة العربية بتعريب هذين المقالين منذ الآن في عددين مستقلين بدون انتظار الوصول إلى ترتيبها في الحروف الأبجدية.

خاتمة

يرى القارئ الكريم أننا استعرضنا في هذا المقال بعض المراجع التي ثبت لنا أن كتابنا يهملونها، أو لا يعرفون عنها شيئا. كما ظهر لنا من قراءة بعض أبحانهم، أو المصادر التي يقررون إنهم رجعوا إليها في تأليف كتبهم.

وإذا جاز لنا أن ننبه إلى أشياء أخرى نرمي بها إلى أن تكون أبحاث التاريخ الإسلامي في اللغة العربية جامعة شاملة، ودقيقة غير سطحية، وجب أن تصح الطلاب، وكثيرين من الكتاب بأن يعنوا بإتباع طريقة «الفيش» في قراءاتهم، وذلك بإثبات ما يهم في قرائهم على قصاصات

من الورق، يرتبوها بحسب الموضوعات، ويرجعون إليها عند الحاجة، ليؤلفوا منها عناصر أبحاثهم، ولمكنهم من الرجوع إلى مختلف المصادر، وليسهل عليهم بفضلها تبويب كتبهم، والإحاطة بما يكتب في موضوعاتهم. وعمة شيء آخر نود آن هم به المؤلفون.

هو العناية بعمل «كشاف»، أو فهارس أبجدية يختمون بها كتبهم ليسهل الرجوع إليها، والانتفاع بجهودهم فيها. ونحن إن فاتنا أن نقوم بعمل كشاف لهذا الكتاب فلان المجال، والوقت لا يسمحان بذلك، فضلا عن أننا ننسج في أسلوب تأليفه على هدية المقتطف عن مصر الفرعونية في العام الماضي، وتحرص على أن يكون له حجم معين لا نملك أن نتجاوزه.

الفهرس